WACINY LAREDJ

واسيني

مَيْ

لَيَالِي إيزيسْ كُوبِيَا

ثلاثمئة ليلة وليلة في جحيم العصفورية

رواية

دار الآداب

مَيْ لَيالِي إيزِيس كُوبِيَا

ثلاثمائة ليلة وليلة في جحيم العصفوريَّة

واسيني

مِيْ لَيالِي إِيزِيس كُوبِيَا

ثلاثمئة ليلة وليلة في جحيم العصفوريَّة

رواية

دار الآداب ـ بيروت

مَيْ / لَيالي إِيزِيس كُوبِيَا
ثلاثمئة ليلة وليلة في جحيم العصفوريَّة
واسيني / روائي جزائري
الطبعة الأولى عام 2018
ISBN 978-9953-568-0

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

أَتَمَنَّى أنْ يَأْتِيَ بَعْدِي مَنْ يُنْصِفُنِي.

مَيْ زيادَة

أراني في وطني تلك الغريبةَ الطريدة التي لا وطن لها.

مي زيادة

Tu me dis, Dieu a pitié des affligés, Dieu est bon etc̃ parlons-en à ton Dieu qui laisse pourrir une innocente au fond d'un asile[1].

Camille Claudel 1934

(١) تقول لي إنَّ الله يعطف على المظلومين، وإنَّه طيِّب... إلخ. لنسأل إلٰهك الذي يترك البراءة تتعفَّن في ملجأ المجانين؟

في مُلابَسات مَخْطُوطَة «لَيالِي العَصْفُورِيَّة»

ـ ١ ـ

لا أعتقد أنَّ مخطوطة شغلت بالي وبال الكثير من الباحثين، مثل مخطوطة *«ليالي العصفوريَّة»*، لمي زيادة، الضائعةِ منذ أكثر من سبعين سنة. أجيال كثيرة تعاقبت، راكضةً في كلِّ الاتِّجاهات بحثًا عنها، لكن من دون جدوى. هل لأنَّ المخطوطة ضاعت حقيقة؟ أم لأنَّ قَدَرًا أعمى شاء غير ذلك، فرماها في بقعة مظلمة ليجعل من العثور عليها، استحالةً؟

سمعت الكثير عنها في قسم المخطوطات العربيَّة، في المكتبة الوطنيَّة الفرنسيَّة ـ *فرانسوا ميتران*، BNF، التي أعمل فيها منذ قرابة ثلاثين سنة، لكنِّي لم أُعرها الاهتمام الذي يليق بها، لانشغالي بالركض وراء مخطوطات أخرى كانت على مرمى يدَيَّ وبصري. ربَّما لأنَّ ما قرأته عن المخطوطة خلَّف لديَّ يأسًا كبيرًا من العثور عليها،

من دون أن يُنسيَنِي ذلك مي زيادة، التي ظلَّت قصَّة حياتها القاسية عالقة في ذهني مثل الكثيرين من أبناء جيلي.

ـ ٢ ـ

بدأ كلّ شيء بفكرة إنجاز شريط وثائقيّ عن مي إلياس زيادة، أُحبِطتْ منذ اللحظة الأولى، كنت أحضِّر له برفقة الباحثة الكنديَّة اللبنانيَّة المعروفة، روز خليل، المتخصِّصة بالدراسات النسائيَّة العربيَّة، في مخبر *الأبحاث الأنثروبولوجيَّة والأدبيَّة* في مونتريال (LRAL)، والمنتسبة إلى مخبر *الأبحاث التاريخيَّة والفنِّيَّة* في الجامعة الأميركيَّة في بيروت (AUB). تعرَّفت إليها منذ قُرابة عشر سنوات في ندوة دوليَّة عن مصير المخطوطات العربيَّة المتنوِّعة، الضائعة، في جامعة مونتريال. والغريب هو أنَّ الكثير من هذه المخطوطات لم يظهر إلَّا كعناوين في الدليل الذي يعرفه أهل التخصُّص، أو ورد في أحاديث مقتضبة لدى بعض الدارسين والموسوعيين. وترجِّح روز احتمال حرق هذه المخطوطات من بين ما أُحرِق لأسباب دينيَّة، أو سياسيَّة، أو لأسباب سرِّيَّة تتعلَّق بالمحرّم.

تحدَّثنا طويلًا لسنوات متتالية عن الحالة المُزرية التي توجد فيها الكثير من المخطوطات العربيَّة وعن كيفيَّة إنقاذها. وجاء الحديث، في السياق نفسه، عن مي زيادة التي ضاع الكثير من مخطوطاتها التي لم تظهر حتى اليوم، ومن بينها «*الليالي العصفوريَّة*»، «*بيتي اللبناني*»، و«*مذكَّراتي*»، أي كلّ ما يتعلَّق بحياتها الخاصَّة، كأنَّ وراء هذا الضياع يدًا مجرمة، لا تريدنا أن نسمع صوت مي الخفيّ، الذاتيّ السرِّي، والحميميّ.

فجأة، تحوَّل الانشغال بمي إلى قضيَّة جوهريَّة وأساسيَّة في حياتي، وخصوصًا مخطوطتها *«الیالي العصفوريَّة»*. كنت دائمًا أتساءل: لا بدَّ من وجود سبب ما يتخفَّى وراء طمسها، إذا لم تكن قد مُزِّقت أو أُحرقتْ بيد مي نفسها، في حالة من حالات اكتئابها الحادَّة.

وكان لا بدَّ من أن أتَّخذ قرارًا، إذ من دون ذلك لا يمكننا أن ننجز شيئًا جادًّا.

تفرَّغت لمي زيادة، على مدار أكثر من ثلاث سنوات، استعدت فيها كتاباتها بلا تمييز لأفهمها عميقًا، بحثًا عمَّا يمكن أن يسهل لي مسالك البحث، ويدلّني على المخطوطة الضائعة *«الیالي العصفوريَّة»*. الحلقة الأهمّ والناقصة، في أعمالها.

في الجوهر، كنت أريد معرفة دقائق فترة حجزها في مستشفى الأمراض العصبيَّة والنفسيَّة، العصفوريَّة، في بيروت، والتي سجَّلت فيها يوميَّاتها الموجعة، وأعطتها عنوانًا موحيًا بالألم والنسيان والظلم.

الفجيعة هي أنّ المخطوطة غير متوفِّرة في أيِّ مكان، على الرَّغم من جهود الباحثين المختصِّين الذين ركضوا طويلًا قبل أن ييأسوا ويرفعوا الراية البيضاء.

ـ ٣ ـ

طبيعيّ أن تكون *العصفوريَّة*، هي المكان الأنسب لتصوير الشريط الوثائقيّ عن مي، وهو أمر سيُعطي، كما افترضنا على الأقلِّ، إحساسًا مميَّزًا لدى المشاهد المحبّ لهذه الكاتبة التي أحرقها طمع الآخرين وجشعهم، وقد تصيَّدوها حتى نالوا منها مقتلًا.

بدأت العمل بحماسة، معتمدًا على مساعدة روز خليل، المعنيَّة هي أيضًا بقضيَّة مي.

على الرَّغم من ركضنا هنا وهناك، للسماح لنا بالتصوير، فإنَّنا لم نفلح أبدًا. كان السياج أكبر من إرادتنا. ولم تنفع الضمانات التي قدَّمناها إلى مسيِّري أملاك العصفوريَّة، على الرَّغم من الموافقة المبدئيَّة للبلديَّة. فقد رفضت إدارة سوليدير[١] المالكة للعقار، رفضًا حادًّا

(١) للعصفوريَّة تاريخ طويل. العصفوريَّة: أكثر من كلمة في ذاكرة اللبنانيين والعرب أيضًا. هي أوَّل مصحّ للأمراض العقليَّة في لبنان. وباتت، اليوم، شركة سوليدير تُدير العقار الكبير والثمين، بينما تُدير شركات أخرى البيع والاستثمار، لتسويق «قرية بيروت» التي تُشيَّد على أنقاض «العصفوريَّة». فرغت «العصفوريّة» اليوم من البشر. أصبحت جنَّةً للطيور التي تجد، بين أشجار الصنوبر والمباني التاريخيَّة، ملاذًا لها. مبانٍ تذكِّر الزائر بالجامعة الأميركيَّة في بيروت. فقد شُيّدت «العصفوريَّة» على أيدي متابعين من الإرساليَّات الأميركيّة في نهاية سنة ١٨٩٠، بعد إذنٍ من السلطنة العثمانيَّة. وهي تمتدُّ على مساحة ١٣٠ ألف متر مربَّع من الأرض الخضراء، وتضمّ ٤٦ مبنًى. كانت، في مطلع القرن الماضي، أكبرَ مستشفى للأمراض العقليَّة في الشرق الأوسط. وبات أيّ مستشفى للأمراض العقليَّة يحمل اسم «العصفوريَّة». وحتى حينما توقَّف استعمال المصحّ، في سنة ١٩٧٢، ظلَّت كلمة «العصفوريَّة» متداوَلة، وأُلصقت بمستشفى دير الصليب الذي يقوم اليوم بالوظيفة نفسها. تغيَّرت جهة استعمال العقار في سنة ١٩٧٢، حين استملكته شركة جفينور Geffinor لإنشاء مدينة سكنيَّة عليه. بدأت آنذاك، «مجزرة» المباني التاريخيَّة التي أُخليت من المرضى. وامتدَّت عمليَّة التفكيك خلال الحرب الأهليَّة، وكان كلّ من أراد البناء، في المنطقة، يجد في العصفوريَّة ملاذه من الحجارة وأدوات البناء المهمَلة. لم يبق من «المدينة» إلَّا ثلاثة مبانٍ: أكبرها، إدارة المستشفى، والثاني والثالث كان المرضى يُقيمون بهما. شُيِّد المبنى الأساسي نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، وقد بُنِيَ بالحجر الأصفر، وغُطِّي سقفه بالقرميد. وهذا المبنى في حالة جيِّدة، وتحيط به حديقة نمت أشجارها تزامنًا مع نموّ المبنى. وعلى بعد أمتار، يستكين المبنى الثاني، المغطَّى بالقرميد أيضًا. ويعود إلى خمسينيَّات القرن الماضي، وكان يُستعمل =

مشروعَنا لسبب غير واضح، سوى أنّها اصطدمت برفض الكثير من المحافظين على تراث بيروت ولبنان، وهي تباشر استثمار مساحات العصفوريّة الأرضيّة والحرجيّة. ظلّت الشركة مصمِّمة على تغيير ذاكرة المكان، وتحويله إلى مساحات تجاريّة وفنادق، وربّما نقل مركز مدينة بيروت إلى هناك، وتغيير الاسم، من بشاعة *العصفوريّة* إلى أناقة *قرية بيروت*.

كانت خيبتنا.

غرقنا فجأة في سلسلة من الاحتمالات، والفَرَضيّات، أهمّها هي أنّ المخطوطة موجودة، وضائعة في مكان ما، وعلينا البحث عنها. كنّا

مستشفًى. وهذا المبنى في حالة جيِّدة، ويمكن المحافظة عليه. أمّا المبنى الثالث، فهندسته مغايرة تمامًا. فيه بهو واسع، تُحيط به غرف وأروقة متّصلة، بعضها ببعض، عبر قناطر من الخرسانة. دُمِّر سقف المبنى الثالث منذ سنين، لكنّ الجدران صامدة، والقناطر لم تسقط بعد. وتتطلّب المحافظة على هذه المباني، عمليًّا، طلبًا قانونيًّا، إذ أدرجتها المديريّة العامّة للآثار في الجَرد العام للمواقع الأثريّة، لكنّ مالكي العقار صعَّبوا القضيّة. في سنة ٢٠٠٨، أبرم المُلّاك صفقة خاصّة، باعت بموجبها شركة «جفينور» العقار لعبد الله تماري (معروف بأنّه الواجهة الرئيسيّة لأعمال شركة سوليدير)، بمبلغ ١٠٠ مليون دولار أميركي، أي بتشييد ٢٠٠ ألف متر مربَّع. وتُفيد المعلومات الأخيرة بأنّ الشركة استحصلت من التنظيم المدني على إذن بإقامة أبراج يصل ارتفاعها إلى ٨٠ مترًا، وزادت بذلك عامل الاستثمار. طرحت «قرية بيروت»، أخيرًا، على سوق الاستثمار، تحت إشراف البنك العربي (المعروف بنفوذ آل الحريري داخل إدارته)، وMed Securities Investment التي تتبع Bank Med الذي يملكه آل الحريري، إعلانًا تسويقيًّا، يقول إنّ شركة سوليدير الدوليّة ستُدير المشروع. تعرف سوليدير كيف تستغلّ المباني التاريخيّة لتسويق مشروعها، لكنّها، في الوقت نفسه، لا تريد لأحد أن يتذكّر أنّ «قرية بيروت» كانت في الأصل، مصحًّا عقليًّا يؤوي المئات من المرضى.

نعرف أنّ الكثير من مخطوطات مي تمّ العثور عليها في السنوات الأخيرة فقط، فتمّت طباعتها وإلحاقها بأعمالها الأخرى. لمَ لا تكون *«ليالي العصفوريّة»* من هذه النصوص الضائعة يومًا ما؟

— ٤ —

وبدأنا في خوض مغامرة البحث الكبيرة.

صمّمنا على أن ننسى حكاية الفيلم الوثائقيّ، وڤيتو سوليدير الأخرق، وندّخر كلّ جهودنا للبحث عن المخطوطة.

تمكّنّا، في البداية، من تحديد أمكنة أوّليّة للزيارة. تحصّلنا على وثائق كثيرة، حدّدتْ وجهَتنا في عمليّة البحث. سبق أن حاضرتْ مي، في العديد من المرّات، في الجامعة الأميركيّة في بيروت، ومنها أهمّ محاضرة[1] ألقتها هناك، عندما استمالت الكثير من أصدقائها إليها، واعتُرِفَ لها نهائيًّا، بالحقّ والعقل.

كانت المسارات الأولى ناجحة جدًّا. فقد وجدنا بعض آثار كتاب *«ليالي العصفوريّة»*. زرنا مستشفى نقولا رابيز[2] الذي أمضت فيه مي فترة استراحتها بعد خروجها من المصحّ العقليّ. كانت منهكة، لكنّها لم تتوقّف عن الكتابة في أيّ لحظة من اللحظات الصعبة. وأكّدت كلّ الوثائق التي توصّلنا إليها أنّها واصلت كتابة حرائقها حتى بعد مغادرتها العصفوريّة. وتعرّفنا إلى بعض الشخصيّات المهمّة التي ربطتها علاقات

(١) عنوان المحاضرة: «رسالة الأديب إلى الحياة العربيّة»، وألقتها مي زيادة، في «الويست هول» في الجامعة الأميركيّة، في بيروت، يوم الثلاثاء ٢٢ آذار/ مارس ١٩٣٩، عند الساعة الثامنة مساء.

(٢) Nicola RABIZ.

صداقة بعائلة زيادة، عن طريق الأهل الذين زاروا مي في رابيز أو الفريكا، الأمر الذي جعل الصورة تتَّضح أكثر. وأهمّ وثيقة صغيرة، لكنَّها شديدة الأهمِّيَّة، وكانت دليلنا في تنقُّلاتنا الصعبة، هي كتاب: *«قصّتي مع مي»*، وهو الكتاب الذي خلَّفه وراءه صديقها أمين الريحاني، فقد كان أصدق من كتب عنها بحبٍّ وحياديَّة. لم يذكر مفاخره معها على الرَّغم من حبِّه لها، كما فعل الآخرون، لكنَّه خصَّصه لمحنتها، أكثر ممَّا خصَّصه لنفسه.

ـ ٥ ـ

لا توجد امرأة عربيَّة في التاريخ الحديث وحتى القديم، نالت ما نالته مي، من عشَّاقها، على الرَّغم من أنَّها كانت دائمًا بعيدة عنهم بأكثر من خطوة. كان هذا الكتاب الوثيقة منارة لنا، لأنَّنا كلّما تقدَّمنا في البحث، وجدنا دقَّة أمين الريحاني فيما قام به بشكل صادق وصريح. زرنا الفريكا، حيث البيتُ الذي اكتراه لها، حتى يسهر على راحتها هو وعائلته، قبل زيارتنا ضيعة شحتول، أرضَ والدها إلياس زخُّور، التي يقطنها الكثير من أهل زيادة.

كلّما توغَّلنا في أسئلتنا لأقربائها، لاحظنا فخرًا كبيرًا *بابنتهم* مي، ممزوجًا بالريبة منها، واللوم المبطَّن. فقد وضعوا لها تمثالًا نصفيًّا جميلًا عند مدخل الضيعة، وفي مدرسة شحتول الرسميَّة التي رعاها المدير العام للتربية، الأستاذ جورج نعمة. فقد نحتوا لها مجسَّمًا نصفيًّا، أزاح الستار عنه في سنة ١٩٨٦، الرئيسُ أمين الجميِّل، في الذكرى المئويَّة لميلادها. لكنْ، كلّما سألنا أحدًا عن قصَّة *العصفوريَّة*، التفت صوب الفراغ وتمتم: صعب *أن أحكي عنها، فقد كانت حالتها*

الصحِّيَّة والنفسيَّة قاسية. لا يتعلَّق الأمر طبعًا بحالتها الصحِّيَّة التي يمكن أن تُصيب أيّ شخص، لكن بقصَّة الاستيلاء على أملاكها وحجرها، من طرف العائلة، ووضعها تحت الوصاية بسبب جنونها، كما زعموا.

عندما قدَّمت الموضوع إلى روز، أوَّل مرَّة، قالت بلهجة مصريَّة ساخرة: *أنت تضربني على اليد إلّلي بتوجعني. شكرًا لأنَّك أشركتني. من حيث المبدأ، أنا مستعدَّة للذهاب معك بعيدًا في المشروع. أحتاج فقط إلى بعض الوقت لترتيب شؤوني مع مؤسَّستي، وأرى إذا كان مسؤولوها مستعدِّين لتحمُّل غياباتي المتكرِّرة.*

وبدأت الرحلة التي استمرَّت أكثر من ثلاث سنوات، بلا توقُّف، وفي كلّ مرَّة، حاجز من اليأس.

ـ ياااه؟ مَن كان يقول؟

قالت روز خليل، وهي تتصفَّح مخطوطة *«ليالي العصفوريَّة»*.

ـ أستطيع اليوم أن أقول إنَّنا انتصرنا على الغياب، وعلى جهنَّم البشر اليائسين أيضًا. انتصرنا على القَتَلة الذين حاولوا إحراق مي زيادة من الذاكرة الجمعيَّة، ليجعلوا منها مجنونة تسير وسط شوارع بيروت، متَّسخةً، وأحيانًا بلا لباس، تتغوَّط في كلّ الأمكنة. حاولوا لجمها، كما يقولون، حتى لا تؤذي محيطها، إلى درجة أن قال عنها ناقد بحجم سلامة موسى كلامًا كبيرًا، كان تلفيقًا وانتقامًا، مع أنَّه كان في حياتها، من محبِّيها، بل من كوكبة عشَّاقها. جعل جنونها المفترض الكثيرين من أصدقائها أو من ظنَّتْهم كذلك، ينقلبون ضدَّها، وكأنَّ الجنون جاء ليُرضي أعماق جماعة مريضة، لا ترى في المرأة إلَّا أداةً

متعة لا اعتبار وجوديًّا لها. كلّ ما كان يبدو صداقة في الخارج، كان يُخفي عُقَدًا ذكوريَّة لم تمحها، للأسف، لا الحداثةُ، ولا الفكرُ التقليديّ. الانقلاب ضدَّها، من طرف أقرب أصدقائها، دليلٌ قاطع على هذا التناسي الموجع.

أفظع عقوبة، هي أن يُسرَق من الإنسان حقُّه في الوجود.

كانت مغامرة شديدة الدهشة والخوف والحيرة بُنِيَتْ على فكرة صغيرة هاربة رمتها في الجوهر، باحثةً في كتابها، ولم تكن تدري أنَّها كانت تُنير طريقًا مظلمًا: *يبدو أنَّ المخطوطة موجودة حقيقة، وضعتها مي عند إحدى صديقاتها، وأغلب الظنّ أنَّها الممرِّضة سوزي أو سوزان، لطيبتها، وحبِّها الكبير لكتابات مي. فقد آمنت بقوَّة بعقلها وساعدتها، تفاديًا لنشر كتاب سيؤلِّب عليها العائلة كلّها.*

لا أدري اليوم، من ناحية الحقيقة الموضوعيَّة، إن كنَّا نبحث عن مخطوطة مي الضائعة، *«ليالي العصفوريَّة»*، التي تساورني في شأنها بعضُ الشكوك المتضاربة، كأن تكون مثلًا قد سُرقت، أو أنَّ مي نفسها أحرقتها، في لحظة غضب كثيرًا ما كانت تنتابها بسبب الكآبة؛ أو لا هذا ولا ذاك، تكون المخطوطة مخبَّأة مثلًا، في مكان ما، سرّيٍّ، ولم تُدمَّر، بعد مرورها على أيادٍ كثيرة حافظت على استمرار وجودها، بما في ذلك يدُ الأطماع الكثيرة.

ـ ٦ ـ

ثلاث سنوات من التنقُّلات المتتالية برفقة روز خليل، بين مدن العالم، اقتفاءً لأثر مي: من بيروت، مدينة القلب وتربة الوالد، في عزِّ مراهقتها، إلى القاهرة التي شهدت أهمّ الفترات التاريخيَّة في حياتها،

وانتهت فيها أيضًا، إلى روما التي شكَّلت مكانًا من أمكنة استراحتها، مثلها مثل برلين، ولندن، وڤيينّا، وپاريس. وأخيرًا مدينة الناصرة التي شكَّلتها منذ نعومة أظفارها. وجدنا صعوبة في دخولها. حاولنا مرَّتين بلا جدوى على الرَّغم من جوازينا الفرنسيّ والكنديّ. وكانت تنتظرنا، في كلّ مدينة من هذه المدن، سلسلةٌ من المفاجآت، والهزَّاتِ المؤلمة، والمفرحة أيضًا.

اقتربنا منها أكثر، ولا هدف لنا من وراء ذلك سوى إنصافها بعد أكثر من قرن من مجيئها إلى هذه الدنيا التي لم تنصفها.

أتساءل أحيانًا إذا لم تكن حياة مي، جزءًا من حياتنا العربيَّة المقهورة اليوم، ومطيَّةً لنكون شركاء في زمن بدأته هي، وجيلُها بعدها، بشجاعة، وسط ذكورة متسلِّطة، خرَّبتها الحروب والهزائم والخيانات المتعاظمة، وأتممنا نحن كلّ البؤس المؤجَّل، بل مدَّدناه أكثر بدلًا من كسره نهائيًّا، ومنحناه كلّ سبل الاستمرار المتخلِّف والمتطرِّف أيضًا، لتصبح أجسادنا وقوده وجمره ثم رماده المثقل بصرخاتنا الأخيرة.

تبدأ الأشياء الجادَّة أحيانًا بسؤال ساخر.

كنت في مخبر الأبحاث الأنثروبولوجيَّة والأدبيَّة في مونتريال الذي تُدير روز خليل قسمه العربيّ، وانتابتني يومها، لأوَّل مرَّة، فكرةُ الركض وراء مخطوطة مي. سألتها بعد أن تحدَّثنا طويلًا عن مي زيادة:

ـ ما الذي يُثيرك في هذه المرأة اليوم، بعد كلّ معاناتها؟

قالت بلا تردُّد:

ـ شجاعتها وإصرارها على أن تكون في مجتمع ذكوريٍّ مُصاب بالمازوشيَّة والشيزوفرينيا، في أدنى درجاتهما البدائيَّة، وفي عزِّ حربين عالميَّتين مدمِّرتين لدواخل الناس، قبل أن تأكلاهم.

في سؤالي شيءٌ من الخبث المقصود:

ـ هل قرأت سيرتها: «*الليالي العصفوريَّة*»، أم لديك فكرة عنها؟

ضحكتْ، وقالت:

ـ تختبرني يا ملعون. لا طبعًا، لم أقرأها، لأنَّها ببساطة غير موجودة كما تعرف، باستثناء بعض النصوص والفقرات الهاربة من النصِّ الأصليّ، ولا أدري حتى كيف وصلت إلينا.

أضفتُ، وأنا أحاول أن أقرِّبها من انشغال بدأ يكبر معي:

ـ وهل أنت مؤمنة بضياع هذه المخطوطة؟ ربَّما تكون قد سُرقت منها؟ ولا تزال حتى اللحظة موجودة؟ من الصعب عليّ التوقُّف عند حدود الكلمة التقليديَّة التي تختم بها كلّ الدراسات والبيوغرافيات المنجزة حولها: *المخطوطة ضائعة*. لا أملك أيّ دليل على وجودها، لكن شيئًا فيّ كان يملأني داخليًّا، بيقينَ العثور عليها يومًا ما.

تأمَّلتني روز قليلًا. شعرت فجأة كأنَّها كانت تريد أن تقول شيئًا آخر لم يكنْ واضحًا لديها، قبل أن أعاود الكرَّة ونتَّفق على العمل المشترك. لم يطل الانتظار. بعد أن تحصَّلت روز على إذن العمل في مشروع مخطوطة مي، سافرنا معًا نقتفي عطرها وخطواتها. ولم نتوقَّف منذ تلك اللحظة، عن العمل والتفكير والغوص في الاحتمالات الأكثر جنونًا.

حتى الصدفة السعيدة التي قادتنا نحو وُرَيْقات مخطوطة «*الليالي العصفوريّة*»، بعد سلسلة من الهزّات القاسية التي كثيرًا ما انتهت بنا إلى اليأس والخيبة، لم تُفرحنا كثيرًا، ولكنّها قرّبتنا من هدف بدا مستعصيًا. طبعًا، غير عمليّات النصب والاحتيال، التي كلّما اقتربنا من الهدف، أبعدتنا وقايضتنا أو ابتزّتنا ماليًّا، من دون أن نرى المَخرج الآخر من النفق المظلم. بمجرّد أن يأخذوا التسبيقات، لا نراهم في اليوم الموالي.

أدّخر التفاصيل لوقت آخر، يوم إنجاز الكتاب المشترك مع روز.

ـ ٧ ـ

عرفنا، قبل أن نعثر على سيِّدة عينطورة بقليل، من أحد أفراد عائلة مي، رفضَ أن يُذكر اسمه الحقيقيّ، وأن تُنشر صورته، أنّ مي كتبت حقيقة «*الليالي العصفوريّة*»، ولم يكن كلامها هذيانًا. كانت العائلة كلّها تعلم بأنّها كانت موضوعًا أساسيًّا في كتابة «*الليالي العصفوريّة*». ذكر لنا أنّه عندما سمع بهدم أجزاء مهمّة من بيت الفريكا، الذي اكتراه لها أمين الريحاني، من أجل الإصلاحات والترميمات، تمّ العثور على المخطوطة، مخبّأةً بين حائطين، في غطاء من حرير، والكلّ في كيس بلاستيكيّ. يُقال إنّ الممرِّضة سوزان التي أقامت بالبيت بعد سفر مي إلى القاهرة، خبّأته هناك خوفًا من وقوعه بين أيدي الأهل. كانت سوزان وإستر يواكيم، تساعدانها على تحمُّل ليالي العصفوريّة الباردة، ونكران الأقرباء. ماتت سوزان، بعد أسبوع فقط من وفاة مي، ولا أحد يعرف ما حدث بينهما سوى أنّها سخّرت كلّ حياتها لمي، بعد أن طُردت من عملها في العصفوريّة، وعاشت في أحد الأديرة بعد طردها

من الفريكا. ويقول بعض المغرضين إنَّ مي وجدت في بلوهارت (سوزان) المرأةُ الناعمة التي تُحَبُّ وتُشتهى. لكن هذا أمر آخر لا يخصّ هذا العمل مطلقًا. ربَّما تحدَّثت عنه بالتفصيل في الكتاب المشترك، لأنَّ روز تؤكِّد ميول مي الأنثويَّة الخاصَّة، على الأقلّ في فترة من الفترات، ولا ترى فيها أيّ ضرر.

يقول الشخص الذي رفض ذكر اسمه، ونَشْرَ صورته، إنَّهم عثروا على المخطوطة هناك، وتمَّت حمايتها من حرائق الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة. وكثيرون من أمراء الحرب والقتلة، اتَّصلوا بي في السبعينيَّات، يسألونني عن ميراث مي، لكنِّي أنكرت كلّ شيء. كانت مي محقَّة عندما كتبت هذه الجمل على ظهر المخطوطة:

... أخيرًا دوَّنتك يا وجعي وهمَّ قلبي.

أين أهرب بهذا الخوف الذي سيضيف لي رعبًا جديدًا؟ لأوَّل مرَّة أجد الجرأة وأتحدَّث عن علاقاتي السويَّة، وحتى غير السويَّة بمقاييس الآخرين، عن محيطي الخادع، عن الناس الذين عرفتهم وعرفوني. تحدَّثت عن الذين أحببتهم وأحبُّوني، عن الذين ركضوا ورائي حتى تدلَّت ألسنتهم. حكيتُ، عن الذين زجُّوا بي في دهاليز الجنون، وجعلوا من العصفوريَّة سجنًا كبيرًا أموت فيه بصمت، ولا أحد يسمعني. حتى النَّفَس الأخير، وبلا قفَّازات، قلت بعض ما أحرقني، وحوَّلني رمادًا في ثانية واحدة. لم أنتقم من أيّ شخص، كيفما كانت درجة أذاه لي. أعرف نفسي جيِّدًا. لا يمكنني أن أكون في رتبة مَن أخفق في أن يكون هو بحبِّه وسخائه، فانتحل صورة عدوِّه، وسكن في الضغينة والأحقاد.

يحقّ لي اليوم أن أتلاشى كما الغيمة، داخل حبّي الذي شكّلَني، وفي عمق وهمي الذي صنعتُه، وصنعني أيضًا.

دعوني الآن أحلم فقط ولو في عمق الغياب. يحقّ لي ذلك، ولو لثانية واحدة، قبل أن أسير بخُطًى هادئة نحو أبديّة الخلاص(١).

ثم اختارت، كما تعرفون، أن تموت في الأرض التي عاش فيها والدُها ووالدتها، جزءًا مهمًّا من حياتيهما، في القاهرة. وما أعرفه، أنَّ سوزان، بلوهارت، كما يسمِّيها جميع أطبَّاء المستشفى وموظَّفيه، خبَّأت المخطوطة، أو هذا ما قيل لي على الأقلّ، بين حائطين، وهي عبارة عن مجموعة من الأوراق الكثيرة، غير المرتَّبة، مثلما كتبتها مي، أيَّام العصفوريَّة.

المخطوطة موجودة في مكان ما، الله وحده يعلمه. ويجب البحث فقط عن اليد المُوصلة، فهي مهمَّة جدًّا في مسار هذا الجهد. والأديرة أمكنة مهمَّة لإخفاء الأشياء المهدَّدة بالموت.

ما قاله لنا الرجل الذي رفض ذكر اسمه، ونشر صورة وجهه، كان دقيقًا ومهمًّا.

كلّ أسئلتنا الأخرى، المتعلِّقة بمكان المخطوطة ومالكها الحاليّ،

---

(١) وُجدت هذه الكلمات مكتوبة على ظهر مخطوطة *«ليالي العصفوريَّة»*. ويُرجَّح أنَّها لمي زيادة، وكتبتها مباشرة بعد انتهائها من إنجاز مخطوطتها، وأنجزت أوَّل جزء منها، قبل أن تفقد وعيها، بين ليلتي السبت والأحد ١٨ و١٩ تشرين الأوَّل/أكتوبر ١٩٤١، الأمر الذي قادها إلى المستشفى، ثم تسبَّب بوفاتها بعد ساعات قليلة. اختيارنا، أنا وروز، وضعَ هذا النصّ في آخر المخطوطة، لأنَّنا نتصوَّر أنَّه آخر كلماتها بعد الانتهاء من تدوين ***«ليالي العصفوريَّة»***. هو مجرَّد اجتهاد بعد نقاش طويل، فإذا أصبنا فلنا الأجر المُعتاد، وإذا أخطأنا فلنا بعضه.

وعنوانه، باءت بالفشل. لكنَّنا لم نستسلم. كانت إشاراته مهمَّة، بل مفيدة ويمكن استغلالها.

سألت من جهتي الكثير من الباحثين الذين اختصُّوا بمَي، لكن لا أحد أفادني عن هذه النقطة تحديدًا. كانوا كلّهم عندما يصلون إلى لحظة البياض، يعلنون بيأس: *ربَّما تكون المخطوطة قد ضاعت مثلما ضاعت أغلب مخطوطاتها الذاتيَّة، مثل «بيتي اللبناني»، و«مذكَّراتي» وغيرهما.*

مُنِعْنا، في زيارتنا الثانية للعصفوريَّة، من الدخول مرَّة أخرى. فقد سمعنا كلامًا يبدو خرافيًّا، وهو أنَّ مي كانت تدفن أوراقها، التي كانت تكتبها وتخفيها في الغابة، خوفًا من أن يستولي عليها شخص ما لا يحبّها، أو مجنون يحوِّلها إلى مضغة بين الألسن. حتى إنَّ هناك من حدَّد لنا الأماكن التي يجب السير نحوها، ورسم لنا مختلف الخطط. كنَّا ندفع إليه عشرات الدولارات، في مقابل صعوده على الشبَّاك للوصول إلى عمق العصفوريَّة والحفر تحت الأقواس حيث يُفترض أنَّها خبَّأت شيئًا. ركضنا طويلًا بين رُدُهات مركز الآثار للحصول على إذن، لكن بلا جدوى، لأنَّ المالكين الجدد للمكان، ضيَّقوا علينا كلّ شيء، ولم يسمحوا لنا بالعمل.

يبدو أنَّ حربًا كبيرة رافقت هذه المخطوطة. لكلٍّ طرف فيها، روايتُه الخاصَّة. فالأهل أردوا ستر الموضوع بحرق المخطوطة لأنَّ فيها أسرارًا قاسية، يجب ألَّا تُعرف. أمَّا بالنسبة إلى جوزيف زيادة، بصورة خاصَّة، فهي سرٌّ من أسراره الحياتيَّة، ولا يحقّ لأيٍّ كان العبث بها، وخصوصًا من مجنونة، كما كان يصفها لأصدقائه. يبدو أنَّها

حكت عنه بعنف شديد، لأنَّه كان السبب الرئيس في جزء مهمٍّ من مأساتها. حتى أهله، لم يكونوا صريحين في القضيَّة، وراحوا يكيلون لها التهم دفاعًا عن جوزيف، ومنهم ابنه الدكتور إسكندر زيادة، الذي لم يتريَّث من أجل معرفة الحقيقة وكشفها، ولم يحاول حتى فهم التفاصيل الغامضة. واتَّخذ صفَّ والده، واصفًا مي بأقبح الصفات: *والدي كان يحبّ الجمال، ومي لم تكن كذلك. كما أنَّ والدي لم يكن يريد الزواج في الوقت الذي أشعرته مي بحبِّها له. أمَّا السبب الثالث، فلأنَّ ذلك الطبيب الشابّ كان قد فضَّل الزواج بسيِّدة أخرى، تنطبق عليها شروطه في فتاة أحلامه باعتبارها صاحبة جمال وثقافة وحضور جذَّاب*(١). أثار غناها الماديّ شهيَّة الجشعين من الأهل، فقد ذكرت بالتفصيل الدقيق الميراث الذي خلَّفه والدها بتحديد أملاكه كلّها، العقارات والمساكن، وفدادين الأرض، وفضحت العائلة القريبة التي أعطت لنفسها الحقَّ في السطو على ممتلكاتها، بحجَّة أنَّها مجنونة. *ليالي العصفوريَّة* نصٌّ يفضح ما أُخفِيَ من أسرار النهب. إخفاء المخطوطة ليس إلَّا وسيلة لطمس الحقيقة. وتنقُّلها عبر أمكنة عديدة كان للحفاظ عليها من السطو والحرق الذي كان يتهدَّدها. واتَّضح طبعًا، فيما بعد، أنَّ الذي أدهش جمهور «الويست هول» في الجامعة الأميركيَّة بعقلانيَّته، ودقَّة ملاحظاته، لا يمكن أن يكون مجنونًا؛ أو كما يقول المثل الفرنسي: Celui qui veut tuer son chien, dit qu'il a la rage.(٢)

(١) حوار مع الدكتور إسكندر زيادة، مجلَّة «سيِّدتي».
(٢) ترجمته العربيَّة: من أراد أن يقتل كلبه، يَقُلْ عنه إنَّه مكلوب.

— ٨ —

لم نتوقّف على الرَّغم من التعب والبياض الذي أصبح يواجهنا في نهاية كلّ مسار.

قادنا ذات مرَّة بعضُ المعارف من الأصدقاء نحو امرأة طاعنة في السنِّ، ذكرها الرجل الذي فتح قلبه لنا. كانت تُقيم بجونية، مع أخوات عينطورة. لا تغادر الدير أبدًا. رافقها رجل دين تثق به كثيرًا. أرتنا ثلاث أوراق من المخطوطة مصوَّرةً، بعد زيارات عديدة اختبرتْ فيها نيَّاتنا، الأمر الذي أكَّد لنا بشكل حاسم، أنَّ المخطوطة موجودة حقيقة. تبدأ الصفحة الأولى بالجمل التالية بخطّ مي المعروف:

أَخْرَجوني من بيتي قبل الساعة الرابعة بعد الظهر، وأوصلوني إلى مكاني في القطار، وغابوا عنِّي، فبقيت جالسة حتى عاد الدكتور والرجلان الآخران. وعندئذ قام القطار، إذا نحن في منتصف الساعة السادسة. ومنذ الأسبوع الأوَّل في بيروت، ذكَّرت الدكتور جوزيف، بوعده، وقلت له إنِّي أرغب في الرجوع إلى بيتي. فأنا بخير ولا أحتاج إلى أيِّ شيء. فطيَّب خاطري ببعض الكلمات، وأبقاني عنده شهرين ونصف شهر على مضض منّي، وأنا أطالبه بالعودة. حتى استكمل برنامجه في أمري، فأرسلني إلى «العصفوريَّة»، بحجَّة التغذية، وباسم الحياة ألقاني أولئك الأقارب في دار المجانين أحتضر على مهل وأموت شيئًا فشيئًا.

وفي الصفحة الثالثة، تفاصيلُ أخرى لا تؤكِّد فقط وجود المخطوطة، ولكن أيضًا حدوث الجريمة، ومسؤوليَّة ابن عمِّها جوزيف زيادة:

لست أدري إذا ما كان الموت السريع هيِّنًا. أمَّا الموت البطيء طيلة عشرة شهور وأسبوع من التغذية القهريَّة تارة من الفم، بتقطيع لحمة الأسنان، وطورًا من الأنف بواسطة النربيج ليصبّ ما يصبّ من الداخل نزولًا إلى الحلق فالصدر. فذلك موت لا أظنُّ أنَّ إنسانًا يحتمل الإصغاء برباطة جأش إلى وصفه. ومع ذلك، كان أقاربي في زياراتهم النادرة، يستمعون إليّ بسرور وأنا أصف نكالي وشقائي راجية منهم عبثًا أن يرحموني ويخرجوني من العصفوريَّة.

كان الوصف قاسيًا وموجعًا.

طلبت السيِّدة العجوز شيئًا واحدًا وهي تنظر إلى العينيْن الصغيرتين لصديقها، رجل الدين، الذي كان برفقتها:

ـ أنصِفوها، إذا استطعتم. هي لا تطلب أكثر من ذلك. كلّ الذين مرُّوا من هنا لم يُقنعوني. كان هدفهم آخر. أنتما أقرأ فيكما شيئًا صادقًا. هذه المرأة قُتلت قبل موتها. للأسف أنا لا أملك سوى هذا.

أخذنا الصفحات الثلاث بعد أن صوَّرناها، وخرجنا. رفضت السيِّدة أيّ تعويض مادِّي.

هي أيضًا طلبت ألَّا نكشف عن اسمها، وعن مكانها. سألناها عن بقيَّة المخطوطة، قالت:

ـ كانت المخطوطة هنا في الدير، على ما سمعت من الأخت الكبيرة. جاء بها شخص، في عزِّ الحرب الأهليَّة، من بيتها في الفريكا الذي تمَّ تهديمه، وأخفاها هنا لدى الأخت الكبيرة التي توفِّيت قبل سنوات. يُقال إنَّ امرأة كانت وفيَّة للأخت الكبيرة، فهرَّبتها إلى المكتبة الكبيرة في پاريس، برفقة مخطوطات سرِّيَّة كثيرة أخرى، خوفًا من ضياعها.

ـ ألا توجد أيُّ علامة أخرى؟ فقد بحثنا عنها في المكتبة الوطنيَّة التي جُمعت فيها أهمُّ المخطوطات العالميَّة، ولكن عبثًا. وإذا وُجدت، فهي غير مسجَّلة تحت رقم معيَّن. قد تكون من المخطوطات الضائعة، لكنِّي أستبعد ذلك.

ـ كلّ ما أعرفه وضعته أمامكما، لأنِّي أشعر بطِيبتكما وحبّكما لمَي. نحن مسؤولون أيضًا عن كلّ ما حدث لها. تركناها وحدها للربّ وللعذراء، تموت في عزلة الصمت والخوف، ولم ندافع عنها أمام هجمات المسيئين إليها.

نظرت روز إليّ، وحدَّقتُ في عينيها الهادئتين.

لم نقل شيئًا.

كأنَّ كلّ شيء يبدأ من الصفر، من جديد. وجود الأوراق الأولى من المخطوطة، أضاء أمامنا نورًا لم نتوقَّعه، لكنَّه مثل البرق، انغلقت عليه السماء بسرعة غير مرتقبة.

كنَّا نتدحرج داخل موجة، كانت تقرِّبنا من الهدف أحيانًا، وترمينا بعيدًا على هوى رياحها، في أحيان أخرى. لا أدري لماذا شعرت، هذه المرَّة، بأنَّ هذه المحاولة كانت أكثر إفادة من كلّ المرَّات السابقة؟ لحقت بنا السيِّدة العجوز فجأة، وقالت لي:

ـ أنا كبرت، وقد أموت في أيِّ لحظة. افتح حقيبتك ولا تسأل.

فتحتها من دون أن أسأل، فأدخلتْ في عمقها مغلَّفًا بلاستيكيًّا، وتمتمتْ:

ـ لم يبقَ في عمري الكثير. احتفظوا بها. ثلاث صفحات أصليَّة

من كتاب ضائع، قد لا تعني الكثير لغيركم، لكنَّها مهمَّة بالنسبة إليكم. وأنا متأكِّدة من أنَّ الأخت الكبيرة ستكون سعيدة، فقد حافظت عليها كثيرًا، وتقول دائمًا: *تلك ذاكرة أختنا التي لم نعرف كيف نحبّها ونحميها*.

ـ شكرًا يا أمّنا.

قالتها روز، ثم انسحبنا.

لم أعرف كيف أشكرها. كنت أريد أن أسألها لماذا قالت الأخت الكبيرة عن مَي: *«أختنا التي لم نعرف كيف نحبّها»*، لكنِّي تخيَّلت قليلًا السببَ الباطنيّ، ثم إنَّ ضيق الوقت لم يكن ليسهِّل مهمَّتنا.

قالت روز، ونحن في الزيتونة استعدادًا ليوم ثقيل. اخترنا أن نفطر هناك. نشرب ليمونًا بالنعناع، ونتأمَّل المراكب المتنوِّعة للبورجوازيَّات اللبنانيَّة الجديدة التي جاءت بعد الحروب الطاحنة. قالت لي:

ـ شايف، يقولون إنَّ الشعب اللبناني يعيش حربًا أهليَّة طاحنة، لا تتوقَّف أبدًا. لا تشغل بالك، فلن يحترق ميناء الاستجمام هذا. كلّ الطوائف متَّفقة على راحتها هنا، وتحمي بعضها بعضًا، عند الضرورات القصوى. لا تَخَفْ: تتقاتل الذئاب، لكنَّها لن تأكل بعضها بعضًا. يستمرّ البؤساء في بؤسهم، والأغنياء في غناهم. وسوف تستمرّ الاغتيالاتُ السرِّيَّة اليوميَّة المبرمجة والمنظَّمة، وموتُ المرفوضين في حوادث السيَّارات الغامضة، أو الغاز. ولن تتوقَّف الانفجاراتُ الانتحاريَّة من أصحاب طريق الجنَّة، والذين يفجِّرون أنفسهم بغية محبَّة الله ورسوله، وستتضاعف. طريق الجنَّة هو الطريق الثالث، طريق جديد تمَّ اكتشافه فجأة أيَّام حرب أفغانستان، والحروب العربيَّة، لينضمّ

إلى طريق الحرير والبهارات.

ـ المهمّ أنَّنا في المسلك الصحيح.

ـ في المسلك الأصحّ، ههههه.

مولع بالروائح مثل حيوان متوحِّش، يعيش في غاباته الاستوائيَّة، تعوَّدت على قراءة أيّ عطر هارب. بدأت أتفحَّص وُرَيْقات المخطوطة الثلاث، منذ أن سلَّمتها إلينا سيِّدة دير عينطورة. أحاول أن أستنشق، ليس فقط رائحة الورق الأصفر، ولا رائحة السنوات التي مضت، ولكن رائحة الليالي التي سرقت من مي كلَّ شيء جميل، ومنحتها خوفًا ثقيلًا كان عليها تحمُّله. خطّ مي الأنيق والجميل يقودني نحو تخيُّل أناملها الناعمة واللذيذة، وهي تسطِّر حرائقها. لاحظت، وأنا أورِّق المخطوطة، أنَّ هناك بعضَ الفراغات بسبب الماء أو الرطوبة، الأمر الذي يفرض ترميمها بدقَّة، وسريعًا قبل فوات الأوان.

قطعت روز، طوال السنوات الثلاث الأخيرة، كلَّ عطلها. حتى عطلةُ عيد الحبِّ المقدَّسة لديها، والتي كان يفترض أن تمضيها في برشلونة، لم تستمتع بها. قالت نمضيها معًا في مدينتك التي تحبُّها كثيرًا. مدينة الثالوث المجنون، *دالي*، *بيكاسو*، *غاودي*. فقد ظلَّت معلَّقة معي، بين مونتريال، باريس، وبيروت، والقاهرة، والناصرة، ومدن أخرى.

ـ ٩ ـ

أحيانًا أقول إنَّ الأعمار هشَّة مثلنا. تشبهنا.

كنَّا في باريس في *المكتبة الوطنيَّة الفرنسيَّة*، *فرانسوا ميتران*، عندما أكّد لنا صديق قديم مختصّ بالمخطوطات، أنَّ مخطوطة «*ليالي*

العصفوريَّة»، يمكن أن تكون في پاريس تحت اسم آخر، أو مسجَّلة تحت كلمة آنونيم (Anonyme).[1] وجاءنا بمقالة لكاتب فرنسيٍّ توفِّي قبل سنتين، اسمه جون شاتلي، تقول مثل هذا الكلام. بحثنا طويلًا عنها، بلا جدوى، طوال أسبوعين متلاحقين. وكان علينا أن نسافر إلى القاهرة للقاء المرأة العجوز التي نبَّهنا إليها الصحافيّ سامي، أحد أصدقاء روز المصريِّين. قال إنَّها تملك الكثير من الأوراق التي تعود إلى مي، لكنَّها تريد مالًا كثيرًا، وطلب منّا ألَّا نزورها إلَّا عن طريق متعامل خاصٍّ، يعرف مكانها جيِّدًا.

لم نصدِّق كثيرًا كلامه، لكنَّ التفكير وحده في الحصول على المخطوطة كان دافعًا قويًّا إلى خوض التجربة.

رتَّبنا أمر السفر إلى القاهرة ونحن في پاريس. في آخر لحظة، بالضبط قبل ٢٤ ساعة على سفرنا، طلبت روز أن نؤجِّل السفر ليلة واحدة، لأنَّ لديها موعدًا مهمًّا وجادًّا مع سامي، الذي ألَحَّ على رؤيتنا قبل الذهاب إلى القاهرة. وأكَّد لها أنَّه يملك معلومات مهمَّة وجديدة عن مخطوطة *«الليالي العصفوريَّة»*.

تقول روز إنَّها جرَّبت سامي في الكثير من المرَّات، وكان دائمًا جادًّا وصادقًا في وعوده.

أجَّلنا السفرة في انتظار لقائه.

التقيناه عند الفطور الصباحي، في مطعم لا روتوند[2]، في مونبارناس.

---

(١) مجهولة.

(٢) La Rotonde

كنّا سعداء في الحديث المثمر مع سامي؛ الوسيطِ الذي كان يملك معلومات مفيدة جدًّا. زوّدنا بتفاصيل شديدة الدقّة عن السيِّدة التي يُفترض أنَّها مالكة مخطوطة *ليالي العصفوريَّة*، وغيرها من مخطوطات مي الأخرى، التي لا نعرف عنها الشيء الكثير. وأرشدنا إلى كيفيَّة الاتِّصال بها. قال إنَّها ورثت ذلك عن والدتها؛ الصديقة المقرَّبة من مي زيادة، وإنَّها هي من هرَّب بعض مخطوطاتها من بيروت، وخصوصًا مخطوطة *ليالي العصفوريَّة*، وانتزعتها من مخالب الأهل الذين ظلُّوا يبحثون عنها لحرقها، أو تدميرها، لأنَّ الحديث الذي كان يدور وقتها، هو أنَّها صفَّت كلّ حساباتها مع أهلها، وأنَّها مسخت تاريخهم، وبهدلتهم، وبهدلت تاريخ ضيعة شحتول. بل إنَّها لم ترحم حتى أصدقاءها، من المثقَّفين المصريّين الذين تخلُّوا عنها، الأمر الذي جعل بعض الجهات المعنيَّة في مصر تقوم بجهود كبيرة للحصول على المخطوطة، أيضًا.

رفعنا فجأة رؤوسنا صوب التليفزيون المعلَّق في صدر المطعم، بينما كنّا نتناول الفطور باستكانة، ونستمع إلى سامي الذي كان يتحدَّث كأنَّه يروي فيلمًا بوليسيًّا. كان الخبر جافًّا وصاعقًا: *سقوط رحلة الخطوط المصريَّة للطيران رقم: **MS804**، فجر اليوم. انطلقت الرحلة الليليَّة، عند الساعة الحادية عشرة ليلًا وتسع دقائق بتوقيت باريس، وعلى متنها ٥٩ راكبًا، نجا منهم شخصان، لأنَّهما لم يسافرا. والشرطة في صدد البحث عنهما لاستكمال التحقيق.*

صرخت روز: «يا إلٰهي؟» واضعةً رأسها بين يديها.

نظرت إليّ بحيرة، وحدَّقتُ فيها ونحن غير مصدِّقَيْن. كان يُفترض أن نكون بين الركَّاب الذين توفُّوا في الرحلة التي كانت على ارتفاع

٣٧,٠٠٠ قدم، عندما غابت فجأة عن الرادارات، عند الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة بتوقيت مصر.

كلّما تذكَّرت الحادثة، تأكَّدت من أنَّ الركض وراء مي منحنا حياة أخرى ندين لها فيها برؤوسنا.

بقيت روز لثوان طويلة صامتة، ثم تمتمت مرَّة أخرى: هل يُعقل؟

ـ هل يُعقل أنَّ صدفة مي العجيبة منحتنا الحياة؟

ـ ربَّما كانت الصدفة نفسها هي التي سرقت من مي عقلَها ومنحتها جنونًا غير مسبوق.

ـ قُمْ نذهب إلى الشرطة على الأقلِّ، حتى لا نتعرَّض غدًا لمضايقات في المطار. أعتقد أنَّ الأمر يتعلَّق بك وبي.

كانت إفادتنا بسيطة، إذ شرحنا لعناصر الأمن، لماذا غيَّرنا الرحلة؟ شرحنا لهم في المركز الذي وُجِّهنا إليه، كلَّ شيء، بالتفاصيل الدقيقة. أطلقوا سراحنا بعدها. قال رجل الأمن الذي استقبلنا، وسجَّل إفادتنا:

ـ حظُّكما كبير.

أمضينا الليلة كلّها، أحدنا في حضن الآخر، مثل خائفَين من عاصفة، كانت تنبت تحت السرير، ثم عدنا إلى مشروعنا بثبات أكبر، وفي سباق محموم مع الزمن، كأنَّ الموت الذي كان على الحافَّة، أصبح فينا.

ـ ١٠ ـ

سافرنا إلى القاهرة، وهناك كانت تنتظرنا قصَّة فيها الكثير من الطرافة والغرائبيَّة.

اتَّصلنا، كما أمرنا سامي، على رقم الأُسطى عادل. وردَّ علينا رجل بلا أسنان، بدا ذلك واضحًا من خلال نطقه بعض الكلمات السينيَّة:

ـ نحن من طرف صديقتكم سماء، يا أسطى عادل.

ـ ثماء (سماء) مين يا أفندم؟

ـ سماء باريس.

ـ أنتم بتاع الوفد الثياحي الفرنثي (السياحيّ الفرنسيّ) إلّلي حابب يشوف أهرامات الجيزة والأقصر؟ مرحبًا بكم.

ـ الوفد الفرنسيّ الكنديّ.

ـ أحثنت (أحسنت). تعرفون تثعيرة (تسعيرة) الجولة، والثفرة (السفرة) من هون للأقصر، عبر النيل؟

ـ طبعًا.

ـ إذن نلتقي في مقهى الفيشاوي، وأفثّحكم (أفسّحكم) هناك، تشوفوا القبو الذي كان يخفي ثوّار ١٩١٩، والطابعة التي كانت تطبع منشوراتهم. وبعدها ننتقل للثتّ (للستّ) زينب وثيِّدنا الحثين (وسيِّدنا الحسين).

ـ أليست أمّ الصبايا.

ـ بالضبط يا معلِّم. أحثنت (أحسنت).

التحق بنا الأُسطى عادل بسرعة. عندما وصل إلى مقهى الفيشاوي، اعتذر عن الأسلوب البوليسيّ الغامض الذي عاملنا به. كان يريد فقط أن يتحقَّق من أنَّنا لسنا من عناصر الشرطة، والباقي مقدور

عليه، كما قال. إلى درجة أنَّني أحسست كأنَّنا كنَّا نقوم بعمل خطير ومحظور يجب فيه الحذر والاحتياط. لم تُبَع المخطوطة في مزاد، ومصادرها مبهمة، ونقلها من مكان إلى مكان ممنوع.

قالت روز وهي تضحك:

ـ أيّ مزاذ يا رجل؟ الناس هنا تبيع وتشتري، كما في كلّ مكان. المخطوطة مُلكيَّة لأُناس محدَّدين، لم يسرقوها، ولهم الحقّ في البيع، ولنا الحقّ في الشراء.

ـ لكنَّ القانون لا يسمح بذلك إذا اعتبرت المخطوطة ميراثًا وطنيًّا؟

ـ أيّ ميراث؟ مين اللي تذكَّرها وأعطاها قيمة؟ في انتظار صدور ذلك القرار الحامي، فهي مخطوطة لها مالكون، ونحن نتعامل معهم على هذا الأساس. المزاد الوحيد الذي أعلن فيه عن بيع ميراث مي، كان كذبة كبيرة. ها هي قصاصة الخبر التي نُشرت في الكثير من مواقع الفيسبوك:

مساء السبت سأحضر مزادًا في شقَّة، بشارع علوي، بوسط القاهرة، أمام مبنى الإذاعة القديم. الشقَّة مغلقة منذ سنة ١٩٤١، وفيها كراتين وأوراق ورسائل من العقَّاد، وطه حسين، وأمراء وعظماء، لأنَّها كانت جميلة جدًّا. أهمّ كرتونة هي تلك التي تشمل كلّ ملفَّاتها الطبيَّة وتقارير علاجها ووفاتها... إنَّها مقتنيات الأديبة مي زيادة، والتي ستُباع في المزاد العلني. إنَّ الورثة جمعوا كرتونة فيها أوراق تشمل مصاريف جنازتها، وحساب الحانوتيّ القبطيّ... لقد كانت مي عاشقة للموسيقى. عندها عدد من الجرافونات. وأسطوانات كثيرة

ورسائل بخطّ سيّد درويش، وتذاكر حفلات مسرحيّات للريحاني، ويوسف وهبي، وكمّيّة الصور لها تُقدَّر بحوالى ألفي صورة مع كلّ عظماء مصر، وأغراضها الشخصيّة، وجواز سفرها، وبطاقتها، وخطابات الغرام بينها وبين جبران خليل جبران.

وعندما ذهب الناس إلى المزاد، لم يجدوا شيئًا من هذا. انطلت الكذبة حتى على وزارة الثقافة المصريَّة.

التفت الأُسطى عادل نحونا. نظر إلينا بعينين زائغتين كعينَي ثعلب، وكأنَّ المحاورة لم تعجبه، ثم قال:

ـ كانت الكذبة فضيحة. أنتم اتَّفقتم مع المعلِّم ثامي (سامي) بشكل كويِّث (كويِّس).

ـ هو صديقنا، وتعاملنا معه كثيرًا، وبنجاح مضمون.

برقت ملامحه من جديد. كنت سعيدًا كطفل بلقائي المخطوطة الهاربة، لأوَّل مرَّة.

ـ إذا خلّصتو الشاي، نتوكَّل نحو الجيزة. أمامنا مسافة طويلة.

ذهبنا نحن الثلاثة في سيَّارته القديمة. مزح:

ـ مرثيدث (مرسيدس) قديمة، كانت في أيَّامها عروثة (عروسة).

ـ المهمّ توصَّلنا.

ـ توصَّلنا، وتوصَّلنا تاني، بس مش مؤكّد ترجّعنا. هههههه.

ضحكنا. كان مَرِحًا جدًّا.

مضت أكثر من ساعة ونصف الساعة منذ انطلاقنا. رأيت فجأة من

بعيد أبا الهول غير مكترث لما كان يدور من حوله من أحداث، ووقائع، وبشر يتقاتلون. تذكَّرت وجع مي وهي تتأمَّل أبا الهول: *لقد دفنت نصفَك الرمالُ المغيرة على علاك، وما زلت ترقب الشرق وتبتسم، ونحن تغزونا الكوارث، وتفتك بنا الدواهي، فنظلّ نترقَّب ونرجو. أصحيح أنَّ لغزك لغز الدهور؟ لماذا لا يكون ابتسامك الدائم صورة الأمل المتجدِّد أبدًا فيه*.

وجدنا أنفسنا بعدها في عمق حيٍّ قديم في أطراف الجيزة، مليئًا بالأكياس البلاستيكيَّة، وموادّ البناء المبعثرة في كلِّ مكان. تلفن الأُسطى عادل:

ـ أمّ الصبايا، الثيَّاح (السيَّاح) وصلوا.

قبل أن نرفع رأسينا ونرى الأهرامات الممتدَّة من بعيد، فُتِحَتْ كوَّة صغيرة من حائط يشبه العدم. أطلَّت سيِّدة في عمر متقدِّم، الستّ زينب؟ أمّ الصبايا؟ على رأسها ملاية سوداء. دخلنا مثل سارقَيْن بسرعة، ثم أغلقت الكوَّة ليصبح المكان طريقًا عاديًّا بلا فتحات.

شممت رائحة شيء ما داخل البيت، لم أحدِّده، ربَّما رائحة الورق القديم مختلطة برائحة القهوة التركيَّة. فأنا مولع بالروائح الغريبة، وهي توقظ الحواسّ، النائمة وحتى الميِّتة.

جلسنا على كرسيَّين قديمين حول طاولة ثقيلة، من الفولاذ، لا قوَّة تحرِّكها من مكانها. ثم جاءتنا أمّ الصبايا ببعض الوريقات من المخطوطة بدءًا من الصفحة الرابعة، ثم الخامسة والسادسة. عرفتُ خطّ مي بسرعة. تفحَّصتها روز تحت الضوء. وهزَّت رأسها موافقة.

ـ ليش تحديدًا الصفحة الرابعة؟

تساءلت أمّ الصبايا.

ـ لأنّنا بكلّ بساطة نملك الصفحات الأولى والثانية والثالثة.

أخرجتُ صورة الورقة الثالثة التي كانت معي، والتي سُلِّمت إلينا في دير عينطورة. وجدت أنَّ الحديث كان متواصلًا ومترابطًا مع الصفحة التي بعدها، الرابعة. وأدركت، من دون تفكير كبير، أنَّها من وريقات مخطوطة الدير نفسه. شرعت في قراءتها، وعلى وجهي دهشة كبيرة، وأحاول أن أشمّ، ليس فقط رائحةَ الورق الأصفر، ولا رائحة السنوات التي مضت، ولكن رائحة الليالي التي سرقت من مي كلَّ شيء جميل، وجعلتها تعيش خوفًا ثقيلًا كان عليها تحمُّله. يقودني دائمًا خطُّ مي الأنيق والجميل نحو تخيُّل أناملها الناعمة واللذيذة وهي تكتب. لاحظت، وأنا أورّق المخطوطة، أنَّ هناك بعضَ الفراغات بسبب الماء أو الرطوبة، تقتضي ترميمًا عاجلًا قبل فوات الأوان.

ـ لازم لها ترميم يا ستّ زينب، وإلّا راح تندثر.

هزَّت رأسها، ثم قالت:

ـ لازم ترميم، هذا هو الأمر الطبيعيّ. لو علم أحدهم بها، فسيسرقها منّي، وقد يقتلني. الناس مجرمون وطمّاعون. حيُّنا خطير. تعالوا غدًا بعد أن تتَّفقوا مع الأُسطى عادل، بشأن المخطوطة. هي في مكان آمن مئة في المئة، وستصلكم فور إتمام الاتِّفاق.

ـ ١١ ـ

ما حدث بعدها قصَّةٌ طويلة، يمكنني أن أحكيها لاحقًا في الكتاب المشترك مع روز، وتستحقّ أن تُروى. لم يكن ثمَّة أمر يشغلني سوى الحصول على المخطوطة. حمَّلتني المكتبة الوطنيَّة مسؤوليَّة

الاقتناء، لكنّ رئيس الدائرة كان مقتنعًا بقيمة المادَّة المقتناة، لهذا حافظوا على المسافة التي تجعلهم في منأى عن التورُّط في تهريب مخطوطة مهمَّة. لم أتساءل، وذهبت إلى المنتهى للحصول عليها. لم تكن غالية بالشكل الذي توقَّعناه.

ما أتذكَّره أيضًا، هو أنَّه في النهاية، ونحن في مقهى الفيشاوي، جاءنا السيِّد عادل وأمّ الصبايا، ثم لحقت بهما شابَّة أنيقة، يعبق منها عطر جيفانشي، وعلى رأسها شابُّو أحمر أنيق، ونظَّارة سوداء. شربنا القهوة التي لم تكن تشبه في شيء قهوةَ أمّ الصبايا. ومثلما اتَّفقنا، أخذت الشابَّة كيس النقود الذي كانت وضعته أمّ الصبايا، في حقيبتها اليدويَّة، ثم عادت بعد خمس دقائق، بعد أن دخلت في محلٍّ مجاور لبيع المجوهرات. عادت بلا حقيبتها اليدويَّة. وقالت كلمة واحدة بصوت ناعم وهي تنظر إلى عيني أمّ الصبايا.

ـ تمام يا أمِّي.

ثم غابت الشابَّة في عمق السوق.

بقيت أمّ الصبايا معنا قليلًا، بينما انسحب الأُسطى عادل نحو سيَّارته، وعاد بعدها بسرعة، وفي يده كيس برتقاليّ. وضعه في حُجري وهو يتمتم:

ـ عندك المخطوطة ومعها كيث (كيس) من الأوراق والرثائل (الرسائل)، لم نتفق عليها، لكن خذها. وأَعطِنا إلّلي يطلع من إيدك، تفرحنا وتفرح أمّ الصبايا، وإذا ما فيهش، مثامحين (مسامحين).

أخرجت ورقة نقديَّة خضراء بقيمة ٥٠٠ يورو كانت في جيبي، ووضعتها في كفِّه الممدودة.

ـ لا عليك. أتمنّى فقط أن تكون أوراق الكيس نافعة.

ثم انسحب هو بدوره نحو سيّارة المرسيدس، برفقة أمّ الصبايا التي بدت أكثر نشاطًا، وأقلّ من السنّ التي رأيناها فيها، في أوّل زيارة لها في الجيزة.

حتى في لحظات اليأس، كانت روز تكرّر على مسمعي دومًا جملتها: يجب *ألّا نيأس*، حبيبي، *من وضع كلّ ما فيه يدعو إلى اليأس*. الإبداع وحده يمدّد عمر الأرواح المظلومة. إنَّ القطعة الناقصة من مشروعك هي «*ليالي العصفوريّة*»، وها هي الليالي كلّها اليوم في حوزتك، افعل بها الآن ما تشاء.

عندما عدنا إلى البيت الذي اكتريناه، فتحنا الكيس البلاستيكيّ. فقفزت آلام مي مثل الموجة المجنونة.

قلبت روز مخطوطة «*ليالي العصفوريّة*»، بين يديها وأناملها، كانت الدهشة تتراقص في عينيها، وهي غير مصدّقة ما كان يحدث أمامها.

ـ أخيرًا حبيبي، في قمّة فرحي.

ـ هل يُعقل؟ مخطوطة *ليالي العصفوريّة* هنا؟ أشعر بجفاف في الحلق. كيف غابت كلّ هذه السنوات، وكيف نُسيت وهي أهمّ وأصدق ما كتبته مي في حياتها الإبداعيّة، بكلّ شجنها وخوفها ويأسها الذي سحبها من هذه الدنيا؟ انظري هنا. الكلمات ممحوّة، كأنَّ مي كانت تكتب وتبكي. يمكننا أن نجد الكلمات الغائبة في النصّ وتثبيتها في التحقيق. مسح دمعها الحارّ بعض الخطوط:

ومنذ الأسبوع الأوّل في بي... (بيروت) ذكّرت الدكتور... ده

(بوعده) وقلت له إنّي أرغب في الرجوع إلى بيتي. فأنا بخير ولا أحتاج إل... فطي... طري (إلى أيّ شيء. فطيِّب خاطري)... وأبقاني عنده شهرين ونصف شهر على مضض منّي وأنا أ... لبه (أطالبه) بالعودة. حتى استكمل برنامجه في أمري، فأرسلني إلى «العصفوريَّة».

لا أدري إذا كنت قد أنصفتها، لكنَّ الصدفة والرغبة الغامضة في داخلي هما ما قادني نحوها بيقين كبير، بأنّي يومًا ما سأصل نحو كشف السرِّ الغامضِ الذي ارتبط بمَيْ، وبكلِّ ما قامت به بعد أن تخلَّى عنها أصدقاؤها، وأحبَّتُها، وعشَّاقُها، وحتى أهلها. أقول عشَّاقها، وأنا أعرف الوجع الذي خلَّفه فيها معجبوها الذين قتلوها، الواحد تلو الآخر، كلٌّ بطريقته، باستثناء أمين الريحاني. «*ربَّما كنتَ واحدًا من هؤلاء*»، قالت لي روز وهي تضحك، كأنَّها كانت تريد أن تُفضي بسرٍّ في قلبها. «*ههه، تشبهها كثيرًا*. هي *تشتهي أن تكون محاطة بالرجال، وأنت بالنساء، ههههه. بعض الفنَّانين والكتَّاب هكذا*، لا *يطيقون العيش خارج هذا النظام الجماعيّ*. مسكينة *من تحبّ ياسين الأبيض؟ ههه*».

ـ *تربَّى ياسين في حضن نساء البيت، ولا يمكنه إلَّا أن يكون كذلك*.

ـ ١٢ ـ

لم يحدث لي أن أحسست بآلام امرأة مثلما أحسست بآلام مي، لهذا أشعر كأنّي معنيٌّ بقوَّة بهذه الآلام.

لا أدري إذا أرجعت إليها ما سُرق منها أو بعضه، لكنّي أعتقد

أنَّها سعيدة هذه اللحظة بعد حياة قاسية، وجنازة حضرتها القطط برفقة ثلاثة أشخاص رافقوها حتى مثواها الأخير. لا أعلم إن كانت ضربة حظّ أم حقيقة، لكنّي لم أكن أتصوَّر أن يحدث هذا. أدركت من خلال أبحاثي أنَّ بعض المخطوطات تكون أمامنا ولا نراها أبدًا، لأنَّنا ننظر كثيرًا نحو المسافات البعيدة التي تُلغي الأشياء القريبة وتمحوها أحيانًا، مع أنَّ البحث في المخطوطات الضائعة يقتضي أن ننظر أيضًا بالقرب منَّا، ونلتفت إلى التفاصيل الصغيرة التي لا ينتبه أحد لها.

لم أصدِّق أنَّنا عثرنا على المخطوطة. أعرف أنَّ الكثيرين لم يحصلوا عليها على الرَّغم من أنَّهم أمضوا عمرًا طويلًا وهم يسعون وراءها. الصُّدَف أحيانًا تساعد. أعرف جيِّدًا هذا العالَم. بعد سنوات من البحث المستميت عن المخطوطات الضائعة، عثرت من خلالها على نصِّ طٰه حسين الضائع: *«في الشعر الجاهلي»*، وغير المتداول اليوم. فيه الكثير من الفقرات التي قام بنزعها هو نفسه، قبل أن تُعدِم الكتاب كلّه الرقابة، التي كانت ستغرقه في حياته بشأن القرآن والعقلانيَّة العربيَّة المريضة. عثرت أيضًا على مخطوطات كثيرة، منها «ألف ليلة وليلة»، في رواية مغاربيَّة جديدة، وغير منشورة، لم ينتبه لها أنطوان غالان وهو يجمع المرويَّات الشاميَّة والمصريَّة. صوَّرتها من مقتنيات عائلة الفغون، في مدينة قسنطينة قبل أن تُهرَّب إلى الولايات المتَّحدة، لأعثر عليها في شيكاغو. ومخطوطة سي محند أمحند الذي جمعت قصائده الأمازيغيَّة التي تمَّ حفظها بالحرف العربي لأوَّل مرَّة. وعثرت أيضًا على مخطوطة صغيرة مكوَّنة من رابط أوراق صغير، من ٣٥ صفحة، فيه عشر قصائد جديدة لآرثر رامبو، لم تُنشَر، ولم توثَّق في المكتبة الوطنيَّة في باريس، إلَّا بعد صعوبات كبيرة جدًّا. وهي

متوفِّرة اليوم تحت رقم AR-PFN 47. وكان ذلك مثار فخري الكبير في موضوع بحثي الخاصّ بالمخطوطات. وأجمل المكتشفات على الإطلاق، مخطوطة *«يوميَّات سرڤانتس في الجزائر»*، عندما كان رهينة عند حسن آغا فنيزانو، حاكم الجزائر في القرن السادس عشر. وعثر عليها أحدهم في أثناء حفر ميترو الجزائر، واشتريناها من مزاد شبه سرِّي.

لم أضف شيئًا إلى *«الليالي العصفوريَّة»*. احترمت المخطوطة كما وجدناها. لا زيادة فيها، سوى أنِّي نظَّمت صفحاتها التي كانت مبعثرة بفضل جهود روز خليل، ورمَّمت الكلمات الناقصة، وهي بعدد ١٠٠٢ كلمة، محتها الدموع وهي تكتبها، والرطوبة، والحشرات. وأضفت بعض العناوين الصغيرة والفرعيَّة، لتبيان ثقل الظلم والأذى، لأنَّ حساب الأيَّام في العصفوريَّة، غيره في الحياة العاديَّة. وأعدت ترتيب أوراقها بنظام أكثر، لتكون المخطوطة مقروءة ومفهومة بسهولة أكبر. وتركت العنوان الأصلي كما هو، *«الليالي العصفوريَّة»*. لم يكن القيام بذلك أمرًا سهلًا. كان عليَّ قراءة المخطوطة بهدوء، ثم إعادة قراءتها كما يليق بنصٍّ أتى من جرح عميق، مرَّات ومرَّات، بعد أن تمَّ ترقيمها في المكتبة الوطنيَّة الفرنسيَّة، فرانسوا ميتيران، وترميم نقائصها مع روز، وعرضها على عدد محدود من المختصِّين، قبل العمل على تحقيقها وطباعتها نهائيًّا طبعةً تصويريَّة تحافظ على خطّ مي ورائحته.

من بين كلّ الذين سمُّوها، إيزيس كوبيا، الكناري، ماري، مي، وغيرها، لا أحد فيهم وُفِّق في تسميتها. لهذا سمَّيتها غيمة الناصرة. وتمنَّيت أن أضع هذا العنوان على واجهة الكتاب، لكنِّي لم أعط نفسي

حقَّ تغيير الجوهر، وهو رأي روز نفسه. لقد طافت غيمة الناصرة كثيرًا، ورأت كلّ الألوان، من الخفيفة حتى الناريَّة، وعاشت في صلب الرياح والعواصف، وعندما أثقلتها مياه الشوق، نزلت على أرض عطشى، فسقتها واختلطت بها حدّ التماهي.

أصرخ أحيانًا في غفوتي:

لماذا تخلُّوا عنك يا غيمة الناصرة، وتركوك تموتين في العزلة والخوف؟

ـ ١٣ ـ

الشيء الوحيد الذي بقي في ذهني اليوم، وأنا ألملم هذه الأوراق أخيرًا، وأحقِّقها، وأختم هذا الجهد لأتوجَّه نحو كتابي المشترك مع روز خليل عن رحلتنا بحثًا عن «الليالي»، هو أنَّ مي كانت امرأة أخرى، من معدن نادر لا اسم له. أعطت كلّ ما لديها، ولم تترك لنفسها شيئًا. الكثيرون ممَّن قرأوا رسائلها افترضوها امرأة لعوبًا، لكنِّي لست متَّفقًا معهم، ليس دفاعًا عنها، لأنَّها ليست في حاجة إلى ذلك. من حقِّها أن تعيش الحياة التي تشتهي، لكنِّي خرجت بيقين كبير بعد هذه الرحلة، فقد كانت ميّ معشوقة من كلّ من تعرّف إليها، في زمن كان من الصعب فيه العثور على امرأة ذكيَّة ومثقَّفة وجميلة في الوقت نفسه. كانت تعرف جيِّدًا أين تضع قدميها. وكانوا يعرفون جيِّدًا حدودهم معها.

وأنا أستعدّ لنشر الكتاب المفقود من أعمال مي في شكل تصويريّ، ليحافظ على عبقه، وسحر لغته، وخطوط مي بصمتها الحزين، مع الشروحات والتعليقات لتسهيل فهمه، ينتابني وجه روز

خليل يوم سفرها، لا أتذكَّر إلَّا وجهها المضيء من وراء المرايا، وهي تأخذني من يدي وتسرح بي بعيدًا. تنظر عميقًا إلى عينَيَّ، ونحن نتأمَّل الطائرات التي تنزل وتطير بشكل لا يتوقَّف، في مطار رواسي شارل ديغول.

ـ لو التقينا فقط قبل عشرين سنة، لما كنَّا افترقنا أبدًا.

ـ في الحياة متَّسع للفرح يا روز.

ـ لست نادمة على شيء. اخترت عملي وحرِّيَّتي. ابنتاي مِيا وليلي، تملآن حياتي، من زواج لم يستمرّ طويلًا، من رجل جيِّد، لكنَّه لا هو تحمَّلني ولا أنا تحمَّلته. الرجل الشرقيّ يخاف المرأة القويَّة.

عندما عانقتني وضممتها بقوَّة، همستْ في أذني:

ـ شكرًا لك حبيبي ياسين. شكرًا لمي. شكرًا لعجوز القاهرة التي أنقذتنا من موت محتوم. شكرًا للقدَر الذي جمعنا بحبّ، وقد يلاقينا بحبّ أيضًا. هل قالت لك امرأة قبلي إنَّك رجل دافئ؟

ـ ههههههه.

ضحكت، لكنِّي لم أقل شيئًا. تمتمتْ: طبعًا، أعرف أنَّك سمعتَ هذا عشرات المرَّات.

كنت أرى كلّ شيء في عينيها، وكانت ترى كلّ التفاصيل في قلبي.

لأوَّل مرَّة أراها زهرةً مشرقة، شعرها الأحمر في مهبِّ الرِّيح، تكاد حُمرة وجهها تنفجر.

صرخنا معًا كمجنونين، في الليلة الأخيرة في القاهرة، عندما

فتحنا المخطوطة عن آخرها:

ـ أورّيكاااااااااااااااااااااااا.

هذه هي *«ليالي العصفوريّة»* التي ضيَّعَتْ كلَّ من سعى وراءها، في المتاهات المبهمة؟

تمنَّينا معًا لو كان برفقتنا، في تلك الليلة السعيدة، سلمى الحفَّار الكزبري، فاروق سعد، محمَّد عبد الغني حسن، وداد السكاكيني، روز غريب، حسين محمَّد عمارة، أنطوان فوَّال، منصور فهمي، جميل جبر، طاهر الطناحي، سهيل البشروني، آمال داعوق سعد، أحمد الطويلي، نوال مصطفى، عبد اللطيف شرارة، وكلّ الذين منحوا مي شيئًا من أعمارهم ليُنصفوها قليلًا فقط. لو كانوا هنا، معنا، في هذا المكان تحديدًا، لشربنا نخب مي، إيزيس كوبيا، في عزِّ عنفوانها، عندما كتبتْ آلامها الأولى، ولقلنا بصوت واحد ومسموع: كأسك يا مي، وجدناك، وفهمناك. لكن للأسف، أغلبهم خرج من هذه الدنيا القاسية، وبقيت أصواتهم مستمرَّة معنا وفينا.

ـ ١٤ ـ

سحبت الصندوق، أو علبة الحفظ، كما تُسمّى في لغتنا المكتبيَّة، والمرقَّمة AR.MZ.LIB.1886، وتحتوي على مخطوطة *«ليالي العصفوريَّة»* المرمَّمة، في نسختها الأصليَّة، وفي نسختها التي طبعتها طبعةً تصويريَّة حتى يحافظ النصّ على أصالته، المكتبةُ الوطنيَّة الفرنسيَّة BNF، ومخبرُ *الأبحاث الأنثروبولوجيَّة والأدبيَّة* في مونتريال LRAL، مع التعليقات والحواشي. كانت مرفقة بمجموعة من الوثائق، والمقالات المهمَّة، وأجزاء من مخطوطات نصوصها، وبعض

تصريحاتها، فاك سيميلي[1] من محاضرتها التي ألقتها بعد خروجها من العصفوريَّة، وتصريحاتها الكثيرة في الصحف والمجلّات، ورسالتَي كامي كلوديل إليها، واللتين تُعتبران من الوثائق النادرة، وتقرير الطبيب محمود الذي وصَّف فيه اللحظات الأخيرة لمي كما طلبتها الشرطة والمستشفى منه، وغيرها من الأوراق التي تخصّ حياتها وأعمالها.

أتأمَّل المخطوطة بعشق وألم مبطَّنين. أشمّها وأتلمّس جوانبها.

أفتحها بحذر، أتحسَّسها بنعومة كمن يلامس جناحَي فراشة، خوفًا من إتلاف ألوانهما. تستغرقني رائحة الورق، والحبر القديم، والدموع التي تيبَّست على المخطوطة، والعَرَق الذي علق برائحة الخوف، و... والصراخ المكتوم.

ينتابني وجهها ورعشة عينيها، في غفوتي الساحرة. أسمع رفيفًا يشبه نبض قلب متعب، كأنَّه كان يأتي من عمق المخطوطة، ومن بين حروفها التي تتلاصق كأنَّها تبحث عمَّا يمنحها بعض الأمان.

أتحسَّس، برهبة، الورقَ الذي انتفخ قليلًا في بعض أماكنه، بفعل الرطوبة والإهمال، كأنَّني أفتح كتابًا مقدَّسًا ظلَّ مرميًّا قرونًا متعاقبة في دير معزول، في أعالي جبل الموت، قبل أن تأتي يد وتنتشله من نهاية ظلَّت تتعقَّبه.

ترتعش الصفحة الأولى بين يديَّ. أتوقَّف قليلًا. أسترجع أنفاسي.

أواصل.

---

(١) نسخة شبيهة Facsimilé

أتنبَّه فجأة إلى أنَّ الرعشة كانت منِّي، وأنَّ الخفقان كان مصدره قلبي.

أتمتم. أقرأ.

أقف. العنوان يملأني.

ليالي العصفوريَّة... تفاصيل مأساتي، من ربيع ١٩٣٦ إلى خريف ١٩٤١.

... ...

مَيْ زِيَادَة

(إيزيس كوبيا)

لَيالِــي العَصْفُورِيَّة

تفاصيل مأساتي، من ربيع ١٩٣٦ إلى خريف ١٩٤١

النسخة الأصليَّة الكاملة التي تمَّ العثور عليها في صحراء الجيزة، ودير عينطورة في بيروت.

تحقيق وترتيب وتعليق

روز خليل، وياسين الأبيض

Editions BNF Paris & et LRAL Montréal

2017

بدءُ اللَّيالِي

... أخرجوني من بيتي، قبل الساعة الرابعة بعد الظهر، وأوصلوني إلى مكاني في القطار، وغابوا عنّي، فبقيت جالسة حتى عاد الدكتور والرجلان الآخران. وعندئذ قام القطار، إذًا نحن في منتصف الساعة السادسة. ومنذ الأسبوع الأوّل في بيروت، ذكّرت ابن عمّي، الدكتور جوزيف زيادة، بوعده، وقلت له إنّي أرغب في الرجوع إلى بيتي. فأنا بخير ولا أحتاج إلى أيّ شيء. فطيّب خاطري ببعض الكلمات، وأبقاني عنده شهرين ونصف شهر على مضض منّي، وأنا أطالبه بالعودة. حتى استكمل برنامجه في أمري، فأرسلني إلى *العصفوريّة*، بحجّة التغذية. وباسم الحياة ألقاني أولئك الأقارب في دار المجانين أحتضر على مهل.

أحتضر على... مهل...

١ ـ مرْيَمتُك أنَا يا الله، فلِماذَا تخَلَّيْتَ عنِّي؟

ليلة ١٦ أيَّار/مايو ١٩٣٦ وما تلاها

ـ ١ ـ

موجودة وكأنّي لم أكن.

موجوعة، لا أحد يسمعني.

لا شيء الآن، سوى إنّي قرّرتُ الموتَ كتابة.

أكتب لكي أستمرّ فيّ.

الغياب، جهنّم الأرض.

لقد وضعوا بيني وبين السماء والناس الذين أحبّ، حجابًا سميكًا.

أصرخ بكلِّ ما أملك من ألم الجريح، بلا أمل كبير في أن يسمعني الله أو شخص ما: مريمتك *أنا يا الله، فلماذا تخلّيتَ عنّي؟*

أشعر بوهن كلّيّ، ولم أعد قادرة، لا على الحياة ولا على الموت، ولا حتى على الوقوف في برزخ بينهما.

أكتب فقط، وأعاود الكتابة، لكي لا أموت اختناقًا بالجنون والجحود.

أعود لي باحثة عنّي. لا أجدُني كما عرفتُني.

لا خِيار لي سوى أن أكتب.

أكتبَ لا غير.

ـ ٢ ـ

أنا ميْ.

ماري إلياس زيادة. وُلدت في ١٨٨٦، من خلطة دينيَّة ومكانيَّة غريبة، أمٍّ فلسطينيَّة أرثوذكسيَّة، نزهة معمَّر، من مرتفعات الجليل الساحرة وقناديلها العاشقة، وأبٍ مارونيّ لبنانيّ، إلياس زخُّور زيادة، من ضيعة شحتول، التي تزداد كلّ يوم ارتفاعًا لتقترب أكثر من سماء الله.

عمري اللحظةَ، تخطّى عتبةَ الخمسين سنة بقليل. ٥٦ سنة. لا شهادة لي وأنا أكتب هذه اليوميَّات، إلَّا صرختي التي لن يسمعها أحدٌ غيري إلَّا إذا شاءت صدف الأقدار شيئًا آخر، أو ربَّما سمعها عابرٌ لا أعني له الشيء الكثير: *لقد قتلني أهلي*، ومحوا جسدي بتربية دينيَّة هم مَن اختاروها لي، حماية لي من زمن خطير كان يرتسم في أفق داكن. طفولتي المعاندة سرقتْها منّي مدارسُ الراهبات التي صلبت جسدي حتى حولته إلى حجرٍ أصمَّ، يابسٍ، بلا تربة، ولا رمل، ولا ماء، على الرَّغم من الغوايات والطراوات التي كانت تُحيط بجسد كنت أكتشفه في كلِّ التفاتة، أو على مرايا الحمَّام، أو في عيون الآخرين،

أو مرتسمًا كالغيمة الشهيَّة التي لا أملك القدرة على وضع حدود لها، ولا أن ألمسها أو يلمسها غيري، في كلّ مراحل حياتي، حتى بدء الفجيعة التي رمتني عند بوّابات العصفوريَّة.

استلمتني من يدَيْ أمّي، مدرسة اليوسفيَّات في الناصرة، مدينتي المعشوقةِ التي كتموا صرختها، حتى عامي السادس. هذه المدرسةُ منحتني القدرة على تحصين النفس من الخطايا، على الأقلِّ هذا ما بدا لأمِّي. ثم اقتادني والدي إلى داخليَّةِ مدرسة راهبات الزيارة، في عينطورة، في مرتفعات الجبل، ببيروت، حيث العزلةُ الكلِّيَّة، والموتُ الصامت لكلِّ ذرَّة حيَّة في الجسد. في كلِّ ليلة، كنت أرى وجهي، وشفتي، وأتحسَّس نهدَيَّ المتفتِّحين، ونهودَ صديقاتي النافرةَ، وهي تهتزُّ بغواية وشهوة، باستدارات متقنة كأنَّها خرجت من بين يدي فنَّان، وهنَّ يرتدين ألبسة النوم، وكأنَّ هذه الأجسادَ وُلدت، لا لتكون مشرقة ومانحة للحياة، ولكن لتُمحى ويحلَّ محلَّها ضبابٌ أسود. ولا وظيفة لها سوى التخفِّي، والحرص عليها من أيَّة لمسة ذكوريَّة، فتشيخ في النهاية مثل أشجار الأرصفة اليابسة، من دون أن تستنشق أيّ عطر خارج الجوِّ المؤكسَد الذي تعوَّدت عليه. كنت أريد لهذا النهد أن يكبر بسرعة، وينام في كفٍّ غير كفِّي.

سنةٌ واحدة مرَّت ثقيلة في عينطورة، كانت كافية لأن تجعلني أخاف من جسدي وليس عليه، كما علَّمونا. سنةٌ واحدة سطَّرت كلّ الحواجز الممكنة، وفصلت نهائيًّا بيني وبين طفولتي.

أنا الآن ميْ،

ميْ كما أنا، ولست شبيهتَها التي عشتُ بها زمنًا طويلًا.

انتهى في ثانية واحدة كلُّ ما حلمتُ به كعاشقة مراهقة، كلّما

رأت شمسًا تُشرق، ظنَّت أنَّها لها وحدها. تفتح ذراعيها عن آخرهما وتستقبل فرح الأشعَّة ورذاذ الصباحات الربيعيَّة.

منذ أكثر من مائة ساعة[1] وأنا من دون أكل ولا شرب، لدرجة أن نسي بطني شيئًا اسمُه الجوعُ والشبع؟ كلّ ما يأتونني به، أرفضه، أرميه بعيدًا لكي لا أُصاب بالغثيان، أو أتركه على حاله حتى تأتي العاملة، الخالةُ مادلين، وتأخذه وهي تتمتم:

ـ حرام عليك يا ابنتي. هذا انتحار.

ـ ما عليهش يا خالة مادلين. ربَّما كان هذا أهون من مذلَّة الجنون.

ـ لكنَّك تنتحرين يا ابنتي، والربّ لا يُسعده ذلك.

ـ يا خالة، وين نحنا وين الربّ؟ منسيُّون في هذا الظلام الفادح.

بالكاد أردّ عليها، وهي عند عتبة الباب، تدفع بعربة الأكل للخارج. ثم تغيب كما الظلِّ في صمت.

فعل الأطبَّاء والممرِّضون والممرِّضات المستحيل معي، ليُرجعوني إلى رشدي، كما قالوا. بعدها التجؤوا إلى وسائلهم القاسية والعنيفة التي تخترق حرمة جروح الجسد الخفيَّة والظاهرة، من دون حقٍّ. أنا لم أكن مجنونة. كنت مصابة فقط بآلام الفقدان التي لا دواء لها سوى الإنصات بهدوء لحرائقها، ومحاولةِ لمسها كما نلمس الضوء، من أجل احتضانها.

---

(١) اعتمادًا على جوازها، فقد دخلت ماري إلياس زيادة (ميّ)، بيروت، في ٤ آذار/ مارس ١٩٣٦ ومكثت عند عائلة ابن عمِّها الدكتور جوزيف زيادة حتى ١٦ أيَّار/ مايو من السنة نفسها، قبل أن يُزَجَّ بها في ظلام مستشفى المجانين، في بيروت، العصفوريَّة.

أنا ميْ.

اختصار لماري. أوقِّع باسم إيزيس كوبيا بالإفرنجيَّة. غير أنَّه لا هذا اسمي، ولا ذاك. إنِّي وحيدة والدي، وإن تعدَّدت ألقابي. أكتب لأنِّي لا أعرف مهنة أخرى أُتقنها وأكبر بها وفيها.

قلبي ممتلئ رمادًا.

هويَّتي ممزَّقة لكنَّها حيَّة. كلّ ليلة ألملمها، وأرقِّعها، فيأتي صباحًا مَن يفرفطها بكلمة واحدة، بحركة، بنظرة، ويسحب كلَّ خيوطها ويحوِّلها إلى كومة لشيء بلا اسم ولا معنى، في فوضى بلا شكل ولا هويَّة.

بحجَّة التغذية وباسم الحياة، ألقاني أولئك الأقارب في دار المجانين، أحتضر على مهل وأموت شيئًا فشيئًا كحشرة. لست أدري إذا ما كان الموت السريع هيِّنًا. أمَّا الموتُ البطيء. طوال أسبوع من التغذية القهريَّة، تارة من الفم بتقطيع لحمة الأسنان وطورًا من الأنف بواسطة النربيج ليصبّ ما يصبّ من الداخل نزولًا إلى الحلق فالصدر، فذلك موت لا أظنّ أنَّ إنسانًا يحتمل الإصغاء برباطة جأش إلى وصفه. ومع ذلك، كان بعض أقاربي في زيارتهم النادرة لي، يستمعون إليّ بسرور وأنا أصف نكالي وشقائي، راجيةً منهم عبثًا أن يرحموني، ويُخرجوني من العصفوريَّة. مللت من جملتهم المكرورة، هي نفسها جملة جوزيف يوم زجَّ بي إلى العصفوريَّة. داخل هذا الخراب.

ـ كلّه من أجل مصلحتك. إن شاء الله، لمَّا تخرجين من هنا ستعرفين كم أفدناك.

ـ بس تعبت يا جوزيف، ولم أعد قادرة على التحمُّل. بصراحة، ما عاد فيني أيَّة قدرة.

أُجيب وأنا أبكي. ثم يقمن الواحدة تلو الأخرى، فتتحوَّل الغرفة بسرعة إلى جسدٍ فارغ من كلِّ حياة. ثم تبرد كما لو كانت قبرًا قديمًا. أصرخ طوال الليالي:

ـ يا نااااااااااس. لست مجنووووونةً. يا ناس. أنا مصابة فقط باكتئاب بسبب الفقدان، لكنِّي ما ضيَّعتُ عقلي.

لا أحد يسمع صراخي، إلَّا أشجار العصفوريَّة الكثيفة، والعملاقة، التي تنحني بسهولة كلَّما هبَّت عليها الرياح، لكنَّها تجد صعوبة كبيرة في الارتفاع وإيجاد استقامتها. أجمع أنفاسيَ الأخيرة المثقلةَ برمل البوادي التي كبرت وشاخت في الدماغ، ثم أعاود الصراخ، قبل أن تمرّ الممرِّضة الخشنة والثقيلة والبدينة مدام شوكي. اسمها الأصلي السيِّدة شوكت. اسم على مسمًّى. تناولني حقنة مورفين، تبعث بي نحو عالَم بلا لون حتى الصباح. في البداية كنت أقاومها، لكنِّي مع الأيَّام، استسلمت لها. كلّما سمعتها وهي تجرّ عربة الأدوية، أحضِّر نفسي بشكل آليّ، وأستعدُّ للنوم.

ـ Parfait. Mademoiselle May s'est enfin résignée?

ـ Très fatiguée, Madame Choquer

ـ Chawkat SVP

ـ Pardon. Chawkat.[١]

(١) ـ ممتاز. الآنسة مي استسلمت أخيرًا.
ـ متعبة جدًّا يا مدام شوكي.
ـ شوكت، من فضلك.
ـ عفوًا. شوكت.

تعبت جدًّا يا سيِّدة شوكي.

لا أدري إذا صدرت منِّي كلمة Choquer عمدًا، لكنِّي لم أندم على قولها أبدًا.

متعبة أنا مثل غيمة جافَّة، ماذا أفعل؟

وزني منذ البارحة أصبح ٢٨ كيلو، هذا ما قاله الطبيب وهو يحاول أن يُثنِيَني عن جنوني. لكنَّني لست مجنونة أبدًا يا سيِّدي، من قال هذا عنِّي هو المجنون؟ حتى لو كانت هذه الكلمات، من كثرة تكراري لها، أصبحت لا تعني الشيء الكثير، بما في ذلك للطاقم الطبِّي الذي يصبِّح ويمسِّي عليّ. صرخت حتى دختُ، الآلام كانت حادَّة بالخصوص الإطعام من الأنف. كدت أسحب النربيج لولا أن سبقتني إليه مدام شوكي، وجمَّدت يدي على صدري، وحركتي. من شدَّة الصراخ، لم أنتبه للألم إلَّا عندما مسَّت إبرةُ الحقنة العظمَ.

لا أدري إذا نمت أو دخت، لكنِّي انطفأت تحت وطأة العنف الممارَس ضدِّي.

طلبي الأخير لمَّا أفقت، لم يكن خارقًا. فقط شويَّة أوراق، وقلم رصاص. مُنعت منها. كتبت في البداية على باكيت سجائر. فتحته كلِّيًّا وبدأت أدوِّن حزني على بياضه، بخطٍّ ناعم كأنَّها آثار سرب من النمل، ربحًا للمساحات. القلم الصغير سرقته من الممرِّضة مدام شوكي، التي مرَّت لتُقنعَني بضرورة الأكل، فحياتي في خطر. قلت لها بلا تردُّد:

ـ لا خطر مطلقًا، فأنا أصلًا أريد أن أموت. هل هناك مانع؟

ضحكتْ. لأوَّل مرَّة تفعل ذلك.

ـ وتقولين إنَّك مش مجنونة.

ـ أنتم إلِّلي عم بتجنّنوني.

ـ مش مهمّ. لكن إذا بدِّك تموتي، موتي، بس خارج حيطان العصفوريَّة. لن تحزن البشريَّة عليك، ولن يتغيَّر العالم بعد موتك. سيستمرّ عاديًّا وكأنَّ شيئًا لم يكن. يا آنسة ميْ، استردِّي حقّك أوَّلًا، ثم موتي بعدها إذا شئتِ. لو كنت مكانك لفعلت هذا بلا تفكير مطلقًا لأنَّ الانتحار ليس حلًّا. حلّ الذين لا مخَّ لهم.

ـ أنا منهم. لا مخَّ لي. أصلًا شو راح أعمل بهيك مخّ في عالم مجنون أيضًا؟

انفجرت مدام شوكي ضحكًا كالملحة على النار. لم أتمالك نفسي، فضحكتُ. منذ زمن طويل لم أضحك. ضحكنا معًا، فاهتزّ صدرها المثقل بنهدَيْ فيل إفريقيّ. الغريب أنَّ جملتها أصابتني: استردِّي حقّك أوَّلًا، ثم موتي إذا شئتِ.

كأنَّها نبَّهتني فجأة لشيء لم أكن متفطِّنة له، مع أنِّي لم أكن مستسلمة.

جدَّدت طلب الأوراق والقلم، فجاءتني ممرِّضةٌ أخرى، أراها لأوَّل مرَّة. كانت لطيفة جدًّا. سوزان أو سوزي. الجميع هنا، ينادونها بلوهارت[1]. كانت أكثر نعومةً من كلِّ مَن رأيتهم في العصفوريَّة، جاءتني بقلمَي رصاص صغيرين ومبراة، وبعض الأوراق، وممحاةٍ جزءٌ منها أزرقُ والجزءُ الثاني أحمرُ، باهتٌ.

---

(١) القلب الأزرق.

ـ لا أدري ما سيقوله الطبيب عن فعلي، لأنِّي لم أطلب إذن أحد. من حقِّ كاتبة كبيرة مثلك أن تكتب ألمَها على الأقلِّ؟

أُصبت بدهشة. أوَّل ممرِّضة تتحدَّث معي بوصفي كاتبة. في لغتها شيءٌ منِّي ومن آلامي.

ـ يا ريت كان الناس كلّهم مثلك يا سوزي.

ـ أنا أريدك أن تستمرِّي في الحياة يا آنسة مي. قرأتك كثيرًا، وأحببتك بقوَّة عن بعد. أدرك بداخلي أنَّك لست كما يصفونك. لا يمكن لامرأة بعقلك ومحبَّتك أن تكون كما يقولون عنها. لكنْ في العصفوريَّة أشياء شديدة الغرابة تحدث من حين لآخر. قبل أسابيع رموا عندنا برجل سياسيٍّ كبير. شابٌّ مليء بالحياة. قالوا عنه إنَّه مجنون، ومُصاب بعقدة جنسيَّة متأصِّلة فيه قادَتْه إلى الجنون. لم يكن كذلك. منذ يومين غيَّروا له الجناح. لم يتوقَّف أبدًا عن الصراخ ليلًا. قبل يومين وجدوه مشنوقًا على حبل، علَّقه في حديد الكوَّة العالية. مَن وفَّر له الحبل؟ مَن قاده نحو حجرة فيها خشبٌ ومساميرُ خشنة؟ لا أدري كيف صعد حتى الكوَّة؟ كيف ربط الحبل؟ الذين عرفوه يقولون إنَّه من رافضي الحماية الفرنسيَّة، وهو من منظِّمي ثوَّار الأرز. أخذوه ليلًا، تحت حراسة عسكريَّة، وأعتقد أنَّه دُفِن ليلًا أيضًا في مكان مجهول. الظاهر أنَّ كلّ من يُزعجهم، يصبح مجنونًا.

ـ لا أدري من أين خرجتِ لي، ولا من أين جئتِ لي. لكنَّ كلامَك مريحٌ جدًّا، وخطير أيضًا.

ـ في خدمتك يا آنسة مي. كنت دائمًا أتمنَّى أن أراك وأكلِّمك، وها حلمي قد تحقَّق.

لأوَّل مرَّة أشعر أنَّ في هذه القلعة البيروتيَّة الممتدَّة والعالية، والمنفصلة عن الحياة، إنسانًا محبًّا، يفكِّر في قليل من الخير. عندما ضحكت مدام شوكي، شعرت أيضًا بشيء قريب من هذا، لكن ليس بهذه القوَّة. مدام شوكي تبقى هي هي بعنفها عندما تكون برفقة الطبيب، تستيقظ فيها رغبةُ السلطة والقوَّة وكأنَّها صاحبةُ الشأن كلّه في العصفوريَّة.

هم يريدونني أن آكل، فيُؤَكِّلونني بالقوَّة، وأنا أريد أن يعاملوني فقط معاملةً تليق بامرأة طبيعيَّة، بكاتبة منحت روحَها وحياتها لكلِّ ما هو جميل في هذه الدنيا، من دون أن تطلب مقابلًا. أتساءل أحيانًا لماذا كلُّ هذا؟ إذا كانت لديهم أحقاد ضدِّي لأنَّني امرأة شرقيَّة غادرت نهائيًّا شرنَقَتَي اليقين والاستسلام، فليخجلوا ويعاملوني بصفة والدي إلياس زيادة، فهو صحفيٌّ كبير، وسياسيٌّ محنَّك، ورجل مهنيّ من الطراز العالي، كان يضع دومًا لبنان في مقدِّمة اهتماماته. في كلّ كتاباته ومغامراته النضاليَّة والتعليميَّة والصحفيَّة، كان الوطن العربي رهانَه الأساسيّ.

لا أحد سمع نداءاتي الخفيَّة والمعلنة. لا أحد كلّف نفسه سماعي.

كلّ وسائلي ورسائلي، ارتطمت بأسوار العصفوريَّة الثقيلة. لا أملك سلاحًا غير هذا. كلّ المحيط ضدِّي، حتى الأشجارُ والنباتات الصغيرة وحشرات الناموس والبعوض التي حوَّلت جسدي الهشّ إلى ساحتها المباحة، وملأته ثقوبًا كما الغربالُ. لا أملك وسيلة للاستمرار إلَّا أن أصرخ يأسًا، أو أغمضَ عينَيّ، وأرمي بنفسي في عمق الدوَّامة

التي لا بداية لها ولا نهاية، دوار من الخوف الملوَّن.

يمكنني أن أُقيم ولو موقَّتًا في مساحة لا يملكها كلّ الناس. أرضي، وطن الكتابة. لعلَّ معرفتي تسعَ لغات، ستجعل هذا الوطن أكثر اتِّساعًا. يفيض قليلًا عن حدود وطنيَّتي. يجعلني أنظر إلى هذا العالم كلّه كأنَّه وطني الأكبر.

تغيب بلوهارت طويلًا، فأستعيد كلّ تفاصيل وجهها الطفوليّ، وملامحها الملائكيَّة، ولكنة لسانها الناعمة. تنتابني بعض الشكوك في أن تكون مستعمَلة من طرفهم لكسر إضرابي. أتساءل، ثم أحاول ألَّا أغرق في هذا الافتراض الأسود، أنا في حاجة ماسَّة لشيء آخر، قريب من الخير، حتى أتمكَّنَ من العيش هنا، داخل سطوة الخوف من كلّ شيء، حتى من نفسي.

أتأمَّل الحائط الأبيض والسقف الأبيض، الذي كان كلّ يوم، ينزل قليلًا لدرجة أن يخيفني ويخنقني.

كيف حدث هذا كلّه يا الله؟ وبشكل سريع وفجائيّ وقاتل؟ وبتواطؤ كلّ من عرفتهم، وبصمتهم.

منكسرة أنا، حتى القلب والروح، لا أصدِّق ما يحدث لي.

ـ ٣ ـ

أنا ميْ.

أشهد أنِّي لم أكن سهلة. ولست سهلة. ولن أكون سهلة حتى الموت.

امرأة من حيرة وانتظار لا أعرف مؤدّاه، وخوفٍ من مُبْهم يسطِّره الآخرون لي.

صمَّمتُ أن أقول كلّ شيء. إلى الجحيم، كلّ ما يعيق البركان الذي في صدري.

لا أعلم إذا ما كانت صراحتي سترضي أهلي وأقاربي، ولكن شيئًا فيّ، في أعماقي، يُجبرني على هذا الامتحان الصعب والمحنة الثقيلة قبل أن أُجَنّ حقيقة لا بسبب الاكتئاب، ولكن بسبب الظلم وما أُلصق بي.

... كلّ شيء بدأ عندما أخرجوني من بيتي قبل الساعة الرابعة بعد الظهر وأوصلوني إلى مكاني في القطار وغابوا عنّي فبقيت جالسة حتى عاد ابن عمّي، الدكتور جوزيف والرجلان الآخران. وعندئذ قام القطار، إذًا نحن في منتصف الساعة السادسة...

الأسبوع الأوَّل انتهى هادئًا، على الرَّغم من غلياني الداخليّ الذي كثيرًا ما كان ينتابني: كيف جعلني أوقِّع له على التوكيل الذي يسمح له بتسيير كلّ ممتلكاتي؟ أين كنتُ؟ أيُّ دوار أصابني؟ مراهقتي الأولى التي جعلت حياتي كلَّها محصورةً في ابتسامة جوزيف، في فرحه وغضبه، وفي كلماته التي ينتقيها بدقَّة من قواميسه الفرنسيَّة الثقيلة، التي تهزّني من الأعماق؟ أهو الحبّ الأعمى الذي سكنني بقوَّة؟ أم الحاجة الماسَّة إلى حائط أتَّكئ عليه، بعدما سقطت كلّ حيطاني، ووجدتني عارية من كلّ شيء؟ مجرَّد قطعة لحم مرميَّة في نقطة ما، غير مرئيَّة، من الكرة الأرضيَّة.

كنت بين أهلي حيث كلّ شيء يبدو مثل صفحة ماء ملساء، لا ندوب عليها ولا عواصف ولا أمواج. فجأة، شيء قويّ قذف بي بعيدًا في فراغات الكون حيث تفقد الأشياء أشكالها وجاذبيَّتها. كلّما مددت

يدي صوبَها، عادت بفراغ لا لون له إلّا لون خيبتي ويأسي.

كلّما التفتُّ نحو جوزيف، نظر إلى البياض الذي أمامه، أو خلفه، لا يتكلَّم. ثم ينسحب نحو غرفة نومه. كنت أجد له كلّ أعذار الدنيا، وأقول في خاطري، ربَّما فرضني حبيبي على أهله لأنَّه يريد إنقاذي من شيء خطير كان يتهدَّدني ولم أكن أعرفه باستثناء كآبتي؟

شيء ما يتآكل كالبركان قبل أن تندفع حممُه بلا توقُّف.

قفزت أمامه بعد انتهائه من الغداء. ذكّرته بوعده، وقلت له إنِّي أرغب في الرجوع إلى بيتي، في القاهرة. شكرًا على كلّ شيء. منحتني بعض الراحة. أنا الآن بخير، ولا أحتاج إلى أيّ شيء. ولا حتى إلى أسبوع في بيروت. شبعت منها من بعيد. بعضُ الأرواح تسحبنا بالقوَّة إمَّا نحو عمق المكان، أو ترمينا خارجه.

وأنا أحلِّق في الفراغ المظلم. فقد شممت شيئًا غير مريح أبدًا. حاولت أن أُقنع نفسي بغير ذلك، لكن بلا جدوى.

أواجهه مخافة أن أغضبه:

ـ جوزيف حبيبي، يكثر خيرك وخير عائلتك، منذ شهرين وأنا هنا. بدّي أعود لمصر، تركت أعمالي كلّها معلَّقة هناك. عندي سفرة ضروريَّة إلى لندن. لو ما أسافر راح أتعب يا جوزي.

نظر إلى وجهي طويلًا كأنَّه يريد أن يعرف ما يتخفَّى من وراء ملامحي المتعَبة والمثقلة بالغموض. طيَّبَ خاطري كعادته ببعض كلمات، يُتقن إدخالها إلى قلبي، فيشلُّني كلِّيًا. ربَّما لأنَّ قلبي ما يزال ملتصقًا به:

ـ لا يا روحي. لأهلك حقّ فيك. مو معقول تروحي بهيك سرعة، ونحنا ما شبعنا منك. أصلًا ما شفناك.

ـ متعبة حبيبي جوزي. أنت تروح لعملك مع مرضاك، وأنا أنتظر هنا طوال اليوم بلا أيّ شيء. كلّ شيء مغلق من حولي. لا حقٍّ لي في الخروج. أُدرك أنَّك تخاف عليّ منِّي. لكنَّني أفضل. حتى كآبتي زالت. أسفاري القادمة ستقلِّل من ثقلها.

ـ أفهمك جيِّدًا يا ميْ، لكن مش ممكن ترجعي إلى القاهرة وأنت على هذه الحال من التعب. لا، لن تعودي إلَّا عندما أتأكَّد من أنَّ حبيبتي بكلِّ الصحَّة والخير. هل نسيتِ وصيَّة عمِّي إلياس الله يرحمه؟ *بنت عمَّك في رتبة أختك وأكثر، ضعها في قلبك وعينيك، وها أنا ذا أفعل*. فشلنا في الزواج لأسباب صعبة، وأخ لم يكن متفهِّما دائمًا، فلا نخسر أخوّتنا.

ـ لن نخسر شيئًا حبيبي. الحرِّيَّة ليست خسارة بأيّ حال من الأحوال.

كدت أصرخ مثل المهزوم قبل انتحاره بقليل، لكن صوتي لم يسعفني.

ـ *فشلنا في الزواج. نعم فشلنا فيه. لم يكن أخوك نعُّوم هو السبب ولا أهلك، ولا حتى أهلي الذين ظلَّ والدي مرتبطًا بهم بقوَّة. ولكنَّك أنت. أنت وحدك حبيبي، ولا أحد غيرك. قرَّرت ونفَّذتَ في غيابي، وركضتَ نحو ما اشتهيتَ. بعتني أمام امرأة أخرى، لم تكن لا أجمل ولا أبهى سوى أنَّها كانت فرنسيَّة. لا ألومك في خياراتك. من الأفضل أن أصمت لأنَّ لساني، عندما يصل إلى درجة من الألم، لا*

يتوقَّف ولا يرى شيئًا آخر سوى جرحه. المهمّ حبيبي ساعدني على العودة إلى مصر.

أبقاني عنده شهرين ونصف الشهر، على مضض منّي، وأنا أطالبه بالعودة، يوميًّا لدرجة كنت أبدو لنفسي، أحيانًا، بلهاء. في كلٍّ ليلة كان يسألني عن حكاية المكتبة التي كنت أنوي منحها لدار الكتب المصريَّة، والنسخِ المكرَّرة إلى إحدى المكتبات في لبنان. يصمت بعدها طويلًا، ثم يعاود. يلحّ عن حساباتي في بنوك أخرى غير المصريَّة واللبنانيَّة المعروفة، والسويسريَّة والإيطاليَّة. وهل حدَّثني والدي عن أراضٍ امتلكها غير تلك المعروفة من العائلة، اشتراها في مصر أو فلسطين أو سوريا مثلًا؟ كنت أجيب بعفويَّة وصلت إلى درجة البلادة.

حينما استكمل برنامجه في أمري، أرسلني إلى «العصفوريَّة». في لحظة يأس، عندما عرفت كلّ ما كان يركض وراءه، نظرت إلى وجهه طويلًا لدرجة أن أحنى رأسه، وبصقت على الأرض كي لا أندم أبدًا. كنت قادرة على قتله لو تمكَّنت من ذلك، ولن يكون ذلك إلَّا دفاعًا عن النفس، لكنِّي لم أستطع؟ قلبي منعني وليس عقلي.

أدركت بسرعة أنَّهم كانوا يريدون التخلُّص منِّي بعد أن نزعوا منِّي البذرة الأخيرة من حبّهم.

أصبحت حذرة في كلّ شيء، وكلَّما تفاديت أكلة أو شرابًا، كتمت العائلة ضحكها بصعوبة لأنِّي كنت أبدو لها غريبة. بل أكثر من ذلك. لم أكن في عيونهم أكثر من امرأة مصروعة، وغيرِ طبيعيَّة. مجنونة. مع الوقت بدأت أشكّ في نواياهم. لا آكل إلَّا ممَّا يأكلون.

أنتظر حتى يشرعوا في الطعام. ولا أشرب إلَّا ممَّا يشربون. بل كنت أراقبهم وهم في المطعم، وأنظر سرِّيًّا لكلِّ ما كانوا يهيِّئونه. كنت الحاجز الوحيد في الاستيلاء على الميراث العائليّ. أخي مات في وقت مبكر. لا حقَّ له في الميراث. الوحيدة التي تثقل على أطماعهم هي ميْ. أنا المتعوِّدة على الحماية والرجال من حولي، طالبت جوزيف بحماية قاتلة. كان يعرف جيِّدًا كم كنت مرهقة وكم كنت في حاجة ماسَّة إليه.

يااااه. كم كنتُ غبيَّة؟

عائلتي الحقيقيَّة انتهت بموت أمِّي، بعدها الفراغ المظلم. حتى الذين كنتُ أحبّهم، ذهبوا ولم يتركوا وراءهم إلَّا علامات صغيرة تُضيء كهوف القلب. فجأة تحوَّل العالم الذي كنت فيه إلى أدغال أمازونيَّة بلا حدود. لا شيء فيها سوى الظلام والحيوانات المفترسة.

كنتُ امرأة بلا متَّكأ أُسند جسمي المتعب عليه بثقة.

الآن أمنح ظهري للفراغ وأستمع لتكسُّر كلّ شيء ظننته حقيقة. أغمس عينيّ في سواد مريح قليلًا، وأتركني أهوي مثل ذرَّة في الفراغ.

أنام قليلًا، وأرى كثيرًا. ربَّما كانت تلك أُولى علامات الجنون.

ـ ٤ ـ

أشعلت سيجارتي السابعة، متخطِّيةً عتبة الحقِّ الذي افترضته كحدٍّ فاصل بين المسموح والمؤذي. استمتعت قليلًا بدوائر الدخان وهي تتداخل وتتماهى في بعضها البعض. على الرَّغم من أنِّي توقَّفت عن التدخين منذ وفاة أمِّي، إلَّا أنِّي سرعان ما عدت بشراهة أكثر. بلا

نظام قبل أن يخيفني الطبيب بسعالي الذي كثيرًا ما كان جافًّا ويوجعُ صدري.

ـ إذا واصلتِ على هذه الوتيرة ستدمِّرين رئتيك.

ـ أعرف، لكنِّي لست محترفة.

ـ تعرفين ما معنى تدميرِ الرئة.

بعدها حاولت أن أخلق نظامًا مقبولًا، وصلت من خلاله إلى خمس سجائر. وها أنا ذي أتخطَّاه إلى السبع.

تخيَّلت كلّ شيء إلَّا هذا.

عندما التفتُّ صوب المرآة، في لحظات السكينة والخلوة، عاتبت نفسي بعنف شديد. ماذا كان يحدث لولا تلك الرسالةُ الملعونة؟ قلبي خدعني عندما رأى في جوزيف أفضل شخص في العائلة، قادر على حمايتي. كان متحمِّسًا وجميلًا ويريد أن ينقذني من أوضاع كانت كلّ يوم تزداد سوءًا. حتى سفرتي بعد وفاة أمِّي الحبيبة، لم تكن كافية لرتق جراحات متتالية وعنيفة. كآبتي التي كانت قنبلة موقوتة بدأ دخانها يصعد عاليًا معلنًا عن انفجار محتمل في أيَّة لحظة. كنت أشمّ رائحتها في البيت كلّه، ولم أكن قادرة على تفاديها.

قال لي جوزيف وهو في كامل تأثُّره، إن وضعي يحتاج إلى اهتمام حقيقيّ واستراحة بين الأهل، لا يوجد أثمن من الأهل في ظروف الوحدة والمرض. تغيير الهواء في لبنان أكثر من ضرورة، والمكوث لمدَّة أسبوع هناك سيُفيدني ويقلِّل من قلقي الدائم.

ـ حبيبتي. لازم ولو أسبوع. أنا أيضًا ما عاد شيء يشدّني إلى

باريس أيّ شيء، بعد وفاة زوجتي.

ـ الله يرحمها. كانت سيِّدة طيِّبة. آسفة، ربَّما نغَّصتَ عليها حياتها الهادئة.

ـ انتهى كلّ شيء. ما يزال في الحياة متَّسع.

ـ ألوم نفسي كثيرًا. كلّ حقدي عليك صرفته نحوها مع أنَّها لم تفعل شيئًا ضدِّي. ربَّما حادثة الرسالة كسرت الكثير من حبِّها لي وحبِّي لها. أعتقد أصبحت تكرهك بعدها، متأكِّدة من ذلك. كنتُ دائمًا أصرخ في أعماقي كلَّما أحسست بكما معًا في لحظة حميميَّة: ألا اتركوني لحالي. أَبعدوا عنِّي، ولو حينًا، أصواتَ البشر التي تتبطَّن الحسد والحقد والغلّ.

ـ أنا أيضًا لم أكن حذرًا. لا توجد امرأة طبيعيَّة في هذه الدنيا تقبل بزوج يتراسل مع حبيبته الأولى. هي تعرف جيِّدًا أنَّ الحبّ الأوَّل قاسٍ ولا يمكن تخطِّيه بسهولة.

ـ قصَّة وانتهت.

ـ من قال إنَّها انتهت؟ هل أنت مؤمنة بذلك؟

ـ بعقلي نعم. بقلبي صعبٌ عليّ؟

ـ أمامنا كلّ الحياة. الآن يجب أن ترتاحي. أن نسافر معًا إلى بيروت.

آمنت به وبجمله الهادئة، المليئة حنانًا وحبًّا. فقد كنت في حاجة إلى أيَّة كذبة تمنحني فرصة للالتصاق به، بالحياة. أنا من اخترتُ هذا الطريق، ولم يدفعني نحوه أحد.

تمتمت وأنا أحضنه بكلِّ قواي:

ـ جوزي حبيبي، خائفة.

ـ ممَّن؟

ـ لا أدري؟

ـ تخافين من العودة إلى بيتك وأهلك؟

ـ لا أعرف حبيبي. خائفة فقط.

ما تزال على شفتي تلك القبلة الفرنسيَّة الطويلة التي تشبه قُبَل الأفلام، لكنَّها منحتني السكينة والهدوء.

أوَّل ما وصلت في نهاية الأسبوع الأوَّل أَحضروا لي طبيبَ الأمراض العصبيَّة، وهو مدير العصفوريَّة، البروفيسور، بشكل متنكِّر طبعًا، وقالوا: مستشرق إنجليزي، البروفيسور مارتين، يبحث في المؤثِّرات الإنجليزيَّة على الشعر العربي في بلاد الشام ومصر. يمكنك التحادث معه في كلِّ الموضوعات الثقافيَّة التي تشغلك، بكلّ حرِّيَّة. كان البروفيسور مارتن رجلًا أنيقًا ومثقَّفًا بامتياز. موسوعة حقيقيَّة في الشعر الإنجليزي، لكن معرفته بالشعر العربيّ ونَظمه، وطرائقه، كانت تنقصها الدقَّة. ارتحت لمارتن ممَّا أبعدني قليلًا عن نوبات الكآبة التي كانت تنتابني من حين لآخر. وظلَّ يكرِّر الزيارات. حدَّثني آخر مرَّة، عن الشعر الأنجلوساكسوني، وعن أجمل النصوص التي تستحقّ الترجمة. ذكر لي عناوين كثيرة، فكَّرتُ جدِّيًا في ترجمتها إلى العربيَّة فور استراحتي وعودتي إلى بيتي في القاهرة.

اللعبة لم تدم طويلًا. لم يكن يومها أحد بالبيت. رنَّ الهاتف

مباشرة بعد مغادرة البروفيسور مارتن البيت. سألتني المرأة التي كانت وراء المقسّم:

ـ هل البروفيسور جورج ما يزال ببيت الدكتور يوسف؟

ـ الدكتور جورج، قصدك مستر ميلر، المكلَّف بمتابعة الحالة الصحِّيَّة لابنة الدكتور جوزيف.

لا أدري من أين جاءتني تلك النباهة الغريبة:

ـ أنا سميرة، ابنة الدكتور جوزيف. تعلَّمت منه الكثير، عن الشعر الإنجليزي. استهواني بشكل آنيّ تمنَّيت لو يزورنا يوميًّا، لأنَّ المجنونة تأخذ كلّ وقته.

ـ هناك بعض الطلبة الذين يعملون على الأدب الإنجليزي يستشيرونه كثيرًا. على كلٍّ هو غادر قبل قليل. يزور جوزيف عادة للاطمئنان على المريضة، وتشخيص حالتها بدقَّة.

ـ قصدك المجنونة.

ـ لا. هي حالة تحتاج إلى تشخيص.

عندما عاد الدكتور جوزيف، بدأت أدور من حوله لا أدري كيف كنت أفكِّر وقتها، في حالة جنون حقيقيَّة. فجأة، كأنَّ قوَّة مثل الموجة العاصفة، رمتني على سكِّينة الخبز. وحاولت أن أغرسها في رقبته، لكنَّ الرأس الدائريّ للسكِّينة منحه حياة أخرى، إذ تمكَّن من لوي يدي وراء ظهري، وأنا أصرخ بأعلى صوتي، لكنِّي تمكَّنت من سماع صوت الجيران وهم يتشكُّون:

ـ إذا ما قدرتوا تخرّسوا هاي المجنونة، سنطلب الإسعافات لأخذها للعصفوريَّة.

وجعني قلبي.

بصقتُ، ضربت رأسي على الجدار حتى أدميته.

كنتُ مكتَّفةً وأصرخ حتى انتابني دُوار نمتُ على أثره، أو على الحقنة التي وضعوها لي.

ـ ليش تعمل فيني هيك يا جوزي. حرام عليك. شو عملت لك؟ الدكتور ميلر أو جورج؟

أضربت عن الأكل، ليس فقط احتجاجًا على عدم السماح لي بالعودة إلى مصر، ولكن أيضًا خوفًا من أن يدسُّوا لي سُمًّا في الطعام، ورفضًا للفظائع التي كانت تُمارَسُ ضدِّي في كلِّ لحظة. حتى مصوغاتي الخفيفة التي جئت بها من القاهرة، سرقوها منِّي واتَّهموني بالجنون، وأنَّ لا أحد في العائلة رآني ألبسها. كلّ شيء قبلت به واستسلمت للقدر المحتوم إلَّا عِقد أمِّي. كان كلّ ميراثي منها. كلَّما رأيته أو لمسته شممتُ رائحتها رأيت شبابَها الحيّ وجمالَها. وعلى تشريدي من بيتي، والحَجْر على مالي وحرِّيَّتي إذ لم يعد لي أيُّ حقٍّ في الحياة. كنت عبارة عن كتلة تتنفَّس بصعوبة، موجودة على هذه الأرض إلى أن تأتي ريح عنيفة، فتكنسَها كما كنست الذين من قبلها.

تكرَّرت النوبات معي بشكل متواتر ومخيف. بدأت تنتابني الرغبة في الانتحار. بل إنّ أبواب جهنَّم كانت تنفتح أمامي بسرعة كلَّما اشتعلت حرائقي في داخلي، وبدأت هشاشتي تتَّسع حتى تحوَّلت إلى خطر عليَّ. بدأت أخاف من الموت الذي لم يكن يعني لي الشيء الكثير. حائطي الوحيد المتبقِّي جوزي. لا أدري كيف أدخلت ذلك كلَّه في رأسي بلا أسئلة. ولولا خوفي ممَّا تعلَّمته مع الراهبات

اليوسفيَّات، وراهباتِ عينطورة، ورغبتي المجنونة في فضح عائلتي التي قهرتني، كنت أنهيت علاقتي بالحياة وارتحت نهائيًّا.

بعد وفاة أمِّي، وقفت في لندن في وسط جسر التايمز. فكَّرت طويلًا في التسلُّق والرميِ بنفسي في الفراغ، لكنَّ لحظة الموت غرقًا أرعبتني. فواصلت تدحرجي وأن أطلب من الله أن يمنحني بعض القوَّة لأستمرَّ في الحياة من دون أمِّي.

ذات صباح، أشرقتْ شمسُه مبكرًا، رأيتها من وراء زجاج النافذة التي تفتح على باحة الدار. سمعت دقًّا على الباب. طبعًا ليس من حقِّي أن أفتح أيّ باب أو نافذة تُطلُّ على الحديقة، لا يحقّ لي استقبالُ أيّ شخص خارج أفراد العائلة وأنسبائي. خرج جوزيف وكان بلباسه الرسميّ الأنيق، الطقم الكحليّ الذي اشتهيته دائمًا عليه، وكأنَّه كان على موعد مع شخص مهمٍّ. فتح الباب. من عادات جوزيف أن يرتدي لباسًا رياضيًّا عندما يكون في البيت.

فتح الباب. دخل رجل يلبس الأبيض برفقة سيِّدة سمينة تلبس الأبيض أيضًا. أدركت بحاسَّة شمِّي الحيوانيَّة، أنَّهم جاؤوا من أجلي بعد أن اختصرتُ عليهم اللعبة التي مارسوها ضدِّي. وأنا أفتح النافذة قليلًا بشكل موارب، سمعت فقط كلمة جاهزين، وردّ الدكتور: نعم يا حكيم. جاهزين.

ـ أين هي؟

ـ بالداخل. بغرفتها.

ـ أخشى أن تهرب من الجهة الثانية.

ـ نوافذ غرفتها مغلقة ومصفَّدة، بقِطَع حديديَّة سميكة.

ـ ممتاز. هل أقنعتها.

ـ أنت تعرف يا دكتور. كيف يمكن إقناع مجنونة.

لحظتها سقط يوسف درجة ثانية. رأيته يتهاوى بعد أن تحوَّل إلى غبار رماديٍّ.

رأيت المشهد كاملًا. شممتُ من بعيد، كحيوان متوحِّش، مخاطرَه. التفتُّ بسرعة نحو محيطي، أتفحَّص أسلحتي المتوفِّرة. ركضت بسرعة في كلّ الاتِّجاهات. حاولت أن أغلق الباب بكلِّ قواي، كلّ المفاتيح في أمكنتها إلَّا غرفتي لا مفتاح فيها، فقد نُزع قفلها بالكامل، فأصبحتْ مساحةً مستباحة. سحبت الطاولة الكبيرة، والكرسيَّ القديم، لا أدري كيف منحني الربّ تلك القوَّةَ الاستثنائيَّة التي لم أعهدها في نفسي، على حمله ووضعه على الطاولة لأدعِّم به الباب من جديد، على الرَّغم من ثقله الكبير. حتى النافذة المغلقة كانت مسدودة نهائيًّا بقطع الحديد وكأنَّها كوَّة سجين خطير، بعد أن نزع منها العامل الذي جاء به يوسف، مقبضَها الحديديَّ. لا حيلة لي إلَّا تدعيم الباب. وبدأت أصرخ بأعلى صوتي: أنقذووووني يا عاااالم، إنَّهم يريدون قتلي. وكنت أعرف أنَّ الجيران وهم أبناء عمومة، سيكرِّرون الكلام نفسه الذي سمعتُه منذ أن وضعت قدميَّ في هذا البيت:

ـ مو معقول؟ هالمجنونة ما بتنام وما تترك حدا ينام؟

سمعت همس جوزيف من وراء الباب، بعد أن جرَّب عبثًا فتحَه:

ـ مي، حبيبتي، تعرفين أنّي بحبّك. وكلّنا بهالبيت نحبّك. الطبيب يريد فحصك لا أكثر. افتحي يا قلبي، نحنا ما نحبّ لك إلّا الخير. يا الله يا روحي، افتحي، الناس بيضحكوا علينا.

صرخت بكلّ ما أملك من قوّة.

ـ أنت أكثر إجرامًا من الكلّ، لأنّك جررتني إلى هذا العفن.

ـ كلّه كان بطلب منك. نسيت الرسالة؟

ـ بس ما قلت لك اقتلني. والحَجْر والاستيلاء على كلّ ممتلكاتي؟ يا الله كيف امتلكت هذه الجرأة لتدميري؟

ـ لحمايتك. النصّابون في هذا الزمن كُثُر يا روحي.

ـ اتركني أعود لبيتي في القاهرة أرجوووووك. لن أطالبك بشيء.

ـ منشان هيك حضر الطبيب، وممرِّضته لفحصك والاطمئنان عليك. بعدها تروحي وين ما بدِّك.

ـ Tu n'es qu'un monstre, pire que les autres.

ثم اندفعوا كلّهم بعد أن وحّدوا كلّ قواهم، فدخلوا إلى الغرفة. سقط الكرسيّ، وسقطت الطاولة. لم أَرَ إلّا أرجلهم وهي تتحرَّك بسرعة، وأنفاسَهم وهي تتقطّع كما في فيلم رعب. كنت تحت الطاولة الصغيرة، في الزاوية. رآني جوزيف، فجرجرني من رجلي بيدين فولاذيّتين، فقدتا كلّ نعومة. لم أصدِّق على الرَّغم من علامات الموت التي ارتسمت في كلّ مكان رأيته في تلك اللحظة. أنقذني يا ربِّي ممّا أرى. هل هو الكائنُ نفسُه الذي احتضن وجهي وهو يوشوش في أذني: *حبيبة قلبي أنا هنا. معك حتى آخر العمر، عندما أخذ حقيبة*

سفري المثقلة بالخيبة والخوف والاستسلام له.

وهو يسحبني دفعتُ بالطاولة نحو رأسه بكلّ عنف، فأدمت خدَّه الأيسر وجبهته. لو كنت قادرة على قتله، لما تردَّدتُ ثانية واحدة. انفلتُّ منه ورحت وراء الخزانة الخشبيَّة التي دفعتها بكلّ قواي لتسقط بكلِّ ثقلها. كادت تقتل الممرِّضة البدينة لولا تدخُّل الطبيب الذي كان أكثرَ رشاقة، فسحبها قليلًا إلى الوراء. لو فقط كانت بيدي سكِّينة لما تردَّدت في دفنها في بطن كلّ من يقترب منِّي. مسح جوزيف دم وجهه. أصبحتْ فجأة عيناه حمراوين كعينَيْ قاتل يستعدّ للفعل. عندما رأى الدم يسيل، زاد هياجُه كثور جريح. حمل مزهريَّة، لا أدري كيف وقعت بين يديه، وهو يغلي: *اليوم راح أقتلك يا مجنونة*. منذ تلك اللحظة نسيت أنِّي موجودة، فقد امتدَّت كلّ الأيادي نحوي لتمزِّقني. في ثانية واحدة، أصبح جسدي مستباحًا، وأصبحتُ امرأةً بين يَدَيْ قَدَر لم يكن لها عليه أيُّ سلطان.

أُصبتُ بدوار، عندما ضربني جوزيف على رأسي، وجرَّني من شعري ورماني بين يدي الطبيب والممرِّضة. الكلّ كان متشبِّثًا بجسد منهَك، لم يعد قادرًا حتى على الدفاع عن نفسه.

ثلاثة كانوا، ضدَّ امرأة واحدة ووحيدة. كنت داخل فراغ شبيه بدُوار الموت. هل التي كانت بين أيديهم الحديديَّة كانت هي مي، الكاتبةَ المعشوقةَ من عشرات الرجال، المرأةَ الأنيقة التي تختار كلماتها، وجملَها، وألبستَها، ومكياجَها أم كائنًا آخر، من كوكب غير معلوم؟ حقيقة شعرت كأنَّهم ذئاب كانت تفترسني أمام الجميع ولا من يحرِّك يده.

ضاقت أنفاسي وشعرت بالاختناق عندما جثمتْ عليّ الممرِّضةُ الثقيلة الوزن، ذاتُ الأنف المفلطح الذي يشبه أنف خنزير، والفم الواسع، كفم حيوان أسطوريٍّ. ثم كتَّفني طبيبُ العصفوريَّة كشاةٍ مُعَدَّة للنَّحْر، بمساعدة جوزيف قبل أن ينهمك في مسح الدم بسبب الفتحة التي تسبَّب فيها رأسُ الطاولة التي دفعت بها بعنف تجاهه. عندما سحبني من شعري ورماني أرضًا، رأيت الحيوان الذي كان مخفيًّا فيه. انسحب نهائيًّا جوزيفُ الطيِّبُ والرشيق، الذي كنت أعرف، وحلّ محلّه حيوانٌ خرافيّ. استسلمت للأرضيَّة الباردة، شعرت بعدها كأنَّه كان يغتصبني. يخترق غشاوتي ولحمي وأنا أصرخ بأعلى ما أملك من قوَّة *أنقذووووني. يا ربِّي أرجوووووك لا تتخلَّ عنِّي.* وكان من الصعب عليَّ تحمُّلُ الألم في أسفل بطني. في النهاية استسلمت لهم بسبب الدُّوار الذي حوَّل الأشكال البشريَّة الثلاثة إلى هلامات متداخلة الألوان. شدَّت الممرِّضة على كلّ جسمي، ثم أدخلت ذراعي في جاكيت المجانين، وشدَّت الوثاق بقوَّة على ظهري، لدرجة أنِّي أصبحت مثل الزواحف، لست قادرة على فعل أيّ شيء. قبل أن تغرس في لحمي الحيّ، إبرةُ مورفين خشنةٌ كتلك التي تُعطى للحيوانات الهائجة. كان الألم قاسيًا وعميقًا.

أقسى شيء يشعر به المرء هو أن يرى المدينة التي دافع عنها باستماتةٍ، غيرَ مكترثة بما كان يحدث له، أو هي تُقاد إلى جحيم العصفوريَّة تحت رحمة قَتَلة، بألبسة مدنيَّة وطبِّيَّة. وطبيب عيناه تشبهان عيني قطٍّ روسيٍّ. تمتمت وأنا أستجمع كلّ قواي بعد أن ثقل لساني:

ـ أرجوك يا جوزيف. توقَّف عن هذا. ابعثْ لي حقيبتي الصغيرة. لا يوجد فيها أيّ شيء ثمين سوى بعض الأوراق والرسائل.

حتى الحليُّ الموجودة فيها أخذتموها. بس حقيبتي وأوراقي، مسامحة في كلّ شيء.

رأيت أو تخيَّلت ذلك، وجهه وهو يتمايل، ورأسه وهو يهتزّ صعودًا ونزولًا بثقل، أن نعم.

وأنا أستسلم لهم، مربوطة كلّيا، في حالة دُوار سرق منّي جسدي وتفكيري، تقيَّأتُ وكدت أختنق.

شعرت فجأة بلا جدوى المقاومة، وبتفاهة البشر والعالم والثقافة التي نملكها. شعور لم أحسّ به من قبل أبدًا، حتى في أكثر الظروف يأسًا. أيّ واحد فينا يمكن أن يُحوَّل في ثانية واحدة إلى لا شيء. غبار. وهم. وهم يجرُّونني نحو سيَّارة الإسعاف المغلَقة كصندوق حديديّ يشبه قبرًا حديديًّا متنقِّلًا، حتى لا يزعج صراخي راحةَ البيروتيِّين النائمين في سكينة.

كنت أشعر بوحدة قاسية رهيبة، وأرى القدر المروّع المُعَدّ لي من دون أن أدري لماذا، سوى الطمع والجشع.

هل حقيقةً جاء جوزيف ليساعدني في مصيبتي؟ أم أنَّه هرع ليكتشف أعمالي؟ ويقف على سرائر مصالحي وشؤوني فيستولي على كلِّ شيء في حياتي؟ غبيَّة أنا أن ظننت أنِّي امرأة فوق أيّ شبهة؟ وأنِّي أصبحت فوق الصغائر. في النهاية لست إلَّا امرأةً صغيرة، سَقْطَ متاع أمام ذكورة متجبِّرة وقوانينها. فيمَ نفعتني ثقافتي في عمق عفن الطمع والكراهية؟ لا شيء. ماذا يعني أن تكون مثقَّفًا في مجتمع يشرب التخلُّف في كلّ ثانية، ويأكل نفسه بلا توقُّف؟

أغمضتُ عيني. ارتخى جسدي. جمد لساني. كانت المورفين

وحرائقُ الخيبة قد فعلت فعلها.

أصبحتُ لا شيء.

أقلّ من لا شيء؟

ـ ٥ ـ

كنت وحيدة أمام الفراغ، بعد أن تخلّى الله عنّي وتركني أواجه مصيرًا صنعوه لي.

على مدار الأسبوع رفضت كلّ شيء. الأكل والشرب والحديث. صرخت كثيرًا حتى جفَّ حلقي قبل أن يفحصوني.

كنت أصرخ كالمجنونة وأتحمَّل عنفَهم في إطعامي. أعيش مع أشباحي التي لا رحمة لديها. أقوم في منتصف الليل وأنا أتحسَّس عنقي من شدَّة الاختناق. حربي كبيرة في كلّ ليلة مع المجنونات اللواتي يفتحن أفواهَهنَّ وعيونَهنَّ عن آخرها لتخويفي أو ربَّما كانت تلك حالتهم. أصرخ حتى وأنا نائمة حتى أقوم مذعورة. أتحسَّس قفل الغرفة. والنوافذ. أشعر بالحرارة القاسية لكنَّني لا أتجرَّأ على فتح النوافذ التي تُطلُّ على الأشجار والحديقة الواسعة والأشجار الكثيفة التي تعبق برائحة الأَرْز.

جالسةٌ على كرسيٍّ كسجينة في مخفر الشرطة.

كنت منهَكة وضعيفة، ومقاومتي انهارت كلّيًا. لم أكن أنا. كنتُ شيئًا آخرَ إلّا أنا.

ينقلونني من مكان لمكان برباط الجاكيت، مع أنَّهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك. أترجَّاهم لكن من دون جدوى.

قالت الممرِّضة الخشنة، مدام شوكي وهي تنظر إلى عينَيّ، وفي يدها حقنةُ المورفين:

ـ الآن سننزل إلى مستر ميلر لفحصك ومعرفة وضعك. المفروض أن تكوني عاقلة. ألم تطلبي هذا؟

ـ أنتم تكذبون عليَّ. تريدون قتلي.

وبدأت أصرخ ولا أتحكَّم في حركاتي حتى أُصاب بالدُّوار كما العادة، بعد حقنة المورفين التي تجعلني كائنًا شبهَ ميِّت.

كنت منهَكة جدًّا ولم أكن قادرة على التفريق بين من يريد لي الخير ومن يريد تدميري.

لا أدري إذا كان مفعول التخدير الثقيل هو السبب، أم القرصُ الذي أُجبرت على تناوله بعد أن فتحوا فمي بالقوَّة. عندما أدخلوني على الدكتور ميلر في البناية الرئيسيَّة، في العصفوريَّة، كنت منهَكَةً.

تلمَّسَ وجهيَ وصدريَ وتحتَ ذقني، بظاهر يده اليمنى. هزّ رأسه.

ـ Mmmm good.

رأسي ما يزال ثقيلًا. الدُّوار لم ينتهِ. لكنِّي شعرت ببعض الإنعاش وأنا أشمّ رائحة خاصَّة. كانت كأنَّها مزيج بين الكحول. والزعفران وياسمين الناصرة المركَّز، الذي يُتقن صنعَه سكَّانُ المدينة القديمة.

ـ حرِّروها. تبدو مسالمةً.

حرَّرتني الممرِّضة من جاكيت القيد الذي وضعوني فيه لاتِّقاء

شرِّي. فتحت عينَيَّ بتثاقل وصعوبة.

قال الطبيب وهو يمدِّدني على سرير معدنيٍّ.

ـ مفعول المورفين دكتور ميلر.

ـ نعم. أفترض هذا. إذا أبدت أيَّ عنف، مقاومة، أعيدوا لها الجاكيت.

كان صوت الدكتور ميلر مريحًا قليلًا، يتماهى بهدوء مع العطر الذي كنت أشمّه، يأتي من مكان ما. بدا لي وجهه أكثر أمانًا من الآخرين. شيء في كلامه يورث الكثيرَ من الأمان.

في البداية عندما أفقت أوَّلَ مرَّة وجدتُني داخل غرفة مغلقة، بلا نوافذ، ما عدا كوَّة صغيرة في الأعلى؟ تخرج أو تدخل منها، روائحُ غريبة هي خليط من الأدوية، والحشائش العفنة، وبول الفئران. أبوابها من حديد تُسمَّى غرفة التحضير والاستقبال لقياس درجة الجنون، واختيار الجناح المناسب له للفحص والإدخال، حتى لا يوضع الجميعُ في مكان واحد. كنت مستسلمة لهم وكان عليّ أن أثبت خطأ تواجدي في هذا المكان. على الرَّغم من أنِّي صرخت كثيرًا، ربَّما سمعني مَن يرفع الظلم عنِّي، لكن لا أحد. لم أقبل بالجنون لأنِّي لم أكن كذلك. أقصى الأحوال، هشاشة جسديَّة بسبب الإضراب عن الأكل. انهيار عصبيٌّ جرَّاء الفقدان والخيبة، وهذا بسيط ولا يزعج أحدًا في المستشفى. أحد أطبَّائي من الذين زرتهم في القاهرة، قال لي بأنَّه عندي حالة شيزوفرينيا حادَّة، لكنِّي لم آخذ كلامه بجدِّيَّة، فأنا سيِّدةُ حركتي، وأعرف ماذا أريد، ويحدث معي أن أنزعج لكن لاازدواجيَّة لي. كلّ هذا تذكَّرته وأنا أصرخ بأعلى جرحي: أنتم مخطئون. لست

مجنونة. اسألوني. أرجوكم. لم يسألني أحدٌ طبعًا.

قالت الممرِّضة الكبيرة لحظتها:

ـ نُنزلك تحت عند الدكتور ميلر هو سيِّدُ القرار.

ـ سيعرف الحقيقة ويتركني مع حالي، أعود إلى القاهرة.

ـ ليس بهذه السهولة؟

ـ الطبيب الكبير الذي جاء بك من بيت أهلك، يقول إنَّك وصلتِ إلى درجة عُليا من الجنون، وإنَّك ستُجَنّين نهائيًّا إذا استمرَّ الأمر معك على هذه الحال، وإنَّ مكانك الطبيعيّ هو العصفوريَّة.

فقد أظهر لي الدكتور ميلر تفهُّمه لِما كنت أعانيه. فقد أجبت عن أسئلته الكثيرة بنجاح كبير. كنت أقرأ في عينيه تساؤلات لم يكن قادرًا على قولها صراحة. لكنِّي شعرت بالفعل أنَّه كان بصدد اكتشاف مخاطر اللعبة التي مُورست ضدِّي.

سؤاله لم يكن بريئًا:

ـ صحَّتك طيِّبة، باستثناء تعبك العام وهذا راجع لعدم الأكل بشكل طبيعيّ.

ـ لا آكل لأنَّ أهلي يريدون تسميمي.

ـ مَنْ أهلُك؟

ـ أبناءُ عمومتي وأنسبائي.

ـ لماذا يتَّهمونك بالجنون.

ـ يا دكتور قد أبدو حقيقة مجنونةً. افتح لي مخّك قليلًا. يريدون

الاستيلاء على ميراثي. يمكنكم أن تبعثوا مَن يستقصي الحقيقة. الطمع يا دكتور. الطمع الكبير. كان يمكن أن يقتلوني.

ـ هل وجدتِ شيئًا مسمومًا في أكلك؟

ـ كنت حذرة منهم فقط لأنِّي كنت أسمع محاولاتهم التخلُّصَ منِّي لأنِّي كنت عائقًا بينهم وبين الثروة.

ـ ابن عمّك يقول إنَّك أنت مَن طلبت منه المساعدة، وكلّ شيء تمَّ برضاك.

ـ هل هذا وضعُ امرأة راضيةٍ بأن تُزَجَّ في العصفوريَّة؟

ـ لا طبعًا.

سمعت أصداء صوت البيانو تأتي من مكان قريب. كان ناعمًا. عرفت أنَّ المقطوعة لشوپان. عندها استرجعت تفكيري، فتحت عيني أكثر. وبدأت أكتشف تفاصيل المكان. كراسيّ في شكل فوضويّ. مكتب قديم، وطبيب يجلس قبالة سريري المعدنيّ. ميلر. جورج المستشرق الوهميّ. تأمَّلني للحظات، عرفته منذ اللحظة الأولى من صوته أكثر من وجهه الذي نزع لحيته. ثم سألني على خلفيَّة نقرات پيانو كانت تأتي من قاعة ما، لم تكن بعيدة:

ـ منشغلة بالپيانو أكثر من كلامي. تُجيدين العزف على الپيانو؟

لا أدري إذا كان سؤال الدكتور ميلر عفويًّا وبريئًا، أم كان يريد من ورائه شيئًا آخر؟

ـ شوپان. طبعًا يا دكتور أعزف. ميلر أو المستشرق جورج، كما تشاء، هو شيء مهمٌّ في حياتي. كنت أحبّه حتى وأنا في عينطورة. لا

بدَّ من أن يكون جوزيف قد حكى لك عن كلّ شيء. هو يعرفني بكلّ تفاصيلي حتى الحميميَّةِ منها. الصداقة بينكما تسمح له بذلك.

ـ ههههه. مع أنِّي نزعت لحيتي، عرفتِ أنِّي لست المستشرق المعجب بالشعر الأنجلوساكسوني؟ مع أنَّ حبِّي للشعر حقيقيّ. طيِّب. هل تريدين شيئًا بعينه؟

ـ لماذا فعلتَ هذا يا دكتور؟

ـ كنت أريد أن أعرف حقيقة مرضك. أفعل هذا مع مرضاي. أتفهَّمك.

ـ وما خلاصتُك؟

ـ لم أستقرَّ بعد. تحتاجين فقط إلى حالة استشفاء في العصفوريَّة لمعرفة وضعك عن قرب. ووضعك تحت الرقابة. هذا لا يعني أنَّك مجنونة ولكن تحتاجين إلى عناية أكبر.

ـ طيِّب يا دكتور ميلر. فهمت. كيف تجدني الآن؟

ـ الآن، وضعك جيِّد. لا مشكلة. أوضاعك متغيِّرة بحسب النفسيَّة وهذا موجود عند الكثيرين، لا يعرفه حتى المريض. لهذا إقامتُك هنا ضروريَّة. تحتاجين إلى فحوصات كثيرة ضروريَّة.

ـ مفهوم دكتور.

ـ أين تعلَّمت العزف على البيانو؟

ـ عند الأخوات اليوسفيَّات في الناصرة وعند أخوات عينطورة.

ـ وماذا تعلَّمت؟

ـ عزف موزارت على البيانو. كانت تعجبني سيمفونيَّاته. ولكن ليس وحده. كارمن سيلفا أيضًا، وغيرها.

رأيت بعض الحيرة والإرباك على وجه الطبيب، كأنَّ إجاباتي لم تُرْضِه في النهاية. كان ينتظر منِّي شيئًا آخر.

صمت قليلًا ثم سرعان ما عاد إلى سؤاله.

ـ هل تذكرين سببًا لوجودك هنا في العصفوريَّة.

ـ ولا أيّ سبب، لكنَّك أَعْرَفُ منِّي يا دكتور. ابن عمِّي جوزيف الذي تعرفه هو السبب.

ـ الجيران تحدَّثوا كثيرًا عن نوباتك العنيفة؟ تظنِّين أنَّك غيرُ مريضة وأنَّ وجودَك هنا غيرُ مبرَّر؟

ـ لا. مُصابة بحالة اكتئاب منذ وفاة أمِّي، وهو ما يغيِّر مزاجي ويدفعني أحيانًا إلى تمنِّي الموت والعزلة.

لم يكن لديَّ ما أقوله. كنت أشعر أنَّ داخلي كلّه رمادٌ، وبقايا صخور بركانيَّة محترقة، وحممٌ متيبِّسة. لم يحكِ كثيرًا، لكن كانت لديه صورةٌ عنِّي، صنعها له جوزيف كما اشتهاها للتخلُّص منِّي. لكن كلامه أعاد لي بعضَ الأمل في الحياة.

صمتُّ طويلًا قبل أن أُجيبه، بينما ظلّ ينتظر ردَّة فعلي ويسجِّل عنِّي الملاحظات.

ـ مجنونة بوهم اسمه الكتابة. صحيح أنَّه منذ وفاة أمِّي أُصبتُ بحالة انهيار كبيرة. لكنِّي لم أكن في أيّ يوم من الأيَّام مجنونةً تتعدَّى على الناس. أشعر بأنِّي مظلومة جدًّا. مشكلتي مع جوزيف ليست

الجنون ولكن مشكلة اعتداء على حقوق ليست له. لست مجنونة. مُصابة بقرحة في القلب.

ضحك الدكتور بشيء من الخبث، ارتسم على ملامحه:

ـ على كلٍّ، لم أستقبل في أيِّ يوم من الأيَّام مريضًا نفسيًّا ولم يقل لي إنَّه ليس مجنونًا؟ أتفهَّم موقفك. هناك قاعدة. بقدر ما يعترف الإنسان بمرضه، إمكانيَّة شفائه تصبح سهلة وقريبة. إضرابك عن الطعام، أليس انتحارًا وجنونًا؟ انتحار لا جدوى من ورائه.

ـ لا يا دكتور. أنا مجرَّدة من أيّ سلاح، وأريد أن أرفع الظلم عن نفسي ما دام الكلّ تواطأ ضدِّي. أنا مضربة عن الطعام، فقط ليعرف أطبَّاء هذا المكان أنِّي مظلومة. ما أقوله صحيح. هل تراني الآن وأنا أمامك أنِّي مجنونة؟ انهرتُ لفقدان أمِّي وأبي ومَن أحبّ، ووجدتني وحيدة. الانهيار يمكن أن يُشفى.

ـ شرط الاقتناع والمداومة على الدواء وإلَّا سيستفحل الأمر وتجدين نفسك في الضفَّة الأخرى، وقتها يصبح من المستحيل شفاؤك.

نظر إلى عيني عميقًا كأنَّه كان يريد أن يتوغَّل عميقًا فيهما.

ـ ممكن أسمع قصَّة جوزيف بالتفصيل. أنت من دعاه لنجدتك؟

ـ نعم، لكنَّه في النهاية استعمل ضعفي وثقتي العمياء فيه ليقتلني على طريقته.

وحكيت له قصَّة ابن عمِّي جوزيف بكلِّ تفاصيلها المملَّة. قصَّة لا تشرِّف العائلةَ التي كانت من وراء كلّ ما حدث. العائلة خسرت كلّ

شيء وأعادتني إلى سؤال البداية: ماذا أساوي كامرأة أمام ذكورة متخلِّفة، حتى ولو كان مستواي عاليًا؟ كنت أظنّ أنَّ هذا لن يحدث إلَّا للأُخريات، وها أنا ذي أواجه الكابوس نفسه. لا فرق بيني وبين أيَّة امرأة عاديَّة، بل حتى دون العاديَّة. يكفي أن يكون المرء امرأة، ليُجرَّد كلِّيًّا من عقله وذكائه.

لم أكن مرتاحة كثيرًا للدكتور ميلر، لكنَّ الغريب أنَّه كان لطيفًا معي، ورأيت في عينيه، في لحظة من اللحظات، شيئًا من النور والعطف، فتحا قلبي للحديث معه على الرَّغم من خوفي وخشيتي منه، أن يكون خاتمًا بأصابع جوزيف.

لم يُعطني هذا الانطباعَ.

أكثر من ذلك، شعرت به كأنَّه كان يختبرني نفسيًّا ويناقشني حقيقة، ويدرس ردود أفعالي عن قرب.

عندما انتهى مفعول المورفين ومشتقَّاتها نهائيًّا، اتَّضحت الرؤية شيئًا فشيئًا، وبدت لي الوجوه أكثر وضوحًا.

ـ سعيد أنَّك استجبت لكلّ الامتحانات. وضعك أفضل.

أرى الأشجار الكثيرة من وراء المنافذ الواسعة. أنساني كلِّيًّا في هذا الفراغ الأخضر وأحاول أن أنسى حيطانَ المكان التي تذكِّرني بالجنون. هل بُنيت العصفوريَّةُ حقيقةً لتكون مأوًى لمجانين؟ لا أعتقد. المكان واسع ويذكِّر بالمنتجعات الكبيرة للراحة، وبأناقة الجامعة الأميركيَّة التي احتضنتني بحبٍّ. استقبلتني في الفترات الصعبة جدًّا.

انتابتني رغبة كبيرة في العزف، لكنِّي خفت من ردَّة فعل الطبيب،

فيعتبرني مجنونة. كنت أُدرك أنَّه كان بصدد اختبار أيَّة حركة فيّ. يختبر عقلي وقوَّته التفكيريَّة. أنا أيضًا كنت أريده أن يعرف أنَّ المرأة التي تقف أمامه، ليست فقط عاقلة، ولكنَّها تعرف كيف تتذوَّق الحياة والموسيقى. اشتهيت أن أعزف مقطوعة كلاسيكيَّة وأتركني أنام في دُوارها. وَلْيَذُبْ وليتبعثرْ في الفراغ نهائيًّا، هذا الرمادُ الذي يملأ قلبي، لكنِّي أعرف سلفًا أنَّ مَلامس البيانو لا تُسعف أصابعي المتعبةَ والمرتجفة، ربَّما بسبب الجوع والأدوية والمسكِّنات. رؤوس أصابعي تؤلمني.

خسرت وقتًا طويلًا لأُقنع الناس بسلامة عقلي لكن عبثًا. أقرأ في عيون بعضهم بعدَ حديث طويل بمن في ذلك أهلي، الناسُ هنا، بعضَ الخوف منِّي، وربَّما تعاطفًا مع مجنونة مسكينة، مع أنِّي ضحيَّة جريمة موصوفة. لا أحد يفكِّر.

عندما أعادوني إلى غرفتي، استقبلتني الممرِّضة بلوهارت. كان وجهها دافئًا كغيمة. عندما اقتربت منِّي، ومسَّت يدي، ابتسمت. شعرت برغبة كبيرة للنوم والاستكانة. في كفِّها الكثيرُ من الحبِّ. انتبهت لأصابعها الناعمة. تمتمت وهي تمدِّدني على سرير الفحص، وتأتيني بغطاء خفيف.

ـ كيفك حبيبتي هلَّأ؟ وضعك يتحسَّن. كلّها أيَّام وتغادرين هذا البؤس.

ـ أطبَّاؤكم طيِّبون، ما عدا الذي عنَّفني قليلًا في بيت جوزيف. ربَّما لأنِّي كنت عنيفة أيضًا.

ـ هو لم يعنِّفك. أنت لم تستسلمي لهم بسهولة. ما راح أثقل

عليك، أنت أكيد متعبة وتريدين أن تنامي. احكي لي شوي إذا أحببتِ، أنا هنا لأسمعك.

ـ هل أحكي لك عن مي العاقلة أم المجنونة؟ أنا اثنتان في واحدة.

ـ آنسة مي. أنا لا أعرف إلَّا العاقلةَ. المرأة الكبيرة التي حضرت محاضراتها في الجامعة الأميركيَّة قبل سنوات عديدة، وقرأت نصوصها. كلّ ما كتبته.

ـ كم تُعيدين لي الحياة. أيَّة محاضرة؟

ـ التي ألقيتها على طلبة الجامعة الأميركيَّة بعد ظهر الثلاثاء، ٣١ أكتوبر ١٩٢٢، في منتدى ويست هول. كان عنوانها: ***هو ذا الرجل***. كانت عن أميركا ودورها الخضاريّ. أتذكَّر أنَّك حكيتِ بخير كبير عن اكتشاف العالم الجديد والعظيم، ولم تذكري أنَّ كريستوف كولومبس غيَّر نظام العالم المستقرّ كلِّيًّا ودفع به نحو مغامرة ما زلنا إلى اليوم ندفع ثمنها. كان وراء تشريد أكثر الشعوب ترسُّخًا بالأرض، الهنود الحمر. وظللت أحكي مع صديقتي: كيف لامرأة عظيمة وذكيَّة مثل مي، تقفز فوق هذا؟

ـ والله يبدو أنَّك أكثر من ممرِّضة هههه.

ـ أنا بلوهارت، ممرِّضة رئيسيَّة هنا. وأعرف قيمتك الكبيرة.

ـ كنت متحمِّسة للنموذج الأميركي وما زلت، في التحوُّل، وأنا على يقين من أنَّ الشرق يحتاج إلى هزَّة شبيهة. لكنَّ التدمير الذي تسبَّب فيه كريستوف كولومبس كان كبيرًا أيضًا، معك حقّ.

ـ المهمّ خلّينا نرجع لوضعيّتك؟ كيف انطلَتْ على واحدة مثقّفة مثلك، حيلةُ يوسف (جوزيف)؟

ـ تعرفين القصّة إذن يا بلوهارت.

ـ قرأت عنها في جريدة المكشوف. لقد فضحتْ كلّ شيء وهي تناصرك. ومديرها المحامي فؤاد حبيش، متحمّسٌ جدًّا لك، ويفضح الظلم الذي مورس ضدّك، على العكس من الجرائد الأخرى التي اعتبرتك مجنونة وانتهى.

ـ ماذا أقول يا بلوهارت؟ كلّ شيء بدأ برسالة ألعنها اليوم وألعن سذاجتي التي ورّطتني. كنت أنتظره. بعثت له برسالة نجدة، فقد كان جوزيف الأقرب إلى قلبي. لا أدري كيف سلّمته نفسي بلا أسئلة. ربّما هذا من معاصي الطفولة التي تستمرّ فينا بقوّة حتى آخر يوم. دخل عليَّ وهو يحمل كومة جرائد. ضمّني إلى صدره، وكم كنت في حاجة ماسّة إلى دفئه وفرنسيّته الأنيقة. له قوّةُ جاذبيّة لا يمكن لأيّة امرأة أن تقاومها. قال لي: تعالي يا مي. الكلّ ينتظرك هناك، في بيروت. الأهل لا ينامون. يتناوبون على انتظارك. ضيعتُك شحتول تنتظرك. رائحةُ والدك وعبقُ طفولتك ونداءاتُ أمّك، هناك. أنت متعَبة ويجب أن ترتاحي. لا يمكن لأهل زيادة أن يتخلّوا عن ابنتهم. قلت له يومها بلا خجل ولا حساب لردّة فعله: الذين تعوّدوا على انتظاري ماتوا. والأحياء نسوني. ومن بقي منهم ينتظر موتي لينقضّ على جثّتي.

ـ وكيف كانت ردّةُ فعله.

ـ كان أنيقًا كعادته. أخذني من يدي، وسحبني نحوه كمن يتدرّب على رقصة تانغو. شعرت بضعف ما يسري في كلّ مفاصلي. تساءلت

في لحظة الدوار: هل ضيَّعتِ البوصلة يا مي؟ أجبته، بالكاد أنطق الكلمات مقطَّعة: متعَبة يا جوزيف حبيبي. وقَّعتُ لك على ما اشتهيتَ من التوكيلات، ووضعتُ كلِّي بين يديك. اتركني الآن أَعُدْ إلى قلبي وروحي وعقلي. كم أشتهي عزف ***السوناتا الشقيَّة***. هي آخر ما ادَّخرته. لم يبق لي شيء إلَّا ظلالُ الموتى ولغةٌ صامتة تحترق في أعماقي مثل القشّ الناشف. متعبة جدًّا حبيبي ولا أملك أيَّة قوَّة. فجأة تحوَّلت إلى ظلٍّ أبيض، مثل غيمة صيف، تسير بعمًى في أثر جوزيف، أو هو من كان يجرّني نحو محطَّة الموت، التي لم تكن بعيدة عن بيتي، وفراشي، ووسادتي.

جوزيف كان قاتلي ومقتلي من دمي.

جاءني من بيروت لأنِّي احتجته، وليخفِّف عليَّ مصيبتي التي أنهكتني. أن تفقد دفعة واحدة ثلاثة منك، مصيبة ما بعدها مصيبة. لم يكن لطيفًا كما تعوَّد أن يفعل، فقد حمَّلني كلّ شرور الدنيا بما في ذلك وضعُه العائلي المتأزِّم جدًّا. في الحقيقة هرع إليَّ ليستكشف أعمالي وأموالي وأمكنتها المختلفة، في لبنان، مصر، أوروپا، تحديدًا بريطانيا، ويقف على سرائر مصالحي وشؤوني وعقاراتي التي خسر فيها والدي جزءًا من حياته ليجعلنا مرتاحين. هل يُعقل؟ بدا لي كأنَّ كلّ زيارته كانت مؤسَّسة على كيفيَّة الاستيلاء على كلِّ شيء في حياتي. خاطبني في اليوم الأوَّل عن وكيل يمكن تعيينه للحفاظ على مصالحي. ولأنَّ العاشق أبلهُ، ظللت أقول في داخلي، جوزي حبيبي، لا يمكنه أن يفعل شيئًا قبيحًا. عينه على مصالحي. أجبته مع ذلك بنوع من التحفُّظ، بأنَّه لا أملاك لي في مصر، وأنَّ كلّ أعمالي الماليَّة في لبنان، قليل منها في مصر. وهي منظَّمة تنظيمًا لا يحوجني إلى مساعدة

أحد، لأنَّها ليست بكلّ تلك الضخامة. الغريب، كأنَّه لم يكن ينتظر إلَّا ذلك، جاءني في اليوم الموالي برفقة رجلين من أنسبائي، يتبعهم باشكاتب محكمة عابدين، ووكيله وفتح دفترًا كبيرًا جدًّا. سحب جوزيف قلم حبر، وقدَّمه لي طالبًا منِّي أن أوقِّع في الدفتر فقط، لحمايتي من نفسي. وقَّعت بلا أدنى تردُّد. أيّ تأثير سيطر عليّ في تلك اللحظة؟ كيف لم أعجب لمجيء الباشكاتب من دون أن أستدعيه؟ وكيف لم أرفض التوقيع؟ لست أدري لماذا. لا أملك جوابًا. كلامه بخوفه عليّ من جماعة السوء ومن الكثير من المثقَّفين المنافقين، والنصَّابين الذين يحومون من حولي، يحتِّم عليه هذا الإجراءَ لصالحي. سحب عقلي كلِّيًّا منِّي. فقد زاد في شكوكي ممَّن كانوا يحيطون بي، وأظهر لي تقريبًا كلّ الناس أعداء، يجب تفاديهم. الأمثلة التي قدَّمها لي لم تكن سيِّئة. عزف على خلافاتي الثقافيَّة مع الكثيرين. لم يترك حتى أقربهم إلى قلبي، الدكتور أحمد لطفي السيِّد، الذي ظلَّ معي بقلبه الطيِّب، بينما ابتعد عنِّي طٰه حسين، والعقَّاد، وصادق الرافعي، والإدارة المصريَّة ووضعي العام في مصر، فهل أنت مصريَّة على الرَّغم من جنسيَّتك الثانية؟ ألم تكتبي عن الغريب؟ لسانه شلَّني عن أيَّة حركة.

ـ لا يهمّ. سيصبح ذلك كلّه عبارة عن ماضٍ. وترتاحين. أتركك تنامين.

ـ شكرًا. لأوَّل مرَّة أتكلَّم من كلّ قلبي من دون أن يأمرني أحد، وأنا ما زلت تحت المورفين. شكرًا بلوهارت.

ـ ٦ ـ

ينسحب الربيع بعنف وبغير نظام.

يأتيني الهواء البارد من الفجوات. يبدو أنَّ العصفوريَّة خارج نظام كلّ الفصول. ربيعها يشبه شتاءها.

أسمع صفير الرياح الذي يشبه فحيح الأفاعي.

الخوف يركبني كشبح أسطوريّ ويضغط عليَّ.

قبلت تقريبًا بالقَدَر المشؤوم المسلَّط عليّ. لم أعد أصرخ لكي ينقذني الله. لقد فعل فيّ البشرُ ما أرادوه، على مرأى من جبروته وسلطانه. لم يعد يسمعني مطلقًا. في بيت الجنون، فكَّرتُ في شيء واحد، هو أن أستمرّ بالإصرار على الحياة وشدّ خيوطها بكلِّ حواسِّي وأسناني حتى ولو انكسرت كلّها من شدَّة الضغط عليها، لأنَّ جنوني واندثاري، كان هو هدفهم وشهوتهم الكبرى، وكان عليّ أن أوسِّع كلّ يوم من مرمى نظري، من الغرفة الضيِّقة، حتى الحديقة، حتى البحر الذي لا يظهر منه إلَّا القليل، حتى شوارع المدينة المتخفِّية وراء الأشجار، إلى السماء التي كنت أشكِّل ألوانها كلّ فجر عندما أفتح عيني، وكلّ مساء عندما أتخفَّى تحت بطَّانيَّة أمِّي الرشيقة.

رفضت تناول الدواء لأيَّام متتالية، فقط لأثبت لهم أنَّ عقلي سليم، وأنِّي امرأة طبيعيَّة، وأنَّ ما يحدث ليس جنونًا ولكنَّه شيءٌ آخر اسمُه طمعُ العائلة، بؤسُها. لم يكن أحد قادرًا على فهم ذلك.

خلاياي تتحلَّل. أشعر بالبلادة تسكن داخلي. كلّما حاولت أن أفهم وضعي، وأحاول أن أعقلن الأشياء، توغَّلتُ أكثر في العزلة التي كانت تسرق منِّي حياتي أو ما تبقَّى منها.

لاشعوريًا، بدأت أفكِّر في الانتحار. الحلّ الوحيد الذي كلَّما انغلقت السبل، انتابني كما الغيمةُ الهاربة بلا خوف.

مثل العميان الذين فقدوا أيّ أمل في البصر، أتفرّس الوجوه والحيطان، معتمدةً أكثر على حاسّة شمّي ومَلامسي.

لا أدري ماذا حدث لي البارحة في عزّ النوم؟ صرخت كثيرًا حتى آلمني دماغي وأصبحت حنجرتي مبحوحة، ليس من الألم ولكن من شيء غامض كلّما حاولت فهمه، وجدتُني بعيدة، قبل أن أضرب رأسي على الحائط العديدَ من المرّات لدرجة ارتسام خطٍّ مستقيم من الدم عليه، ثم أُصبتُ بالدوار وغبت نهائيًّا عن الوجود، وأسمع همهمات مدام شوكي، عند رأسي:

ـ مسكينة. لا تتقبَّل جنونها.

ـ مين قال إنَّها مجنونة، لا تظهر عليها أيَّة علامة؟ تبدو صافية لكنَّها تشعر بظلم، فلا أحد استمع إلى شكواها.

ـ فيه حدا عاقل يضرب رأسه على الحائط يا بلوهارت؟ صحيح أنَّ هذه المجنونة لا تشبه بقيَّة المجانين. أحيانًا تقول عنها هي هنا عن طريق الخطأ، لثقافتها وعلمها وصبرها، ونعومة لغتها. وفي أحيان أخرى تُصاب بهستيريا فتتحوَّل إلى وحش كاسر يجب أن يُكبَّل بالجاكيت، حتى لا تؤذي نفسها وبقيَّة المجانين.

ـ بي خوف داخلي من أنَّها مظلومة.

ـ اللي سمَّاك بلوهارت يا سوزان لم يكن مخطئًا. قلبك بسعة البحر. لكنْ حبيبتي، الطِّيبةُ مع المجانين، تؤذيهم أكثر ممَّا تنفعهم، والتساهل يمكن أن يؤدِّي بهم إلى نهاية غير محمودة. التشدُّد معها الآن قد ينقذها في النهاية. شوفي إيزميرالدا كم تحسَّن وضعها؟ دخلت مجنونة بعد أن ارتكبت جريمة ضدَّ زوج يخونها، لم تتحمَّل أفعاله المتكرِّرة جهرًا.

زادت حدَّة الاتِّهامات، جعلتني أتقلَّب في فراشي.

ـ من يوم ما جاء بها ابن عمِّها إلى العصفوريَّة، وأنا عندي شكٌّ في وضعها.

ـ قصدك خانته؟

ـ لا أعلم. لكنَّه ليس زوجها. زوجته الفرنسيَّة ماتت. ربَّما كانت عشيقتَه. أكيد عشيقته. ويُقال إنَّها السبب في تدمير بيته كلِّيًّا وإنَّها السبب في موت زوجته.

ـ فيه ظلم كبير ضدَّ هذه المرأة. هي سيِّدة مجتمع وليست بهذه الصورة.

ـ الصحافة هي التي تقول هذا.

ـ الصحافة تقول عنها أيضًا إنَّها مظلومة.

أسمع في سكينة الدوار.

بلوهارت تعلم القصَّة كلّها. لقد حكيت لها عن كلّ شيء، لكنَّها تحفظ بعض السرّ ولا تتمادى مع مدام شوكي..

عندما فتحت عيني، لم أعرف أحدًا منهم. رأيت وجوههم الصفراء التي لا دم فيها باستثناء بلوهارت والطبيب الجديد، وسمعت همهماتهم القاسية التي كانت تلحّ على فكرة الورطة مع هذه المجنونة التي لا تشبه الأخريات. كانت الأصوات كثيرة، والوجوه مجرَّد ألوان متداخلة. كأنَّ شيئًا غريبًا تطوَّر معي. كيف حدث ذلك كلُّه؟ حتى أُصبت بالجنون الذي تفاديته أبدًا؟ بي دُوار لا أعرف إذا ما كان بفعل الأدوية أم هو أمر طبيعيٌّ من كثرة ضرب رأسي على الحائط؟

عندما أفقت وتحسَّست ألم رأسي الملفوفِ داخل شاش خشن.

لم أتذكَّر الشيء الكثير سوى أنِّي في الليالي التي سبقت، رفضت تناول الدواء، ثم سمعت صوت الطبيب النفسانيّ الحكيم غسَّان وهو يردِّد:

ـ ليش عملت في نفسك هيك يا ماري، ألم يكن أمامك شيءٌ آخر؟

لم تكن لديَّ أيَّةُ قدرة على الردِّ. تمتمت، ولا أظنّ أنَّه سمع كلّ كلماتي المتقطِّعة:

ـ أنا مظلومة. أنا هنا عن طريق الخطأ، يا سيِّدي الحكيم، لا مسؤوليَّة لي فيما حدث. لست مجنونة. أقسم بأنِّي صافية العقل. أخضعني يا سيِّدي لتجارب العقل لترى أنِّي مظلومة. أنا كاتبةٌ معروفة. اسألوا مَن عرفوني من قبل، وكان لي في القاهرة صالونٌ كبير جمعني بأكبر الكتَّاب. ماذا يمكنني أن أقول غير هذا؟ هل هذا لا يكفي ليجعلني خارج الجنون الذي وضعتموني فيه.

ضحكت مدام شوكي. مزاجيَّةٌ بشكل غريب. وكأنَّ كلامي أثار حواسَّها الداخليَّة الميِّتة. التفتت نحو الحائط لتخفي ملامح سخريَّتها من كلامي.

ـ صالون في القاهرة؟ مرَّة وحدة؟ ليش مو ببيروت ههههه.

ردَّ الطبيب النفسيّ، الحكيم غسَّان:

ـ سمعت بهذا. ما فيه حدا يا ماري اتَّهمك بالجنون. أنت سيِّدة محترمة. وكلّ من عرفك لا يتكلَّم عنك إلَّا بالإعجاب. وهذا مستشفى

الأمراض العصبيَّة والنفسيَّة وليس مكانًا للمجانين.

ـ لكنِّي يا سيِّدي ممنوعة من التصرُّف في حياتي وجسدي.

ـ بس يا ماري لازم تأخذين الأدوية للتخفيف من آلامك والتخفيف من أعصابك. بدون ذلك لن أستطيع مساعدتك. لا أطلب منك أيّ شيء. لا تريدين الدواء، ليكن. تعالي معي، للجناح الثاني، أريد أن أُريك شيئًا مهمًا. ربَّما لا تحبِّينه، لكنَّه جدّ ضروري، لتدركي أنَّ الأمر جادٌّ وخطير، وعليك أن تتنبَّهي له قبل فوات الأوان. سأترك لك فرصة الخيارات. لن أجبرك على شيء لا تريدينه، لا أنا، ولا الطاقم الطبِّي المرافق لي.

ـ ما عندي رغبة.

ـ وَلَوْ. المسألة لا تخصّ الرغبة ولكن الضرورة. لا خِيار لك، لأنِّي بعدها سأتخذ قرارًا نهائيًّا بشأنك.

كأنَّه أفرغ على رأسي إناءً من الماء البارد. انسحب لساني إلى الحلق وضيَّعت لغتي. استسلمت له.

مدَّت لي بلوهارت يدها ثم ذراعها، ساعدتني على القيام. بينما وضع الطبيب النفسانيّ غسَّان يده تحت إبطي الأيمن ومشينا قليلًا.

توقَّفت لثوان، رتَّبت فيها بلوهارت لباسي من الوراء، ثم واصلت التدحرج. كنت أشعر بالتعب وببعض الدوار، لكنَّني كنت قادرة على المشي بمساعدة الطبيب وبلوهارت. الخطوة الأولى، الثانية الثالثة. الرابعة. توقَّفت. هناك شيء ثقيل على ظهري. يُرهقني، كأنَّ أحدًا وضع السلاسل في رجلي، ثم وضع كيسًا من الإسمنت على ظهري

ليمعن في تعذيبي، ثم أمرني بالمشي من بيروت، لضيعة شحتور، وصعود الجبل العالي.

لا أدري كم استغرقنا من الوقت قبل أن أوضع على العربيَّة التي سحبتني نحو الجناح الثاني. قرأت: جناح ب. المرضى عقليًّا. انفتح في وجهي الباب الأوَّل كأنَّه فم حيوان أسطوريّ. ثم انغلق من ورائنا آليًّا مثل أبواب صالونات الكاوبوي التي نراها في الأفلام. ثم سرنا قليلًا، الباب الثاني، لكنِّي بعدها ضيَّعت العد ولم أعد قادرة على تبيان الأشياء.

كلّ شيء كان يدور في دماغي بعنف، وأمام عيني، في مشهديَّة دراميَّة.

توقَّف الطبيب قليلًا.

ـ ماري. انتبهي لي جيِّدًا.

ـ هل تريد أن تقتلني؟

ـ لماذا يا ماري، أنا أريد شفاءك السريع. شوفي منيح. أنت مصرَّة على عدم تناول الأدوية، أنت حرَّة طبعًا، لكن هذا يؤذيك وينقلك من مرحلة نسيطر عليها إلى مرحلة لا أحد يسيطر عليها. راح أفرجيك شي، بس لا تخافي منه. أعرف أنَّك امرأة شجاعة. ألم تقاومي ما رأيتِه ظلمًا ضدَّك من الآخرين؟ المقيمون هنا، من وراء هذا الباب، ناس كانوا مثلك، متعَبين شوي، أعصاب، اكتئاب، لكن طبيعيين، قصدي مش مجانين. رفضوا تناول الدواء، مثلك أيضًا. شوفي فقط أين أصبحوا اليوم. إنَّهم هناك، ولا يمكن للدواء أن يفعل فيهم شيئًا الآن سوى تنويمهم.

ـ دخيلك يا دكتور، ما بدِّي أشوف شي، رجِّعني لغرفتي.

ـ مثلما بدِّك، لكن راح تخسري شي كثير.

تدخَّلت سوزان وهي تحاول أن تمسح وجهي الذي سال عليه عرق بارد.

لكن في الوقت نفسه، كان عندي فضول عميق، فاستسلمت لذراعيه من جديد، وذراع بلوهارت التي أسندتني أكثر لدرجة تمنَّيت أن ألتصق بصدرها فأغمض عينيّ، وعندما أستيقظ، أجد كلّ شيء قد انسحب والظلمة زالت.

تقدَّم الحكيم غسَّان بخطوة، كان الفضاء أوسع. أوَّلُ شيء سمعته صراخ كبير زلزل قلبي. ثم رأيت رجلًا ضخمًا مُحاطًا بأربعة ممرِّضين أقوياء مثل الثيران، وهم يحاولون أن يسيطروا عليه، وهو يضرب رأسه المحلوق على الحائط الأقرب الذي كان ينضح دمًا: *يا أولاد الشرموطة، خانتني. عمقول لكم باعتني بالرخيص. وبدكم إيَّاني أتركها حيَّة. سكِّينة المطبخ كيف راحت منِّي يا الله؟ مين إلِّلي سرقها من يدي؟* ثم فجأة سكن عندما تمكَّنوا من السيطرة عليه نهائيًّا، وحقنه بإبرة كبيرة تشبه تلك التي تستعمل للحيوانات لوقايتها من الأمراض الثقيلة، رأيتها في سوق الناصرة. ثم قيَّدوه بالجاكيت التي شدُّوا (بها) وثاقه من الوراء. أصابتني رعشة داخليَّة كبيرة، تشبَّثت بجسد بلوهارت. عندما داخ حملوه كما تُحمل جثَّة ميِّت، وجرجروه من باب خلفيٍّ مؤدٍّ إلى جهة الرجال. فتحوا بابًا ثانيًا أمام وجهي. رأيت امرأة، ذكَّرتني بعيني كارمن المائلتين. عندما رأتني التفتت نحو الحائط، ورفعت يديها إلى السماء وفتحت رجليها قليلًا كأنَّها تستسلم لتفتيش أمنيّ وهي تقسم:

والله مو أنا. ما لي أيَّة علاقة بهم. ثم شيئًا فشيئًا بدأ يرتفع صوتها ويعلو بشكل مخيف، حتى أصبح في لحظة من اللحظات يشبه صوت رجل يعاني من الاختناق. كانت تعوي بتشنُّج مثل ذئبة جريحة. قبل أن ينوِّموها بالحقنة نفسها.

التفت الدكتور نحوي:

ـ هذه المسكينة مريم، قصَّتها غير. بيحكوا أنَّ بها مسًّا من الجنون، وأنَّها مسكونة بجنِّيٍّ أحمر أقسم أن لا يخرج إلَّا بإخراج روحها. وظلُّوا معها بالطبِّ الشعبيّ والمحاولات السخيفة، حتى دمَّروا خلايا مخّها نهائيًّا، ومعدتها. حاولنا إنقاذها، لكنَّنا لم نفلح أبدًا. وصلنا متأخِّرين جدًّا يا ماري. ليست مجرمة عندما قتلت زوجها. ذنبها الوحيد أنَّها وجدت نفسها في المكان السيِّئ. في المكان الذي كان يجب أن لا توجد فيه، وفي اللحظة السيِّئة، لحظةِ ارتكاب الجريمة. لم يكن أمامها سوى ذلك بعد أن جنَّنها يومَ وجدته مع امرأتين. قالت للمرأتين انسحبا. قامتا بسرعة وفرَّتا من دون أن تلبسا ثيابهما كلِّيًّا، وغرست في بطنه سكِّينة حادَّة. ظلَّ يتقلَّب في مكانه. ثم دخلت إلى المطبخ وجاءت بسكِّينة قطع الخبز الحادَّة. كان مذعورًا. أنزلت الغطاء عنه. كان مجمَّدًا في مكانه. حتى صرختُه لم تخرج وهي تأخذ عضوه في حفنة كفّها وقطعته بعنف، بينما الصرخة لم تخرج وانقلبت صفرةُ وجهه إلى لون رماديّ. بقيت الجريمة عالقة بالأذهان، لم يشفع لها إرهاقها وصدمتها أبدًا. بقيت في الحبس شهورًا على ذمَّة التحقيق، وخرجت من هناك مُصابة بخلل عقليّ، وبحالة هلوسة ورعب وصراخ. الكثير من السكارى والعابرين كانوا يأخذونها ثم يرمونها في أيّ شارع. في كلّ مرَّة كانت تحمل وتلد في أيِّ مكان. كان المارَّة يعبرون

صباحًا، يجدون طفلًا يأخذونه نحو مركز الأمَّهات العازبات. يقول الذين عرفوها عن قرب وفي ملفِّها الطبِّي أنَّها أنجبت بنتين خنقتهما وذهبت لتسلِّم نفسها للشرطة. خلَّصوا عليها إذ اعتبروها من اللحظة الأولى مسكونة، وبدل المستشفى اختاروا لها الرقية الشرعيَّة قبل أن يأتيهم دجَّال ظلَّ يضربها ويصرخ في وجه الأحمر، ويدعوه إلى الخروج ويواجهه إذا كان بطلًا، حتى هلكها. أتى بها إلى هنا أحد المُحسنين الطيِّبين. والآن تتعافى قليلًا، وبدأت تعتبر أنَّه ليس كلّ الناس أعداءها، وهذا وحده يبشِّر بخير بسيط ويقلِّل من رعبها الليلي.

كانت ترتجف مثل حيوان مذعور وهي تنظر صوبنا. تقدَّم الطبيب نحوها. لم تهرب، بل خطت بعض الخطوات نحوه وهي تتفرَّس في وجهه. مسح على شعرها بنعومة، وعلى وجهه، فاستسلمت له. تلمَّس يديها.

ـ كيف ظهرك هلَّأ يا مريم.

ـ زين. أفضل شوي. مين إلِّلي معك؟

ـ ناس طيِّبون إيجوا يشوفوك. فرجيهم مَن الوغد إلِّلي ضربك على ظهرك.

كشف عن قليل من ظهرها، فكان أسودَ من الحرق والكيّ والضرب.

لم أتمكَّن من رؤية كلّ شيء، فقد انتابني رعبٌ قويّ. كنت أرتجف. ربَّما لأنِّي عشت في القاهرة في راحة، خارج هذا الدُّوار. كان ظهرها مثقَّبًا كالغربال.

ـ أرجوك دكتور أعيدوني إلى مكاني، لم أعد قادرة على التحمُّل.

ـ سنفعل حالًا، أجابني الطبيب النفسانيّ الحكيم غسَّان، وهو يحكّ من جديد على رأس السيِّدة، ويقبِّل يدها اليمنى قبل أن يستلمها الممرِّضون. فاستسلمت لهم.

يبدو أنَّ المريض عندما يتعب يستسلم للقوَّة.

لم أكن قادرة على الوقوف. مدَّدني الطبيب قليلًا على فراشي، بينما غسلتْ بلوهارت وجهي.

تمتم بالكاد في أذني.

ـ شفتِ قدِّيش المسألة صعبة وقاسية يا ماري؟ ما كان بدنا نخوِّفك. ولا نعذِّبك. حبّيناك تعرفين شوي هذا العالم، وما هي كوارثه. C'est juste une onde de choc afin que tu te réveilles[1] الآن أنت حرَّة حبيبتي. ما بدِّي تضيِّعي نفسك يا ماري إلياس. أنت متعبة، نعم ولست مجنونة. لكنَّك على حافَّة الكأس كما يُقال، إمَّا أن تسقطي في عمقها، وينتهي أمرك، ويحلَّ الجنون محلَّ العقل نهائيًّا، ويقع لك ما رأيته الآن، أو (أن) تقفزي خارج الكأس نهائيًّا، وتعودي إلى وضعك الطبيعي، وهذا يتطلَّب شرب الدواء. كلّنا هنا نحبّك ونخاف عليك، ونعرف أنَّ ما حدث لك ليس بريئًا، وأنَّ ابن عمّك لم يكن لطيفًا معك. لكنَّك متعَبة جدًّا يا ماري، وتنحفين كلّ يوم قليلًا، وهذا يزيد من المخاطر الصحِّيَّة عليك. ولا بدَّ من أن تنتبهي جيِّدًا إلى وضعك. أنا الآن أتحدَّث مع امرأة متعَبة، لكن بكامل

(١) مجرَّد هزَّة عنيفة لا أكثر، حتى تستيقظي.

قواها العقليَّة، وليست مجنونة.

ـ لكن يا دكتور غسَّان. قلبي موجوع.

ـ وقلبي موجوع عليك أكثر، ولا أسمح لنفسي بتركك تغادرين هذه الحياة الجميلة، وتغرقين في عالم الجنون كما مريمُ المهبولة، المسكينةُ التي لن تعود إلى حالتها الطبيعيَّة إلَّا بقدرة قادر.

مدَّ يده إلى يدي. كانت دافئة جدًّا، أو ربَّما جسدي هو البارد من شدَّة الخوف. همس:

ـ ما راح أزعجك. أنا بمكتبي.

قبَّل جبهتي وخرج.

ـ حاوِلُوا ألَّا تتعبوها كثيرًا. أَعطوها فقط مسكِّنات، حتى تقرِّر شرب الدواء.

تمتمت، لكنَّه لم يسمعني.

ـ أنا خائفة يا دكتور.

عندما صوَّب نظره نحو عيني، أدرك بسرعة درجة خوفي.

في لمح البصر رأيت أبي. قفاه وظهره ومشيته كأنَّها لوالدي. كيف لهذا السرِّ الوجودي يضعني أمام أجمل مخلوق في حياتي. قبل أن يغادرني الحكيم غسَّان لم ألحظ هذا، ولكنِّي رأيت في عينيه ارتسامَ حيرة كتلك التي تنتاب العشَّاق عندما تتعطَّل لغتُهم التعبيريَّة. لأوَّل مرَّة أشعر بصدق التي تشكّ في كلّ شيء، بما في ذلك تسميمُها من أهاليها أو عن طريق ممرِّضة يشتريها جوزيف. الصدفة الغريبة التي رمت به إلى هذا المستشفى القاسي. الدكتور غسَّان بدا لي مثلَ والدي، بل

والدي. عندما مشى خرج من الغرفة ومشى في البهو القديم، رأيته، ارتسم فجأة ظلُّ أبي، وجهُه، وقامتُه. أعطاني ذلك سكينةً كبيرة وطاقة استثنائيَّة وإحساسًا مشبعًا بالفرح، أنِّي لم أكن وحيدة.

ليس سهلًا أن تفقد من تحبّ، لكن أن تفقد أبًا، شكَّل عالمك، وحياتَك، وأقدسَ أسرارك، فكارثةٌ. أن تفقد أباك معناه أن تخسر أوَّل رجل أحببته في حياتك بلا أسئلة ولا حساب، وأنت على يقين أنَّه رجلك الأسطوريّ الأوحد، والأبديّ. عندما يخونك الجميع والأقدار الصعبة، تتَّكئ عليه، أو تنام على صدره. تصرُّف والدي لم يتغيَّر أبدًا. ظلَّ هو هو من طفولتي في الناصرة أو شبابي في شحتول أو القاهرة. كنت مدلّلته وحبيبته ونوره كما كان يقول لي دائمًا. كان يكرِّر جملته:

ـ *الوحيدة يا اللي حملت جنوني الإعلامي والثقافي هي هذه*، *حبيبتي ماري*، ثم يضمّني *إلى* صدره. *لا* يمكن *للعالم أن* يسير بلا *مغامرين رائعين ولا مجانين أحرار.*

ـ *أنا مش مجنونة يا.*

ـ *بدِّي ياكِ تكونين مجنونة. العالم زهق من العاقلين.*

لم أعرف أنَّ الزمن القاسي كان يخبِّئ لي جنونًا خاصًّا، قنبلةً موقوتة محفوظة في الأعماق، وضع فتيلتها في يد جوزيف، تاركًا له مأموريَّة الخراب. لم أعرف أنَّ للأقدار صُنَّاعَها، يُنشئها لك مَن هو الأقرب إليك.

لم أكن أعرف أنَّ الجنون ليس دائمًا مشيئتَك الفرديَّة كما تصوَّرها أبي، يمكنه أن يأتي من سماء فارغة لا نعرف سرَّها.

التفتُّ نحو بلوهارت، ولا أدري كيف خرجت الكلمة من فمي، بخوف ولكن أيضًا براحة.

ـ حبيبتي ، في دواء أتناوله قبل النوم.

ـ ارتاحي سأقوم بتحضير كلّ شيء لك. لن تمرِّي عبر المعالَجة الجماعيَّة. أنت وضعك لا يشبههم. بعضهم فَقَدَ كلّ علاقته بالدنيا لأسباب كثيرة.

ـ لكن لماذا يصرخون كلّ الليل.

ـ كلّ واحد له وضعه الخاصّ يا مي، ولكلّ واحدة قصَّة، وحدها تعرف سرَّها ومعاني الكلمات التي تردِّدها يوميًّا على مسامع نزلاء العصفوريَّة، قبل أن يُسرق منها عقلُها. هناك المرتبطات بأمومة غائبة. وهناك من يَخفنَ من كلّ شيء، حتى من أنفسهنَّ، وبعضُهنَّ من ظلالهنَّ.

ـ وأنا أيضًا أبدو لهم أكثرَ جنونًا؟ ماذا كان ينتظرون من امرأة انهارت كلُّ حيطانها في زمن محدود مرَّةً واحدة، ولم تكن مهيَّأة لذلك. جيِّد أنِّي لا آكل ملابسي ونفسي وإنِّي ما زلت حيَّة وواقفة على قدمَيّ.

لقد مات والدي وأنا جوعانة إلى حنانه، لقد قضى العمر كلّه يركض وراء الرغيف الذي ظلّ معلَّقًا في الأسفار. لحقه جبران، حبيبي وأخي الذي يعرف جراحاتي التي لم يلمسها حتى الأقربون. لم أكن من حديقة نسائه لأنِّي لا أملك قلبًا سهلًا وجَسَدًا طيِّعًا، لكنَّه كان نبيلًا وجميلًا معي. قلت له يومًا عندما طال صمتُه: لا تكتب لي إلَّا عندما تشعر بالحاجة إلى ذلك. تألَّم قلبه كثيرًا. ردّ بحزنه الشفيف: *هناك في*

مشارق الأرض صبيَّةٌ ليست كالصبايا، وقد دخلت الهيكل قبل ولادتها، ووقفت في قدس الأقداس، فعرفت السرَّ العلويَّ الذي اتَّخذه جبابرةُ الصباح، ثم اتَّخذت بلادي بلادًا لها، وقَوْمي قومًا لها[1]. ثم ختمتُ دربَ الآلام بفقدان أمٍّ، كانت كلّي وقلبي، فشعرتُني فجأة مرميَّةً في فراغ بلا حدود. كانت حائطي الأخيرَ الذي بقي واقفًا، ربَّما لأنِّي اتَّكأت عليه كثيرًا، هو ما جعله ينهار بسرعة. ليلًا أبكي بلا حدود. حتى الذين كنت أعرفهم، غادروا المكان أيضًا. اخترت فقط أن أبكي وأنتظر دوري، فسرقوني قبل الأوان. لم يكن جوزيف في حاجة إلى التسرُّع، لم تكن رغبتي في الحياة كبيرةً. تسلُّطه وظلمه جعلني أصرّ على الحياة لا حبًّا ولكن انتقامًا. أحيانًا نقاوم رياح الموت فقط لنرى مآلَ من أذانا.

تمنَّيت لو أستطيع أن أكون أكثر قربًا. لكن للأسف، المسافات يحدِّدها المستشفى وليست رغباتي. كان والدي يقول لي دائمًا كلّما أُصبتِ بجرح تصعب مقاومته، اخرجي من دائرته. اذهبي نحو أماكن ومساحات خالية من البشر، بها الأرض والسماء فقط والأرواح الصامتة، وارتاحي ولا تفكّري في أيّ شيء.

سافرت في عام ١٩٣٢ إلى إنجلترا أملًا في تغيِّير المكان والجوّ أيضًا، لكن شيئًا غامضًا كان يمنعني دائمًا من الفرح. حتى السفر، على جماله، لم يكن الدواء. عدت إلى مصر يومها متعَبة، لا شيء يجبر كسور القلب أمام الموت. سافرت ثانية إلى إيطاليا لاستدراك سفرة لندن، أتابع محاضراتي في جامعة بروجيه عن اللغة الإيطاليَّة،

---

(١) من رسائل جبران إلى مي، ٩ شباط/ فبراير ١٩١٩.

وآثارها. أحببتها وتمنَّيت أن أكتب بها مثل الإنجليزيَّة والفرنسيَّة. السعال الديكيّ الخانق بسبب البرد، لم يترك لي فرصًا كثيرة للتعلُّم، وربَّما العمرُ الهشّ أيضًا. حاولت البقاء في روما، لم ينفع. أدركت أنَّ مشكلتي فيّ، في دمي وحواسِّي، في مخِّي المتعَب وليست في الخارج. عدت في النهاية إلى مصر. وفاة أمِّي كانت قاصمة للظهر. عدت إلى مصر مرهَقة، فاستسلمت لأحزاني وكآبتي.. في الأخير، حين أصبح كلّ شيء أسود، رفعت الراية البيضاء من جديد لأعلن أنِّي لم أعد قادرة على التحمُّل، فغرقت في كآبة كانت أقوى منِّي. أصبحت فقط في حاجة إلى من يقف بجانبي ولو كذبًا، ويسندني إلى صدره، ويمنحني فرصة للتماسك من جديد. وكان هو. ذلك الـ هو الذي أخطأت فيه. لقد فات قطار العمر بسرعة وبقيت واقفة على الرصيف القديم أغزل الخيوط احتماءً من برد شتاء كان على الأبواب، ونسيت أنَّه كان بداخلي. كيف نحتمي من برد الداخل يا بلوهارت؟

ـ السيِّد جوزيف؟

ـ ومَن غيرُه يا قلبي؟

ـ كنت تحبِّينه؟

وكأنَّها المرَّة الأولى التي يُطرح عليّ فيها هذا السؤال.

جمد لساني في حلقي. لم أكن قادرة على الكذب، ولا حتى على الكلام. في الأخير استطعت أن أنطق ببعض الكلمات.

ـ نعم يا بلوهارت. كنت أحبّه. كنت أرى فيه أشياء لم يكن غيري يلمسها. أكثر من هذا، كان بيننا مشروع زواج ونحن شباب، وحتى بعد وفاة زوجته. ظلّ يصرّ عليّ حتى نسيت غضبي منه يوم

اختار الفرنسيَّة وتركني معلَّقة بين حلم وخيبة. حلمنا أن نستدرك ما خسرناه بسبب أنانيَّته، وتدخُّلاتِ عائلته، قبل أن يهرب إلى پاريس ويتزوَّج هناك. عذرته لأنَّ دراسة الطبّ كانت كلّ شيء بالنسبة له. الجنون الذي كان بيننا، كان طفوليًّا.

ـ هل هذا هو سبب الكآبة التي كبرت معك؟

ـ لا ألصق بجوزيف كلَّ شيء. مسؤوليَّته كبيرة، لأنِّي يومها سمعت صوت الأشياء التي تكسَّرت بداخلي فجأة مثل شجرة عجوز قاومت العواصف والرياح، فنشفتْ من الداخل، قبل أن تستسلم للموت. ربَّما طبيعة شخصيَّتي أيضًا لأنِّي تعوَّدت كثيرًا على احتضان الناس الذين كنت بالنسبة لهم حبًّا إضافيًّا للمتعة. كلّ واحد كانت له زوجته المصون أو حبيبته السرِّيَّة التي يخاف عليها حتى من حضور الصالون، ولا يزعجه أبدًا أن يغازلني، ويتقرَّب منِّي.

ـ لقد بذلتِ جهدًا كبيرًا، لكنَّ الرجل الشرقي لا يتغيَّر بسهولة. يحتاج إلى زمن آخر، لدرجة أن تفكِّر المرأة على شو الزواج؟ شو اللي رايح يتغيَّر؟ أصلًا شو الفايدة إذا تبيع حرِّيَّتك مقابل زواج لا شيء فيه يغري؟ حكاية طويلة. وحياتك يا آنسة مي أحيانًا أرفض حتى التفكير في الموضوع، سبب خلافي مع أمِّي التي تريد أن تدفع بي نحو الزواج كيفما كان الرجل الذي يقابلني.

ـ في الشرق ازدواجيَّةٌ كبيرة هي رهينة ثقافة فيها الكثيرُ من النفاق والخوف من كلّ ما هو جديد. هو حداثيّ ومنفتح على الحياة، ولكن في الوقت نفسه يحافظ على رجل الدين المتخفِّي فيه، يتحكَّم في كلّ حياته. يلاقي ما لا يُلاقَى، لأنَّ لكلِّ واحد مسلكَه. لهذا في لحظة من

اللحظات، فكَّرت أن أغلق الصالون نهائيًّا. فقدت كلّ شهيَّة للعمل بعد وفاة أمِّي. بعد ربع قرن من العمل المواظب، كلّ يوم ثلاثاء، أغلقته. لم أندم على ذلك. الأدب مشقَّة لا تُطاق، لكنَّ البشر دُوار صعب وغير مأمون النتائج. فجأة، شعرت بنفسي نبتةً غريبة في زمن غريب، وعليَّ أن أستأصل نفسي بنفسي بعد أن تنافست الأيادي على نزعي بعنف، وأنا حيَّةٌ، فماذا بعد موتي؟ وسط الجفاف والتهتُّك الداخليّ والجوع العاطفيّ، سيجعل منِّي عشيقته، وسيكتب عن المرأة الوحيدة التي انتقته من دون غيره. من هذه الناحية، يكاد كلّهم لا يصلحون، لا أحد منهم كان قادرًا على رؤية نفسه في مرآة العمر الهارب. مزهوٌّ بثقافته التي وضعته في الصفوف الأولى، وذكورته السخيَّة.

ـ هي هزيمة متنكِّرة في جلباب الذكورة المنكسرة.

ـ ٧ ـ

ـ لشو بدّك طاولة وكرسي؟

قالت الممرِّضة الخشنة مدام شوكي التي تشبه ملاكمًا من الوزن الثقيل، بصدرها البارز الذي يكاد يُفقدها توازنها، ومرفقيها الموضوعين على خصريها كأنَّها تستعدّ لحرب محتملة.

لم يكن لديَّ ما أقوله سوى ردَّة فعل تشبهها.

ـ بدّك تعرفي، مو هيك؟

ـ أيوه؟ أوَّل مجنونة تطلب طاولة. واحدة تطلب قصرًا، أخرى تبكي لأنَّ فارس أحلامها تركها وحيدةً وسافر بعيدًا. وأنت طاولة. أوَّل مرَّة أرى وأسمع هذا!

ـ أوَّل مجنونة؟ وربَّما آخر مجنونة أيضًا. بدِّي طاولة منشان أرقص عليها. لديَّ رغبة للرقص حتى الصباح. ما بعرف شو اللي حصل لي، لكنِّي حابّة أرقص. على الأقلِّ يحقّ للمجنون ما لا يحقّ للعاقل. هل الرقص ممنوع في العصفوريَّة؟ مين قال هذا الكلام؟ مش العصفوريَّة ملهًى كبير يُمنع منه من له عقل؟ أنا ما صار عندي عقل يا ستِّي، تحمَّليني. فجأة وجدت في ملهى العصفوريَّة ما يليق بي. مهنتي الجديدة: الرقص على الطاولات. فيه شي عيب أو ممنوع؟

كانت الممرِّضة تتبع كلامي بانتباه شديد وسخرية ضامرة. ضحكتْ، ثم غمزت الطبيب الإنجليزي الذي كانت ترافقه، مؤكِّدة له بعينيها الكبيرتين، أنِّي كنت فعلًا مجنونة، لكن كان عليها مداراتي والسيرُ معي في جنوني. مشهد غريب جعلتُ منه لعبتي. من كان المجنون أنا أم هي؟

ـ أيّ نوع من الرقص تجيدينه يا ماري؟

ـ كلّ ما يحرِّك عُقَدَ الأجساد الميِّتة، ومكامنَ الرجال المدفونة. خسارة ما معنا رجل؟ سلو. تانغو. تويست. الروك. شرقي. هِزّ يا وِزّ... رقَّصني يا جدع... الله يرحمك يا عمّ سيِّد درويش، يتَّمتَنا بموتك، ونحن لم نشبع من حنينك. كم كنت مدركًا لأسرار الحياة. كنت تقول دائمًا، كلّ من يسخر من الموسيقى في قلبه ترابٌ محروق بشمس بليدة.

ـ هههه... درويش؟ مين هذا المخلوق الغريب؟

ـ الطبَّال بتاعي.

ـ مات؟

ـ أيوه خسارة. بقيت بلا طبَّال، يا ريتك تعوِّضيه لأرقص لك.

ـ راح أجرِّب على الطاولة، لكن ما أضمن. لن أكون مثل طبَّالك سيِّد درويش. أنت متعوِّدة عليه. تعرفين كلَّ هذا وصامتة؟ رقصك سيعطي الحياة للعصفوريَّة.

ـ وأكثر من هذا كلّه، أعرف أيضًا الرقص الذي يجعلك تتعرِّين كاشفة بلا وعي عن مفاتنك، وكتلك الشحميَّة التي تفيض عن جسدك بقوَّة فيظهر شعرُ عانتك وإبطيك المقزِّز. بدِّك أدخل في التفاصيل وإلَّا بكفِّيك؟

فجأة صمتت كأنِّي ضربتها على الرأس بقطعة حديد مدوِّخة، حتى إنِّي لمت نفسي داخليًّا. الضحكات العريضة التي تحوِّل وجهها إلى مهرِّج بلباس ملوَّن، توقَّفت نهائيًّا وحلَّ محلَّها شيءٌ أسود رأيته يرتسم على ملامحها كالثعبان، حقدًا غريبًا اتَّضحت كلّ تفاصيل ملامحها، في عينيها لأوَّل مرَّة.

التفتت نحو الطبيب.

ـ شفت يا دكتور، لم يكن الدكتور جوزيف مخطئًا عندما قال إنَّ عندها حالة تمركز جنسيّ، وتضخُّم ليبيدو لم يتمّ تصريفه بالشكل المناسب والطبيعيّ، وفي الوقت المناسب. هي تصرفه بهذا الشكل العنيف ضدِّي.

ـ هههههههه.

ضحكتُ.

قهقهتُ.

لم يكن أمامي إلَّا ذلك وإلَّا لا شيء آخر إلَّا الجنون. يحوِّلونك إلى مهزلة أمام الناس وكأنَّك كائن فوق الحاجة، مضغةٌ في كلّ الأفواه، وعندما تنتفض، يصغرون فجأة، ويتحوَّلون إلى ضحايا.

«اتركوني يا أولاد الكلب. ليش أخذتموه منِّي. إنَّكم تقتلونني وهو قاتلي. لا أريد دواءكم وسمَّكم. أمشي في الشارع وأشحذ، أحسن من بؤسكم. رجِّعوا لي حبيبي أرجوكم. لا أريد أيَّ دواء. لا أريد أيّ دواااااااء».

أغلقت الممرِّضة الباب. توجَّهت نحو الطبيب.

ـ هذه المخلوقة العجيبة، من ساعة ما جاؤوا بها إلى العصفوريَّة وهي تصرخ، كأنَّهم فصلوها عمَّن تحبّ.

ـ الناس مساكين، لا أحد يعرف دواخلَهم وحرائقهم. نحن نحاول، نُصيب مرَّةً ونخفق عشرات المرَّات. الطبّ النفسيّ شيء غير العقاقير، بيوت سرِّيَّة، من يستطِع كسر أبوابها، يدخلْها.

أجاب الطبيب الإنجليزي الذي سحب الممرِّضة قليلًا إلى الوراء، لا أدري ماذا همس في أذنها، ربَّما نبَّهها إلى تهذيب كلامها قليلًا، ممَّا جعل وجهها يحمرّ كثيرًا وتتراجع، وتخرج من المشهد نهائيًّا. سمعت فقط كلمة حقيبة. ثم التفت نحوي، وقال بلغة إنجليزيَّة أنيقة.

ـ لماذا الطاولة حبيبتي؟

كان مهذَّبًا ومحترمًا. يتكلَّم بهدوء مخافةَ أن يوقظ الملائكة.

ـ طبعًا للعمل يا دكتور. أنا أبسط من هذا الجنون الذي أُلصق بي. أنا كاتبة، وكلّ شجني يمرّ عبر لغتي. لا أريد الشيء الكثير. من

ساعة ما أصبحت نزيلة هذا المكان وأنا أرجوهم أن يأتوني بكرسيّ وطاولة. كتبت بالفرنسيَّة ديواني الأوَّل *أزاهير حلم*، وكتبت بالإنجليزيَّة: The shadow on the rock.[1] أنا لا أحتاج يا سيِّدي إلى أكثر من بعض الأقلام، وكراريس صغيرة للكتابة، وحقيبتي التي طلبت من الأقارب أن يبعثوها لي. لأنَّ مقامي سيطول وليس كما تصوَّرت.

ـ حقيبتك الصغيرة موجودة. لا مشكلة. بعثت السيِّدة شوكت تأتيك بها.

كانت مدام شوكي قد عادت لغرفتي بسرعة حتى لا تفوتها رقصتي العظيمة. سلَّمتها له. كانت منكسرة عندما رأتني أتكلَّم برزانة. فتحتها. وأخرجت أثقالها، ومجسَّم كامي كلوديل: راقصي الفالس. كان الطبيب الإنجليزي يتتبَّع كلّ حركاتي.

ـ تحبِّين النحت.

ـ جدًّا. والموسيقى أيضًا. هذه هديَّة من القنصل الفرنسيّ يوم ناقشنا في صالون مي زيادة الآداب العالميَّة والثقافة الفرنسيَّة. وشاركَنا في النقاش، كبارُنا الفرانكوفونيين، طٰه حسين، الشيخ عبد الرازق، وغيرُهما، وغاب العقَّاد لأنَّه لم يكن راضيًا. أراد أن يطَّلع على رسالتي التي كتبتها لجبران. فرفضت. قصَّة طويلة ليس هذا وقتها.

لم يكن مطلوبًا منِّي أيُّ شيء. لا أعلم لماذا تماديت في الكلام. فجأة كان عليَّ أن ألجم نفسي قليلًا.

---

(١) الظلّ على الصخرة.

هل كان القنصل الفرنسي يُدرك يومها ما كان يقوم به، وهو يهديني هذا المجسَّم المقلَّد من تمثال: راقصي الفالس؟ وأنَّ هديَّته الثمينة ستوصلني في الأخير إلى العصفوريَّة. كنت أعرف وضعها ومتعاطفةً جدًّا مع صاحبته كامي كلوديل. طلبت منه عنوان مستشفاها، تفاصيلَ إقامتها، مذكَّراتِها ورسائلَها في حفل استقبال بمناسبة اليوم الوطني الإنجليزي، وكان محبًّا للآداب والفنون. وعدني وقام بواجبه نحوي يومها. أذهلتني نباهتُه ونقاشه عن الفنون بشكل خاصّ. وأخبرته أنّي أريد التراسل معها، فالذي يقف على عتبة الموت، يحتاج إلى أيّ جناح يرفُّ قريبًا من قلبه، لينام في ظلِّه. وعدني بأن يقوم بما هو ضروريّ.

لقد صنع التمثالُ الغريب لي قدرًا جديدًا لم يكن في البال. كنت أحبّ كامي كلوديل بقوَّة، كفنَّانة ومؤمنة أنَّها هي من أعطى شيئًا من الأنوثة لمنحوتات رودان. من حقِّها أن تحتجّ على القبلة[1]، لا يوجد فيها شيء من رودان. القطع الأساسيَّة التي نحتتها للتمثال كعاملة، لم تكن إلَّا منها. القبلة لا تشبه في شيء طريقة رودان. الزمن لم يسمح لامرأة مثلها أن تبرز. سرقوا منها حقّها. عندما احتجَّت، رموها في مستشفى الأمراض النفسيَّة والعصبيَّة، وهي في كامل قواها العقليَّة.

على الرَّغم من المسافات والثقافات المتباينة والتقاليد، أشعر بي في دوار حبيبتي كامي كلوديل، وأنَّ رودان وجوزيف من طينة ذكوريَّة واحدة، ويقين واحد أيضًا.

---

(١) هي واحدة من أهمّ منحوتات أوغست رودان، الذي كانت مساعدتَه وعشيقتَه.

٢ ـ وانْزَوَيْتَ تتأمَّلُنِي، كأنَّك لمْ تَكُنْ مَعْنِيًّا بآلاَمِي

ليلة ٠٢ حزيران/يونيو ١٩٣٦ وما تلاها

ـ ١ ـ

نهايات الزبيع القلق، بين شتاء ينسحب، وصيف آتٍ.

تخترق الشمس الربيعيَّة أشجارَ الصنوبر الحلبيّ الكثيفة، والصفصافةُ العالية التي تتسامق باتِّجاه الطوابق العُليا. تطلّ بأعناقها وفروعها على نافذتي الحزينة. أتمطَّط بلذَّة كبيرة. أرى النور يتسرَّب قويًّا من النافذة. ينتشر كلِّيًّا على سريري.

أحاول عبثًا أن أنام من جديد. هناك شيء في الحياة يجب ألَّا يضيع، وكلَّما تسرَّب من حواسِّنا خسرناه إلى الأبد.

مكثت في مكاني، أعدت غطائي على رأسي، كما عادتي، لا أرى إلَّا الألوان التي تصنعها ظلمتي.

الآلام التي كانت تملأ فمي منذ ليلة البارحة، خفَّت، لكنَّها انتقلت إلى دماغي. أشعر بأنِّي خارج الأرض وخارج المدار، وحتى خارجي. بعض أعضائي لا تُسعفني، ربَّما لأنِّي نمتُ عليها، أو ربَّما

لأنَّهم خلعوا حساسيَّتها من كثرة إدخال آلاتهم في فمي وحنجرتي وأعماق الأعماق. أتجشَّأ من الفراغ، لا شيء أتقيَّأه.

يبحثون عن ماذا؟ عن قتلي؟

كنت منهَكة. وأنا لا أدري ماذا أفعل، ولا حتى ماذا أكتب؟

هل أكتبني أم أكتب هذا الجرح الذي لا يُكتَب أبدًا. كلّما كُتب زاد اتِّساعًا.

لقد تفاقمت جروحي الخفيَّة وليس فقط تلك التي يراها الناس.

أوَّل ما نزعت الغطاء من على رأسي، رأيت على الحائط الأبيض حشرةً كبيرة تتسلَّق بهدوء وسكينة باتِّجاه السقف. تأمَّلتها قليلًا. كانت سوداء وملامحها غير واضحة. منتفخة. تساءلت في أعماقي كيف أُسقطها، ثم تخلَّيت عن الفكرة نهائيًّا عندما جمدت ذراعي، ثقلت يدي عن كلّ حركة، وبدا نعلي بعيدًا عنِّي.

عدت إلى وضع غطائي على وجهي. شيء ما في داخلي كان يُشعل حريقًا، أشمُّ من خلاله رائحة لحمي وهو يتَّقد على الجمر. تخيَّلتني أمشي خطوة خطوة نحو المرحاض، ثم رأيتني أسقط. أتهاوى قبل أن ألتصق بكلِّي على الأرض. لم أكن ثقيلة. أقلّ من ثلاثين كيلو، لهذا لم يكن سقوطي ثقيلًا ولا مزعجًا. لم يحدث أيّ ضجيج. حتى صراخي بقي فيّ ولم يخرج أبدًا. لا أحد سمعه. ولم يتسبَّب سقوطي في أيّ فوضى.

حاولت عبثًا النوم من جديد. لم أفلح أبدًا.

عندما فُتح الباب، سمعت صرخة بلوهارت بصوتها الطفوليّ.

تلتها ضربة على الحائط مثل الصفعة.

ـ شو فيه يا بلوهارت.

ـ لا ما فيه شيء، بس عقرب كان يتسلّق الحائط.

قفزت من مكاني بسرعة وخوف.

ـ شفته بس ظنّيته مجرّد حشرة عاديّة (من) التي تأتي من الحدائق. الحشرات في العصفوريّة أكثر حرّيّة من البشر.

ـ هذا المكان يعجّ بكلّ أنواع الحشرات.

ـ أختنق. حتى عندما أفتحها، الإحساس بأنّ الشبابيك الخلفيّة تمنعني من أيّة حركة يقتلني.

كانت بلوهارت برفقة الطبيب الفرنسيّ موريس لافال. طبّ عام. فحص فمي وطلب منّي أن أكحّ قليلًا. ثم تلمّس صدري. استمع إلى دقّات قلبي. كنت خائفة أن يقول لي لقد أصبحت بلا قلب. تمتم. جيّد. شويّة مخاط سيزول بالدواء. نظرت بلوهارت إلى وجهي البارد فامتلأ دفئًا. مدّت لي يدَها الناعمة. تلمّستُها. اشتهيت تقبيلها. الوحيدة في هذا العالم الأصمّ من يهتمّ بي. تأمّلت نقاوة كفّها، وكأنّها لم تقم بأيّ عمل شاقّ في حياتها. قبّلتها. أحبّ أصابع المرأة لأنّ بها شيئًا من اللغة الخفيّة. لا أحبّ كثيرًا أيدي الرجال لأنّي لا أرى فيها أيّة نعومة، سوى المزيد من اليقين والخوف، والعنف المبطّن في شكل قبضة حديديّة.

أدخلتْ أصابعها في عمق شعري:

ـ كلّ شيء سيمرّ بخير. لا تشغلي بالك.

سألني الطبيب.

- Comment vous sentez-vous aujourd'hui?[١]

- Trop fatiguée docteur.[٢]

- Surtout sur le plan psychologique.[٣]

أضافت بلوهارت وهي تأخذ يدي من جديد، وتقرِّبها من صدرها بحنان فائض.

- مُمعنون في قتلي وتعذيبي بعنف، يا بلوهارت.

- لا أحد يريد قتلك آنسة مي. نريد لك الشفاء، والعودة إلى أعمالك المعتادة، وإلى كتاباتك. أعرف أنَّها أوجعُ جَرْحٍ. بسّ كويِّس أنَّك تكتبين قليلًا هنا.

- أكتب فقط كيف لا تنطفئ الشعلة الزرقاء التي بداخلي.

أسوأ عذاب، هو الأكل القسريّ الذي مارسوه عليّ بلا رحمة، ليلة أمس. تخصَّصت فيه الممرِّضة الثقيلة، مدام شوكي التي كثيرًا ما بركت على صدري لتحدَّ من حركاتي، فيتمّ إطعامي على الرَّغم منِّي. كلَّما أكَّلوني شيئًا، مرَّ كأنَّه سكِّينٌ حادَّةٌ، تمرُّ ممزِّقةً كلّ شيء في طريقه إلى المعدة.

لا سماء في العصفوريَّة. لا قلب لها أيضًا. حيطانٌ صمَّاء، وغابة أستخسر فيها خضرتَها وجمالها.

---

(١) كيف تشعرين بنفسك اليوم؟
(٢) متعَبة جدًّا يا دكتور.
(٣) وخصوصًا على المستوى النفسي.

أبكي في أعماقي.

ـ ماذا حدث يا ربِّي؟ كيف تركتهم ينكِّلون بي وانزويتَ تتأمَّلني كأنَّك لم تكن معنيًّا بآلامي؟ لماذا تركتَني وحدي أواجه عاصفة الذلّ والضغينة والطمع؟

شعرت بأصابع بلوهارت تلتحم بأصابعي بقوَّة. سمعت صوت شيء يتمزَّق في أعماقها.

كلّ شيء يموت أمامي بهدوء، ويتحوَّل إلى رماد وحفنة يأس.

أتهاوى بقوَّة من دون عارض يخفِّف من هول الصدمة.

أُغمض عينيّ لكي أسترجع البياض الهارب. أُصاب باللاّجدوى، فأُفكِّر في الانتحار. الانتحاااار. أسمع صوت الأخت الكبيرة في داخليَّة عينطورة. *لا يوجد أكثر ألمًا للربّ مثل الانتحار. العذابات امتحان للنفوس العالية التي تمنح جسدها لإنقاذ الآخرين.* خوفي من عقوبة الربّ يجعلني أتقلَّص في فراشي، وأبرد، وأكشّ رعبًا ممَّا ينتظرني هناك. أنسى أو أتناسى كلَّ ما يقتلني عشراتِ المرَّات في اليوم.

أعود فجأة إلى حاضنة أمِّي. أتململ في الفراش الذي يشبه رحِمَها. أقوم بكلِّ الحركات، أو هكذا يبدو لي. أسكن أمِّي حتى النوم ثانية. ربَّما كان مصدر ذلك، بقايا مفعول المورفين الذي يستمرّ طويلًا مُحْدِثًا في الجسد ارتخاءً كبيرًا.

يتمتم الطبيب ثانية متوجِّهًا إلى بلوهارت. لا أسمعه. تقبِّل بلوهارت جبهتي ثانية. أتحسَّس بشهوةٍ حرارةَ القبلة. أتساءل: أمن

همس الملائكة، صُنعت هذه المرأة؟ تضع في فمي قرصَ المهدِّئات الأوَّل، أشربه. الثاني والثالث أشربُهما معًا. الرابع بلونه البرتقاليّ، أشربه منفصلًا بعد ثوانٍ. لا أسأل. لا أشعر بأيِّ ألم. لا أقاوم، أريد فقط أن أُشفى.

ـ شفتِ حبيبتي مي. كلّ شيء يمر بسرعة وهدوء.

كنت مستسلمة لها مثل طفلة. تقبِّلني من جديد على يدي. أشعر بشيء غريب في كلّ جسدي. تحضن كفِّي اليسرى بين كفَّيها. تهمس في أذني.

ـ حبيبة روحي. أعود لك بعدما ننتهي من الزيارة الصباحيَّة للمرضى. وسأبقى معك أكثر. سآتيك بمقترح، أتمنَّى أن تقبلي به وسيساعدك على مغادرة هذا المكان بأقصى سرعة ممكنة. شو رأيك.

ـ ما زلتِ تأملين خروجي من هذا السجن.

ـ ستخرجين وإلَّا لَمَ تصرِّين على هذا العذاب. جميل أنَّك لم تستسلمي بعد كلّ الألم. لا يوجد أيُّ مبرِّر لبقائك هنا. مسألة وقت فقط.

ـ نعم مسألة وقت كما كانت تقول المسكينة التي انتهى بها الموقَّت إلى أكثر من نصف عمرها وموتها هنا. هذا هو الذي يسمّى الموقَّتَ الدائمَ. Le provisoire qui dure الموقَّت القاتل.

ـ مهما كان الوجع القاسي، سينتهي يومًا. إصرارك على حقّك، سيجعل هذا الموقَّت قصيرًا.

تقول بلوهارت بلغة فيها الكثير من النعومة والشفافيَّة.

تلحق بالطبيب. أسمع صوتها في البهو:

ـ لا تنامي. سأعود.

لغتها تشلّني، وهمسها يجعلني أستكين أكثر من أيّ دواء.

أحاول أن أمحو كلّ آثار القسوة. أضع الغطاء على وجهي من جديد. أُغمض عيني، ثم أمضي نحوي بهدوء. أشمّ عطر بلوهارت الذي تنتقيه بحبّ. أحلم.

كم كان ذلك الزمن بعيدًا.

أعود إلى تربتي الأولى التي شكَّلتني كما يُشكِّل الطين. أحاول أن أقنع نفسي بأنِّي في بيتنا في الناصرة، في الطابق العلوي، حيث أوَّل ما كنتُ أسمعه في كلّ صباح، هو صوت العصافير، ممزوجًا بريح خفيفة تذكِّرني دومًا بأنَّ الربّ يسمع كلّ نداءاتي الخفيَّة التي لا أستطيع إخراجها. أقوم. أتدحرج نحو الشرفة. أتنفَّس طويلًا. يأتيني عطر ما، مزيج من بخور الجامع الأبيض والكنائس المواجهة لي، التي أراها من سطح الدار. أمدّ كفَّيَّ الصغيرتين، أقطف أشعَّة شمس لذيذة تشبه الحلوى الملوَّنة. أحاول أن أتذوَّقها بلساني، أستنشقها دفعة واحدة كما الطفلةُ الحالمة لدرجة أن أقول في خلوتي: لا شيء يساوي هذه اللحظة التي تسرقني نحوها مثل أمّ حنون. ألتصق بها، لأنِّي بدونها، سأخسر كلّ شيء بما في ذلك علاقتي بالحياة التي تشدّ اليوم على خيط رفيع لا أريده أن ينقطع.

فجأة تتمزَّق تلك الغشاوة الجميلة. تخترقها الممرِّضة مدام شوكي، بوزنها ودمها الثقيلين، التي كتَّفتني أوَّل مرَّة، بجاكيت المجانين، وهي تصرخ. القيام. النهار طلع. أتأمَّل وجهها من وراء

الفراش. على الرَّغم من ملاطفتها لي من حين لآخر، حينما تعود إلى إنسانيَّتها، أرى البشاعة مجسَّدة أمامي بكلِّ تفاصيلها، وكتلها الفائضة على الجسد كنحت بائس تركه صاحبه بكلِّ زوائده. تسرق غفوتي بشكل فجائيّ. أُدرك بسرعة أنِّي في العصفوريَّة حقيقة وليس مجرَّد كابوس عابر، وأنَّهم قادوني إلى هذا المكان لتعذيبي وقتلي بشكل يوميّ على مرأى من الناس والله؟ وبتواطؤ معهم.

كيف للربّ أن يتواطأ مع القَتَلة. يحترق الجواب في خوفي حتى من نفسي؟ ربَّما كانت بدايات الجنون؟

مات الذين كانوا هنا، وملؤوا الحياة عليّ. غادروا دفعة واحدة! لدرجة أنِّي أشعر أحيانًا أنَّهم تخلُّوا عنِّي بقصديَّة مسبقة، أو أنَّ الربّ يعاقبني عن طريق الخطأ، فأنا لم أفعل ما يؤذي أحدًا، ولا حتى ما يؤذيه؟ أخي الصغير مات مبكرًا، تاركًا مكانَه فارغًا في العائلة. كنت كلَّما اجتمعت العائلة حول طاولة الأكل، رأيت مكانه بظلِّه ونوره. أمِّي أيضًا لم تكن قادرة على نسيانه. كلّما وضعت الصحون على الطاولة، وضعت صحنه في مكانه الدائم. على الرَّغم من وفاته المبكرة، كانت تراه شابًّا قبل الأوان. والدي الذي حماني من الكواسر، مات في حُجري وتابعتُ آلامَه القاسية يومًا بعد يوم. كلَّما ضاقت بي سبل الدنيا، رأيته جالسًا، يتأمَّلني كأنَّه لم يمت أبدًا. يختبر صبري عليه، وشجاعتي التي كثيرًا ما خذلتني. تبعه الرجل الحالم والعاشق دومًا، الذي عوَّض أخي الميِّت، جبران. سحرني بلغته وسحره المدوِّخين. كان يريدني قريبة منه، بينما كان هو فيّ، جزءًا منِّي. لكنِّي رفضت أن أكون مجرَّد رقم في حديقة نسائه. وكان لي رجلٌ عشت فيه معه، كنتُ أحبّه وكان يتحيَّن فرصة رصاصة الرحمة. جبران لا يشبهني في شيء.

كبر في الحرِّيَّة ومات فيها. بهذه الطريقة، لم أطالبه بأن يكون لي، لأنِّي أعرف سلفًا أكثر من غيري، أنَّ أمرًا مثل هذا مستحيل. الرجل حيوان بلا رادع نفسيٍّ. المرأة هشاشة مفرطة. عند بعض الذكور، لا يمكن تفادي غريزة التعدُّد، ربَّما نتجت من الإحساس التاريخيّ بالقوَّة والحقّ في كلّ شيء. والحقّ المطلق في المتعة القصوى. كنت شيئًا آخر. تربية تشبه السجن، أحرقت كلّ عفويَّتي. امرأة شرقيَّة، أريد رجلًا لي وحدي، أموت وأحيا من أجله، فيه وبه. لا أقبل الشريكة في الحبّ، أو الشريكات. الشراكة في الحبِّ في صفِّ الجريمة. أمر قاتل. مصدر كلّ الأحزان الثقيلة. كنت أرى ذلك في عيني أمِّي الحزينتين ونساء المدينة القديمة. لهذا قضيت جزءًا من العمر، وربَّما العمر كلّه أبحث عن الرجل المستحيل، حتى انقضى العمر ولم أجده. ويوم ظننت أنِّي وجدته، لحظتها سمعت الطلق الناري الذي اخترق القلب وكلّ الغشاوات المحيطة به. جرَّدني جوزيف من كلّ شيء، وتركني خاوية، فارغة، كالقصبة. موجوعة، لكنِّي لست نادمة إلى كلّ هذا الحدّ، لأنِّي مسؤولة عن كلّ ما فعلتُه، ولا أحمِّل أحدًا مسؤوليَّة مسلكي القاتل، طريق الخراب الذي مشيت فيه من دون أن ألتفت ورائي، ظنًّا منِّي أنِّي كنت أسير في طريق الحرير. لم أكن قدِّيسة على الرَّغم من أنَّ والديَّ اجتهدا لذلك. لو قادني القدر نحو ذراعَي جبران، كنت طحنته بغيرتي وافترقنا بسرعة بشكل بائس وحزين، وحقد لا يُمحى. نعم أنا سيِّدة الأقدار الحارقة. Je suis la femme fatale qu'on ne peut évite. لا يوجد الفراق السعيد. رجل نشأ في الحرِّيَّة ومات فيها، لا يمكنه أن يُدرك حرائقي مهما تواضع معي. كان سندي وصديقي وأخي الذي لم تلده أمِّي، وحبيبيَ الآخرَ. موته

دمَّرني. ماتت بعده كلّ الأشياء، حتى الحياة. نخطئ إذ نظنّ أنَّ من منحتهم الأقدار لنا طواعية، هديَّةٌ أبديَّةٌ وأنَّها لن تأخذهم منَّا أبدًا. للحياة مزاجُها المجنون الذي لا أحد يعرف سرَّه. جاء موت أمِّي ليعرِّيني من كلّي، ويطوِّح بي بكلِّ قواه، في شوارع المدن الكئيبة. كانت أمِّي سيِّدةَ الأناقة والجمال والحبّ. منحتني كلّ شيء، بما في ذلك عِقْدُها، عِقدُ جدَّتها من اللؤلؤ النقيّ الآتي من بحار الخليج، وخرجت من هذه الدنيا. تمتمت وهي تطوِّق رقبتي به: سيحميك يا عذرائي، من الأرواح الشرِّيرة.

فجأة وجدتُني وحيدةً في عالم شعرت يومها بأنَّه لم يكن لي. تصرخ امرأة في أحد أجنحة العصفوريَّة: حراااام يا ربِّي. حراام أن تنظر كمن يتسلَّى، ولا تصرخ مثلما فعلتَ مع سيِّدنا المسيح. ألم يكن بيدك أن تنقذه من قبلة الخيانة، وحراب الروم؟ حرام. لماذا تركتهم يقتلون حبيبي ويرمونه من أعالي جبل الثلج؟ قتلوني إذ قتلوه. أحاول عبثًا ألَّا أسمعها.

العزلة موت بالتقسيط.

أحتاج إلى أن أقرأ وأكتب، لكي لا أموت اختناقًا. أن أغفو أكثر ولا أستيقظ.

لم أكن امرأةً خارقة. امرأةٌ عاديَّة، مثل الشمس والماء والهواء ليس أكثر. كلّ أبوابها كانت مفتوحة على النور، فانسدَّت فجأة بدون سابق إنذار، حتى بابها الطفوليّ الأوَّل الذي لم يكن سعيدًا دومًا، أُغلق حتى لا أهرب منه كلَّما انتابني خوف من هذه الغابة.

لم تكن مدرسة الراهبات اللعازاريّات في الناصرة مخيفةً فقط،

ولكن متحكِّمة في مصائر الأطفال الآتين إلى الدنيا بفرح، فيُغلَق عليهم في علبة. أهل الناصرة عادة، يسجنون أبناءهم في الدين، وهم لا يدرون أنَّهم يقتلون جزءًا من حرِّيَّتهم وعفويَّتهم، وحتى إنسانيَّتهم، قبل أن يكبروا، تكون كلّ الحيطان التي ربُّوها فيهم قد التقت وتشابكت وانغلقت. ويموت اللبلاب الذي يتسلَّق وينتشر عليها بحرِّيَّة، ويجفّ نهائيًّا، ثم يصبح خيوطًا وحبالًا خانقة.

تلك مي.

تلك أنا المرهَقة من تبعات الربّ وحسابه الشنيع الذي أخافوني به منذ اللحظة الأولى.

مع أنِّي لم أفعل في حياتي ما يُغضب الربّ أبدًا. دين أمِّي كان جافًّا، ودين أبي لم يكن أقلّ. في كليهما لم أجد ما ركضت وراءه طوال حياتي: الحرِّيَّة. ربَّما تتشابه الأديان كلّها في هذا.

هذه الطفلة التي فتحت عينيها[1] في قرن الحروب الكبرى، والفتوحات العلميَّة الباذخة، هي أنا. فقد كبرت في فراغ الرياح وخوف الأيادي الناعمة للأخوات اللواتي كنَّ ينزعن منِّي كلّ اشتهاء ينشأ في داخلي.

لم تكن في رأسي مدينة أخرى سوى الناصرة. الناصرة التي صنعتها بالفرح وأشواق الغياب. كنت سجينتها. أحببتها. لم أكرهها حتى عندما قست عليّ. هناك مدن تَشَكَّلْنا من تربتها. تمنحنا عطرها وعاداتها وألوانها وأصداءها كلَّ يوم، من الفجر حتى آخر الليل.

(١) ١٨٨٦.

نمنحها العفويَّة وسحر الطفولة. من حين لآخر تجرحنا بسكّين حادَّة، فينزل من أجسادنا وأعماقنا دمٌ أسودُ، وتمنحنا الخوف والأسئلة المستعصية. ونظلّ العمر كلّه نبحث عن ظلٍّ فيها نستكين إليه أبديًّا. حتى والدي وهو يبتعد بي من أرض فلسطين تجاه بيروت، لم يفكِّر في شيء بديل، سوى وضعي في داخليَّة مدرسة راهبات الزيارة في عينطورة. كان يُدرك جيِّدًا أنَّه كان يحاصر قلبي بالمعادن الخشنة، وبلغة الموت والاستغفار الدائم. وبدل أن يضع في جسدي نورًا سخيًّا، منحه مساحة إضافيَّة من الموت والظلمة القاسية، لم أكن في حاجة لها لأستقيم وأقي نفسي من مزالق الأخلاق.

قال أبي وهو ينظر إلى عينَيَّ الحائرتين:

ـ أنت بأحلى داخليَّة. الدراسة والأمان والاستقامة.

ـ معك حقّ يا با. بس شو الاستقامة. أنا مستقيمة.

ـ أنت مستقيمة لكنَّك لست العذراء. أريدك أن تكبري في حبِّها وظلِّها.

ـ ما فيه حدا يا با، يمكن يشبه العذراء.

ـ كوني فقط بالشكل الذي يُرضيك ويُرضيني، ويُرضي أمّك على الخصوص.

ـ سأكون يا با بمشيئته.

في النهاية لم أكن إلَّا أنا.

كنت أتمنَّى أن أقول له من كلّ قلبي. اتركني يا با على سجيَّتي الأولى، فقد وُلدت حرَّة، على تربة حرَّة، وتأكَّد أنِّي لن أختار إلَّا

الحياةَ. الحياةُ وحدها بكلِّ حقائقها وأوهامها، كانت رهانيَ وحبِّي الأوحدَ. عندما كنت أقرأني في أوقات فراغي، لا أجد شيئًا شدَّ اهتمامي مثل الحياة والحرِّيَّة.

ـ ٢ ـ

أين أنا إذن؟

الجحيم رتبة من مراتب الكوميديا الإلٰهيَّة؟ أين أنا، أصعد نحو التلاشي، أم أنحدر نحو التآكل؟ أم لا هذا ولا ذاك، الصعود إلى أسفل. تنطبق هذه المفارقة عليّ تمامًا. من السماء التي كنت ألمسها كلّ صباح إلى لا شيء. أعتقد أنَّ هذه الحالة لا توجد إلَّا عندنا. كأنَّ المجتمع كلّه كان يتربَّص بي. لا عدوَّ له إلَّاي.

عندما أسمعهم وهم يتسابقون على النعوت، أخجل من نفسي.

لقَّبني وليُّ الدين يكن بملكة دولة الإلهام. خليل مطران بفريدة العصر، ومصطفى صادق الرافعي بسيِّدة القلم، وشكيب أرسلان بنادرة الدهر، ويعقوب صرُّوف بالدرَّة اليتيمة، والأب أنسطاس الكرمليّ بحيلة الزمان، والشاعر شبلي الملَّاط بنابغة بلادي، ومصطفى عبد الرازق بأميرة النهضة الشرقيَّة، وفارس الخوري بأميرة البيان، وعبد الوهَّاب العزَّام بالنابغة الأديبة. . . يمكنني أن أعدّ الألقاب التي انطفأت فجأة يوم سرقوا منِّي قلبي. الوحيدون الذي ظلُّوا ينادونني باسمي بلا زوائد، هم المستشرقون، لويس ماسينيون، كارلو ألفونسو نالينو، جوزيف شاخت، الكوندي دي غلارزا، ويندل كليلاند رئيس الجامعة الأميركيَّة بالقاهرة.

الجمل عندما يَنِخُّ، يكثر ذبّاحُوه، والتماثيل عندما تنحني، تنكسر.

لماذا لم ينفعني أيّ لقب من هذه الألقاب؟ لماذا تخلّى عنّي جميع الذين منحوني إيّاها باستثناء الأموات؟ بهذه السرعة الغريبة، وكأنّي لم أكن؟

يقتلني الكلام. يحييني الكلام.

أشعر أحيانًا أنّي ظالمة، وغير عادلة في أحكامي.

لم يكن كلّ شيء أسودَ.

لا أدري لمَاذا لا أرى من القنّينة إلّا منتصفَها الفارغ؟ لماذا لا أرى الجهة العامرة؟ أضحك. أضحك في ظلامي. ينتابني وجها أبي وأمّي، فأصمت، وأكتفي باقتفاء خطواتهما في هدوء وسكينة. شوي شوي *يا با. الله يرضى عليك، تعبت من الركض وراءك*. أكاد أصرخ من شدَّة التعب، وأنا أركض وراءه بين المدارس. يمشي ولا يلتفت؟ هل كان أبي يسمعني ويتعمَّد ذلك لكي أستعمل مخزوني المخبَّأ من الطاقة المتخفِّية؟ ربَّما. كلامه يجعلني أقول. نعم كان يتقصَّد ذلك. كان يكرِّر دائمًا عليَّ الجملة نفسها: *فينا شيء كامن يا ماري، لا نراه لكنَّه موجود، وعلينا أن نوقظه في اللحظات الأصعب التي تحاذي اليأس*. لم أسأله عن التفاصيل على الرَّغم من أنّي أعرف جيِّدًا رأيه.

أركض وراءه، حتى ألحق به.

ـ *ما قلت لك إنَّك قادرة على اللحاق بي وتجاوزي*.

مشكلتي الوحيدة أنَّ عقلي ظلّ منفصلًا عنّي، حرًّا كما عصافيرُ الجليل.

حبّ والدَيَّ كان كبيرًا، وحبِّي لهما كان أكبر، لكنَّه مع الزمن، أصبح حبِّي أقلَّ من أوامر ودروس الابتدائيَّة في مدرسة الراهبات اليوسفيَّات[١]، في مدينة الناصرة، ثم في داخليَّة عينطورة[٢] في جبل لبنان، ثم في مدرسة الراهبات اللعازاريَّات[٣] في بيروت. كانت الضوابط ثقيلة وقاهرة لنداءات الداخل. وجَّهوا حبِّي للربّ، أكثر من حبِّي لوالديّ.

لا، للقنِّينة وجهٌ آخر أكثر امتلاءً.

لمَّا كنت تلميذة في مدرسة الراهبات بعينطورة، كنَّا نكلَّف بإلقاء خطب، تساعدنا المعلِّمات على إنشائها. كان هذا يدفعني إلى التأليف، والمشاركة، والمغامرة في إلقاء الخُطَب التي تميَّزتُ فيها بالفرنسيَّة وبعدها بالعربيَّة، إلى يوم ظفرت بالجائزة الأولى في الإنشاء في هاتين اللغتين. ولمَّا ذهبنا إلى مصر، وتسلَّم والدي تحرير المحروسة، أخذت أنشر فيها بعض المقالات. وشرعت في تحسين لغتي العربيَّة أكثر، من أجل الكتابة وليس الخطابة فقط. لم أقطع علاقتي باللغة الفرنسيَّة، فقد كانت وسيلتي للتخفِّي والفرح، وقول ما لا يُقال، عندما كتبت ديواني الأوَّل[٤] *أزاهير حلم*، باسم مستعار، إيزيس كوبيا. الفرنسيَّة كانت سرِّي اللغويّ الكبير الذي تتخفَّى فيه كلّ آلامي من حبِّ جوزيف وخيبته. لمَّا قَدِمَ الطيَّار الفرنسي فيدرين إلى مصر، طلب منِّي أن أُلقي شيئًا لاستقباله. ألقيت بدل الخطب

---

(١) من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٨٩٩.

(٢) من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٠٣.

(٣) سنة ١٩٠٤.

(٤) Isis Copia, Fleurs de rêves. 1911.

التقليديَّة، نشيدًا بالفرنسيَّة نشرته الكثير من الجرائد العربيَّة والفرنسيَّة. شجَّعني هذا على المضيِّ في التحرير والكتابة. بعض الصُّدف فيها من الإدهاش ما يريح ويجعلنا نفتح أعيننا عن آخرها. بل تغيِّر مصائرَنا كلِّيًّا. حدث أن احتُفل بتكريم الشاعر خليل بك مطران[1] بمناسبة إنعام الخديوي عليه بوسام سامٍ، وكان جبران خليل جبران قد بعث بخطبة في الحفلة لتعذُّر مجيئه، فوقع الاختيار عليَّ لإلقائها. فوجدتني في مجمع حافل من الأدباء. أنا الصغيرة الخجولة، تخطَّيت الحمرة التي علت وجهي. ألقيت كلمة جبران، ثم عقَّبت عليها بكلمة من تأليفي. استغرب الناس، من هذه الفتاة الصغيرة التي تعتلي المنصَّة بلا خوف، وتلقي كلمتها ببلاغة عالية؟ هتفوا لي هتافًا كبيرًا، جعلني أزهو بنفسي. انتشيت بقوَّة وأنا أرى الأيادي ترتفع صوبي، لدرجة صرت أحلم بأن أكون أديبة كبيرة. ألم يكن جبران إنسانًا عاديًّا، قبل أن يصبح إلٰهًا صغيرًا؟

لم يكن جبران حبيبي الذي أسرتني كتاباته، كان أمانيَ، وحائطي اللغويَّ.

لا أعرف ما الذي حدث لأجدني ملتصقة بقلبه مرَّة أخرى بعد أن دفنته في قلبي، قبل دفنه في كلماتي وتربته البعيدة؟

لمسة خائنة أحدثت فجوة في أعماقي يصعب رتقها أو ملؤها. بريتُ قلمَ الرصاص وفتحت الكرَّاسة عن آخرها.

لا أدري ما الذي قادني نحو جبران في هذا الليل الهادئ، والمليء بالسكينة.

---

(١) كان في سنة ١٩١٣.

لقد مات مخلِّفًا وراءه خرابًا لا يمكن فهمه بسهولة.

انتابتني شهوة لم أكن قادرة على مقاومتها فقط للكتابة له، كما لو كان حيًّا.

من بين كلّ الذين عرفتهم، وحدك كنتَ هناك، في ذلك الأفق البعيد، علامة نور تختلف عن كلّ شيء، حتى نفسك، كما عرفتك في البداية. كنتَ ترتدي لباسًا من غيم وأشعَّة. لم أتبيَّن وجهك أبدًا من شدَّة الهالة التي كانت تحيط بك. أتَّجه نحوك بحثًا ليس عنك فقط، لكن عمَّا تخفيه في الأعماق لي. هل بقي شيء لي بعد كلّ تلك النسوة؟ ليس المهمّ أن تحبّني، الأهمّ أن تكتب لي، وتحسِّسني بأنِّي امرأة يمكنها أن تصبح حبيبتَك الأبديَّة. عاشقة، معشوقة، مجنونة بسبب رجل أشعرها بوجودها ثم جنَّنها. حلمي الأكبر كان أن أصبح كلَّ شيء لرجل واحد، كما كانت كامي لرودان، قبل أن يقهرها بيقينه المميت والقاتل.

أنت لم تمنحني تلك الفرصة وسط جيشك النَّسويّ إيميلي متشل، ميشلين، ماري هاسكل، جوزفين بيبودي، شارلوت تيلر، سلطانة ثابث، مارييت لوسن. أين مكاني حبيبي في هذه الحديقة المعطَّرة؟ كان كلّ شيء فيك محتلًّا من نساء أخريات. عندما صمَّمت أن أركض نحوك فقط لأضمَّك، وأرى الشهوة في عينيك، تسرَّبتَ من كفيّ ومن بين أصابعي، أو لنقل سبقتني لأنِّي أنا أيضًا كنتُ بين موتين. الموت الذي تبع وفاتك المبكرة. الأحباب يموتون دائمًا مبكرًا يا جبران، حتى لو عشنا قرونًا بصحبتهم، والموت بالتقسيط الذي أنا فيه، يوقظني كلّ صباح، ويقتفي خُطايَ قبل أن يجهز عليّ يومًا ما، وفي منِّي ومن

الجميع. كلّ يوم يمضي أقول له شكرًا إنّك أخفقت في سرقة روحي. كم من مرّة تعلّقت الكلمات في حلقي لأقول: تعالَ اسرقني إليك. أعتقد أنَّ العقّاد على الرَّغم من كلّ أنانيّته وغيرته المجنونة من كلّ ما كان يحيط بي من رجال ولغاتهم، ومنك تحديدًا، كان محقًّا حينما قال لي يومًا: *إذا أردتِ أن تعيشي مزّقي هذه الغشاوة الوهميَّة. اقتلي كلّ ما يسرق حرِّيَّتك*. لم يكن قادرًا على معرفة أنِّي أنا أيضًا كنت أحتاج إلى رجل يمزِّقها بحبِّه وجبروت قوَّته العاطفيَّة. رجل عاصف، يحبُّني، ويستطيع أن يفعل بالغشاوة ما يشاء، ويرتقي بي نحوه، ولا يمنحني لبوس الندم والألم والخيبة.

ما الذي أتى به إذن في هذا الليل البارد دفعةً واحدة كالنهر الجارف؟

كلّ شيء بدأ من لحظة صنعها الآخرون قبل أن تصيبني بقوَّة.

هناك لحظات في الإنسان تصنعها الصُّدَفُ الغريبة هي من يرمي بالإنسان نحو مكان مضاء، أو نحو ظلمة داكنة.

من كان يظنّ أنَّ الطفلة التي أدهشت الكثيرين في عزِّ الربيع الساحر لن تتوقَّف عن بلاغتها وسحرها؟ في عزِّ ضجيج حرب عالميَّة حارقة، كبرت بسرعة. كانت سعيدة عندما صمَّمت أن تُعير صوتها لجبران الغائب، بقراءة رسالته في تكريم صديقه خليل مطران، بمناسبة تقليده وسامًا هامًّا من الخديوي عبَّاس حلمي، في سرايا الجامعة المصريَّة القديمة، وحضره نيابة عن الخديوي، شقيقُه، الأمير محمَّد، وكبارُ السياسة والأدب: التفت الأمير نحو نديمه، قائلًا: *يسرّنا وجود الشاعر البعلبكيّ في بلادنا، وسوف نقرِّبه، وزاد بعد دقيقة بصوت*

منخفض: إنَّما الشاعر طائر غريب المزايا، يفلت من مسارحه العلويَّة، ويجيء نحو هذا العالم مغرِّدًا، فإن لم نكرّمه، يفتح جناحيه ويعود طائرًا إلى موطنه[1].

في الحقيقة، سليم سركيس، هو صاحب فكرة توريطي تلك الورطةَ الجميلة، التي جاءت بعدها هزَّات حياتيَّة لم أكن أتصوّرها. فقد وقع اختيار صاحب مجلَّة سركيس عليّ لإلقاء كلمة جبران. لا أدري من أين ولا كيف جاءه هذا الحماس الذي منحني فرصة أن أكبر بسرعة.

ـ لا بدَّ من مي، ولا أحد غيرها. صوتها جمع بين النعومة والثقة.

ـ نعم. وسيكون جبران سعيدًا أن تقدِّمه امرأة من كاره نفسه. ويقدِّرها جدًّا.

لم يكن أحد يعرف باستثناء والدي الذي علَّمني فنون الخطابة، أنِّي كنت خطيبة حقيقيَّة. فقد وقفت للمرَّة الأولى[2] في حياتي أمام كوخي الأخضر، في ضهور الشوير في جبل لبنان، وألقيت خطبة احترمت فيها كلّ الوقفات والتفخيمات التي علَّمها لي والدي ومعلِّمي في مادَّة اللغة العربيَّة.

كان عليّ أن أكون مسؤولة في قراءة رسالته كما لو أنَّه هو من قرأها، في الحفل الكبير الذي أُقيم في بهو الجامعة المصريَّة بمناسبة الإنعام عليه بالوسام الرفيع.

---

(١) مي زيادة، *كلمات وإشارات*، ص ٢٤.
(٢) ١٥ آب/أغسطس ١٩١١.

قبل سنة واحدة من هذا الحدث، وبشكل غريب، كنت قد بعثت رسالة لجبران أعترف له فيها بسلطانه الكتابيّ عليّ. مصيري مع الرسائل خطيرٌ. كلّ رسالة سحبتني نحو دوار لا أخرج منه إلّا بصعوبة كبيرة. يوم كتبتها لم أكن أعرف أنّ تلك اللحظة التي خططت فيها حروفي الأولى لجبران، ستضعني تحت قدم إلٰه حرّ، لم أكن قادرة لا على احتوائه، ولا حتى على مجاراته بعدما قرأت له *الأجنحة المتكسّرة*(١). عندما أقرأ رسالتي له اليوم، أجدني شديدة الغباء. كان الرجل بعيدًا بسنوات ضوئيَّة عن كلّ ما كان يحيط به: *أشاركك في المبدأ الأساسي القائل بحرِّيَّة المرأة. كالرجل، يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرِّيَّة بانتخاب زوجها من بين الشبَّان، تابعة بذلك ميولَها وإلهاماتها الشخصيَّة، لا مكيِّفة حياتها في القالب الذي اختاره لها الجيران والمعارف. حتى إذا ما انتخبت شريكًا لها، تقيَّدت بواجبات تلك الشراكة تقيُّدًا تامًّا. أنت تسمِّي هذه سلاسل ثقيلة حبكتها الأجيال، وأنا أقول إنَّها سلاسل ثقيلة، نعم، ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة ما هي. فإن توصَّل الفكر إلى كسر قيود الاصطلاحات والتقاليد، فلن يتوصَّل إلى كسر القيود الطبيعيَّة.*

كم كنت بعيدة عنه في تلك الرسالة الأولى المرتعشة والمتيقِّنة من خرافاتها التي أبطلت الحياة مفعولها. غبيَّة.

كان جبران رجلًا ضبابيًّا ومتّسع الصدر.

إلٰه من غيم ومطر وعواصف، لم يكن عاديًّا، وكنت عشبة خضراء، في مهبِّ الدين واليقين.

---

(١) نشرها في ١٩١٢ في المهجر.

ألعن أحيانًا تلك العلاقة مع الأدب من أين جاءتني. كان يمكن أن أتحوَّل إلى صحفيَّة نشيطة كما كان أبي يريدني.

تلك الليلة[1] الربيعيَّة كانت مدهشة. كانت حاسمة في تكويني. غيَّرت كلّ شيء في نظامي الحياتيّ.

كان حفلًا كبيرًا، أرى اللحظةَ كلَّ تفاصيله ووجوهه. وزير المعارف، حشمت باشا. والعالم اللغويّ الكبير توفيق رفعت، وعبد الوهاب باشا آل قرطاس، مبعوث البصرة، وعلي صادق، وكيل محافظة القاهرة، وإدريس بك راغب، السياسيّ الكبير، ونعُّوم بك شقير، مدير قلم التاريخ في حكومة السودان. كان الحفل حدثًا، وكان عليَّ أن لا أخطئ في أيَّة حركة. ذلك يعني الموت بالسكتة الفجائيَّة.

افتُتِح الحفل الكبير بالترحيب الاعتياديّ.

ـ وإنَّنا إذ نرحِّب بأساطين الفكر ورهبان القلم، حَمَلَةِ مشاعل المعرفة من كبار الكتَّاب والأدباء، وأهل الفكر والثقافة والصحافة والسياسة، والدين، من شتَّى بلدان العالم العربي والآن نحن على موعد مع أحد حرَّاس الفكر ورعاة الأدب. ليتفضَّل صاحب السعادة سموّ الأمير محمَّد علي توفيق باشا، نيابة عن مولاي الخديوي عبَّاس حلمي الثاني. وحين يكون عرس الليلة من أجل خليل مطران، فلا بدَّ من أن يشارك بالكلمة أحبَّاء، وعشَّاق مطران ورفاق رحلته مع الكلمة الرقيقة. نعتزّ بلا حدّ بالأرجوزة الرشيقة التي أرسلها من المهجر الشاعر الفنَّان الأديب المعجزة، جبران خليل جبران. فقد بعث أيضًا من بوسطن بأميركا، برسالة عنوانها *الشاعر البعلبكي*. ومن هنا، من

---

(١) ليلة ٢٤ نيسان/أبريل ١٩١٣.

سرايا الجامعة المصريَّة تشدو لكلماته بيننا، الأديبة الشابَّة رقراقة الكلمات، عذبة الحديث، آسرة الجميع، الآنسة مي.

قرأت، وكنت مثلَ طير في الفضاء الواسع، لا قوَّة تمنع تحليقه.

في ذلك اليوم وُلدتُ.

كان التصفيق بلا حدود لدرجة أن بقيت زمنًا طويلًا واقفة وأنا أحاول أن أكتم دموعي التي فاضت بعد الإلقاء.

كان أبي في أقصى درجات السعادة يومَها، وهو يقرأ بصوت مسموع من صحيفة *الأهرام*، عن النشاط وعنِّي، بينما ظلَّت أمِّي الحبيبة نزهة غارقة، تقرأ *المقطّم*، *والمؤيِّد*.

اسمع يا إلياس شو عم بتقول الجريدة: مي *أخذت بمجامع القلوب، وحرّكت العواطف، فاستعاد الحضور جُملَها البهيَّة، وعباراتها الرقيقة*. يحكون عن مي أكثر من مقتل الدبلوماسيّ الإنجليزيّ.

ـ الاحتلال أقسى شيء على الشعوب، يا نزهة. يتحمَّل الناس ثم فجأة تصير مو فارقة معهم. يرمون بأنفسهم في أتون النار وحرائقها التي تتَّسع رقعتها بسرعة. اليوم دبلوماسيّ، وغدًا ثورة بلا حدود.

كنت سعيدة بتصريحات من حضروا، لكنِّي كنتُ في أعماقي، مشدودةً إلى شيء آخر.

ـ بدِّي أعرف بس شو كتب عنِّي لطفي السيِّد.

فهَّمني أبي بسرعة.

ـ لطفي السيِّد بيقول التالي: ألقت مي خطبة بليغة، لا يعرف أيّهما كان له الحظّ الأكبر والتأثير. بلاغة الخطبة أم فصاحة الخطيبة وحسن إلقائها.

ـ يا الله، كم هو كبير هذا الرجل.

تلك كانت وسيلتي الجميلة لأقول لجبران، إلٰهي الصغير، كم أنت كبير في حضورك وفي غيابك.

وجدتني فجأة في مدار رجل موزَّع بين نسائه وحبيبته الوحيدة، الحرِّيَّة، مات وهو يحضنها في أميركا.

كانت له نساؤه وكانت لي أوهامي، لهذا توقَّفت[1]، لأكون لنفسي. وتوقَّف هو بكلمة حفظتُها عن ظهر قلب: الأفضل أن نبقى هنا. هنا في هذه السكينة العذبة. هنا نستطيع أن نتشوَّق حتى يُدنينا الشوق من قلب الله[2].

عاش بين عشرات النساء مغتنمًا شهواته وجنونَ ألوانه، وعشت بين عشرات الرجال اشتهوني، دفعةً واحدة. رجال كانوا بصدد صناعة عالم جديد، كلَّما اقتربت منهم، صغر الكثير منهم. كنت مدركة للعبة الشهوة التي سجنتها في أعماقي مدارسُ الراهبات. اكتشفت وأنا بينهم في الصالون، أنَّ هذا العالم الجديد الذي كانوا يبشِّرون به ليلًا نهارًا، محكومٌ عليه بالموت اختناقًا، اليوم أو غدًا أو بعد مائة سنة، ما دامت المرأة لا سلطان لها فيه، ولا تشترك في صناعته. تمنَّيت أن أصرخ بقوَّة حتى تتقطَّع حبالي الصوتيَّة: أيُّها الرجل، لقد أذللتَني، فكنتَ ذليلًا. حرِّرْني تكن حرًّا[3]. لكنَّه لم يكن يسمع إلَّا لأنانيَّته ولحداثة جبانة صنعها عل مقاسه. كنت أدرك أنَّ سنونوة واحدة لا تصنع

---

(١) بدأت هذه المراسلات بينهما، في سنة ١٩١٤، وتوقَّفت في سنة ١٩٣١.
(٢) رسالة جبران إلى مي مؤرَّخة في تشرين الأوَّل/أكتوبر ١٩٢٣.
(٣) *كلمات وإشارات*، ص ٤٠ ـ ٤١.

ربيعًا[1]. من يشكّك في لطفي السيِّد، إسماعيل صبري، أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، خليل مطران، عبّاس العقّاد، صادق الرافعي، أحمد زكي، رشيد رضا، مصطفى عبد الرازق، سلامة موسى، شبلي شميِّل، إسماعيل مظهر.

عندما انتهيت من قراءة رسالة جبران على مسمع الجميع، اندهشت من الناس الذين صفّقوا لي بقوّة.

أفرحني كثيرًا أنِّي أصبحت فجأة مهمّةً وامرأةً في المدار، عندما قام الأمير محمَّد علي توفيق، وصافحني. ما أزال أذكر كلمته الكبيرة التي أخجلتني. صغيرة، ولم أكن مهيَّأةً لهذه المجاملة. هو لا يعرف ماذا فعلت كلمته فيّ:

ـ آنسة مي. إنَّنا نهنِّئ أنفسنا بك.

كبرت بسرعة كفاكهة سرقت منها العديد من مراحل النضوج. عندما رأيتني أتضخَّم من خلال الجرائد التي تحدَّثت عنِّي كثيرًا، ومن خلال ألسنة الكثير من كبار الأمَّة، خفت. خفت جدًّا أن أتحلَّل مثل السمكة من رأسها. كان عليَّ أن أرمِّم كلّ الهزَّات العنيفة والشروخ التي أحدثتها الشهرة المبكرة.

الحياة في النهاية ليست ما يظنُّه فينا الآخرون، حتى ولو كانوا صادقين، لكن ما نصنعه بها نحن.

أخرجني فجأة من غفوتي، الصوت المجروح والمبحوح، الذي كان يأتي من ناحية مباني الأقواس.

---

(١) مثل فرنسي. Une hirondelle ne fait pas le printemps

ـ حرااااام يا ربّي. حراام أن تنظر إليّ كمن يتسلّى، ولا تصرخ، تمامًا مثلما فعلتَ مع سيِّدنا المسيح. لماذا؟ ألم يكن بيدك أن تنقذه من قبلة الخيانة، وحراب الروم؟ حراااام. لماذا تركتهم يقتلون حبيبي ويرمونه من أعالي جبل الثلج ليتحوَّل إلى أجزاء أكلتها الذئاب الجائعة؟ قتلوني إذ قتلوه يا ربِّي. ماذا فعلتُ يا الله، سوى إنِّي عاقبت القاتل حيث مقتلُه، في غياب صرامتك؟ كنتُ رحيمة. لم يتألَّم، كانت شفرة الموسى حادَّة.

أحاول عبثًا ألَّا أسمع ألم إيزميرالدا، فألتفتُ صوب الحيطان الحجريَّة العارية، لكنِّي لا أفعل شيئًا آخر سوى سماعها.

كانت صرختها اليائسة أصدق من غيمة ممتلئة.

ـ ٣ ـ

مدَّت بلوهارت يدها بعد أن أنهت دورتها الصباحيَّة، نحو الكتاب الذي كان ينام على الطاولة الصغيرة: مراسلات كامي كلوديل. هي من أتى لي به من مكتبة العصفوريَّة. تأمَّلته قليلًا، ثم أرجعته إلى مكانه.

سألتني.

ـ هذا الصباح بدوتِ لي أفضل، وهادئة بعد عاصفة الأيَّام الأخيرة. يجب أن يتوقف هذا التعذيب.

ـ تتَّفقين معي أنَّه تعذيب.

ـ ما دام فيه رفضٌ منك للأكل، نعم. ما يُفرَض عليك بالقوَّة، حتى ولو كان من أجل الحفاظ على حياتك، لا يمكن إلَّا أن يسمَّى كذلك.

ـ أنا أعرف أنَّ قلبك صادق وحيّ، لهذا أسمعك جيِّدًا. ظلموني يا بلوهارت. ظلموني جدًّا لدرجة أن حوَّلوني إلى مجنونة. إلى الآن لست مؤمنة بأنَّ ما حدث لي هو مجرَّدُ صدفة. ترتيب جوزيف لم يكن عَبَثًا. لقد استولت العائلة على كلّ شيْ. لو غادرتُ اليوم العصفوريَّة، لن أجد ما آكله. كلّ شيء أصبح محرَّمًا عليّ؟ الحَجْر الذي وقَّعت عليه أمام الباشكاتب، لا يمنحني أيّ حقّ. حتى أصدقائي تخلُّوا عنِّي. وبدل أن يدافعوا عنِّي، راحوا يكيلون لي التهم القاسية. وجعلوا من كآبتي مادّتَهم لذبحي. كنتُ مأدبتهم المفضَّلة في جلساتهم الواسعة.

ـ أعرف هذا كلّه يا مي. لكنْ بإضرابك عن الطعام، كنتِ تخدمين أعداءك. وتمنحينهم فرصة قتلك على طبق من ذهب. أوقفي الإضراب عن الأكل نهائيًّا واخرجي من حكاية الإضراب الجزئيّ. عودي إلى حياتك الطبيعيَّة. انسَيْ أنَّك كاتبة، وأنَّهم سيعرفون الحقيقة من تلقاء أنفسهم. الجَمَل عندما يَنِخّ، يكثر ذبَّاحوه. يمكنك أن تغيِّري هذه الخيارات الانتحاريَّة، نحو شيء آخر أجمل.

ـ سوزي حبيبتي أشعر بأنِّي مقتولة في الصميم، ومظلومة جدًّا.

ـ الظلم لا يواجَه بانتحار يسهِّل الحياة على قاتليك. هناك حلول أجمل وأبهى.

ـ وماذا عليّ أن أفعل.

ـ إنَّ من نَحَرَك هم خارج العصفوريَّة، في لبنان وخارجه. الكثير من الجرائد تتحدَّث عن كاتبة انتهت إلى الجنون، ومتحمِّسة أن تنزل المانشيتات عن جنونك وعن قتلك الأطفال وعضّ الحديد. كلام لا معنًى له نقرأه يوميًّا. أنا مؤمنة بك، لهذا أريدك أن تثبتي للآخرين أنَّك

في كامل قواك العقليَّة، وأنَّك ظُلمت. وأكون أنا وسيطك في هذه الرحلة الشاقَّة. أوصل بريدك أو آتيك به إلى كلّ من تريدين، في بيروت وضواحيها.

ـ الصحافة باعتني يا سوزي، وخيرة أصدقائي ولّوا وجوههم عنّي صوب الفراغ. كنت أحسب حسابهم، لكنَّهم تخلُّوا عنِّي، فشككت في صداقتهم؟ ماذا لو كتب طٰه حسين عنِّي شيئًا صغيرًا، سطرين لا أكثر، حبًّا في هذه الصداقة؟ ماذا لو كان العقَّاد وفيًّا لحبٍّ نبت كبيرًا، قبل أن يموت بسرعة، قتلته غيرته المميتة من جبران؟ كانت حديثنا المريض في كلّ مكان. بعد أن قرأت فصوله، انتابتني جفوةٌ تجاهه. رأيت تفشِّي غيرته بوضوح. قلتُ له صراحة وهو يسخر من كتاب *المواكب* لجبران: *لاحظت قسوتك على جبران. لم تكن لا نبيلًا ولا موضوعيًّا.* انتفضَ صارخًا محاولا أن يكتم غيظه: *ماري حبيبتي، العكس هو ما يفاجئني، أمَّا أن تدافعي عنه، فذاك أمر طبيعي.* ثم ماذا لو انتفض لطفي السيِّد الذي كنت أعرف إخلاصه وقلبه الجميل؟ لماذا صمت الرجل الذي علَّمني الكثير، يقول لي إنَّه جُنّ بي، مصطفى صادق الرافعي؟ ووو أيعقل أن يكونوا كلّهم مثل بعض؟ كيف استسلموا لصحافة كاذبة وهم أعرف الناس أنِّي لم أكن مجنونة؟ متعَبة جدًّا نعم. لكنِّي أقاوم السقوط في هذا الجنون الذي فصَّله لي جوزيف على مقاسه ومقاس العصفوريَّة.

ـ وعلى الرَّغم من ذلك، هناك صحافة تناصرك على قلَّتها. إذا كنت تثقين فيّ، سأكون في خدمتك خارج هذه القلعة. وستلاحظين أنَّ العالم سيتغيَّر بسرعة. يجب أن يوضع الناس أمام ضمائرهم.

- من يسمعني بعد كلّ هذه الحملة المسعورة.

- هناك دومًا شخص معنيٌّ بك، ربَّما لا تعرفينه. هل نسيت جهودك تجاه المرأة وحرِّيَّتها التي اعتنقتُها بحماس، واعتنقتها العشرات مثلي، من الشابَّات والشباب. هؤلاء يحملونك في قلوبهم. أعطيهم فرصة الدفاع عنك. وإضراباتُك المتكرِّرة لن تفيدك في شيء. بدأت تتحوَّل إلى فعل مكرَّر ستتعوَّدين عليه أنت نفسك بلا طائل، بعد أن تعوَّد عليه بعض أطبَّاء المستشفى والممرِّضات.

لاشعوريًّا وضعت يدي على كتاب مراسلات ***كامي كلوديل***. تأمَّلت وجه بلوهارت وعينيها.

- كم تشبه عيناها عينيك.

- هل كانت كامي كلوديل مجنونة؟ نسختان من مراسلاتها، كانتا في المكتبة. يوم طلبت الكتاب لك، استلفت النسخة الثانية. كنت أعرف أنَّك لم تختاريها هباءً. الغريب، وجدت شبهًا كبيرًا بينك وبينها. شيءٌ ما غامض كلِّيًّا، وضعُ هذه المصائر المتقاطعة في المسالك نفسها. حزنت لوضعها القاسي. لا أقول إنَّ مصيرها يشبهك، لكنَّها مثلك عانت وما زالت تعاني من ظلم مجتمع الضغينة. فنّانة في كلّ عقلها وبهائها، تُرمى في مصحٍّ عقليٍّ معزولٍ.

- أحبَّت رودان إلى درجة الجنون. صاحبة هذا المجسَّم الرخاميّ المقلَّد: *راقصو الفالس* هو لها، جاءني به القنصل الفرنسيّ في إحدى جلسات صالوني المخصَّصة للأدب والثقافة الفرنسيَّين، وكأنَّه كان يتوقَّع لي مصيرًا مشابهًا. في الحياة لحظاتٌ غريبة وإشارات لا نُدرك معانيها إلَّا بعد زمن. وربَّما حتى بعد فوات الأوان. لقد كان مقتنعًا داخليًّا بأنَّ شيئًا ما كان يجمعنا. أمّها وحتى أخوها ورودان رموها في

ذلك المكان العفن وتركوها تواجه مصيرًا قاسيًا لم تكن قادرة عليه. الله وحده يدري كيف ستكون النهايات.

في السنة التي وُلدتُ فيها، كتب لها رودان هذه الرسالة[1]. كم هي شبيهة برسالة جوزيف يا الله:

صديقتي المتوحِّشة.

رأسي المسكين مريض حقيقة. لا أستطيع القيام صباحًا. ركضت هذا المساء وراءك من دون أن أعثر لك على أثر ولا على أمكنتنا. ما أنعم الموت إذ يأتيني مع احتضاري الطويل. لماذا لم تنتظريني في الورشة؟ أين ذهبت؟ ماذا تخبّئ لي الأقدار من آلام؟ أمر بلحظات النسيان تغيِّبُ بعض آلامي، ولكنَّ اليوم أصبحت هذه الآلام ثابتة. كامي. حبيبتي. على الرَّغم من كلّ شيء، وعلى الرَّغم من الجنون الذي أراه قادمًا نحوي، بسببك، إذا استمرَّ الوضعُ على ما هو عليه. لماذا لا تصدِّقيني؟ سأترك صالوني، النحتَ، لو استطعت أن أذهب إلى أيّ مكان، إلى بلد النسيان، لن أتردَّد، لكن هذا المكان غيرُ موجود. في بعض الأحيان أشعر أنّي سأنساك حقيقة، ولكن في لحظة هاربة أشعر بالقوَّة العظمى. ارحميني أيّتها الشرِّيرة، لم أعد قادرًا على تحمُّل غيابك يومًا واحدًا. وإلَّا فالجنون القاسي هو مآلي. انتهى كلّ شيء، لا أعمل، ومع ذلك، فأنا أحبّك بجنون. حبيبتي كامي تأكَّدي أن لا امرأة لي أصادقها غيرك. وكلّ روحي مُلْكُك. لا أستطيع إقناعك وحججي واهية... على ركبتَيَّ أنحني أمام جسدك الآسر[2].

---

(١) ١١ شباط/ فبراير ١٨٨٦.

(٢) Camille/ Auguste, Je couche toute nue P: 51.

- هل كان يكذب بكلّ هذا الشجن؟

- لا أعرف ولكنّي عندما قرأت رسالته لعاملته وصديقته وحبيبته التي أنجب منها، روز بوري[1] التي كان يقول لها دائمًا *ملاكي الحبيب*، *في رسائله من بروكسل*، أحسست أنَّه يقول الكلام العاشق بلا مسؤوليَّة. هو ما دمَّر كامي كلوديل وجنّنَها، بينما ظلَّ كبيرًا وضخمًا، يعقد في الصفقات وينام مع عشيقاته وعاملاته من دون خوف ولا مَلَل.

- إلى هذه الدرجة وأكثر. يكاد رودان يكون إلٰهًا في النحت الفرنسيّ.

- إلٰه من جنون. أنا مؤمنة أنَّه لولا كامي كلوديل لظلَّ خشنًا في منحوتاته. هذَّبت ذوقَه وأنسنته، بينما دمَّرها ودفع من ورائها أهلَها بالخصوص أمّها التي كانت تكرهها، فقضوا عليها بوضعها في مستشفى المجانين. لقد قتلوا الذكاء والنورَ والرهافةَ والهشاشةَ يا بلوهارت. عندما أتأمَّل رسائلها الناعمة، وصُوَرَها، أشعر بألم شديد في القلب، تستحقّ كامي كلوديل مصيرًا أفضل من هذا.

أعادت بلوهارت السؤال من جديد:

- لهذا أكرِّر وأعاود: تنتحرين جوعًا من أجل مَن؟ ومن أجل ماذا؟ من أجل جوزيف؟ لا يستحقّ. خانك وباعك وحطَّمك، ورماك هنا، ثم انسحب وكأنَّ شيئًا لم يكن. نصيحة واحدة. كلّ الناس يتساءلون هنا ما الذي أتي بك إلى هذا المكان؟ أنت لست مجنونة، ولكن موجوعة، وهذا أفهمه. أوقفي الإضراب عن الأكل نهائيًّا يا

---

(١) Rose Beuret.

مي، وقاومي. طالبي بحقِّك بوسيلة أكثر تعقُّلًا وفاعليَّة. غير ذلك، ستعيشين حياة التكرار: صراخ، وشتائم، وقبح مدام شوكت، وحقنة المورفين الخشنة، رميك في غرفتك نصف ميتة، ثم النوم إلى أن يتعب مخّك وتدخلي في مرحلة الهذيان والجنون الحقيقيّ. هل أنت مستعدَّة للبقاء في هذا الوضع؟ عذرًا، أطلت كثيرًا، أعرف أنَّه ليس من حقِّي، لكنِّي أحبّك لهذا سمحت لنفسي بهذا الكلام. ما عدا ذلك، أنت سيِّدةُ مصيرك وشأنك.

ـ أريدهم أن يتوقَّفوا عن تعذيبي. لقد قتلوني يا بلوهارت.

ـ أعرف. لكنْ ليس لديَّ ما أضيفه، أنت سيِّدة قرارك. الانهيار العصبي ليس جنونًا، حالة لها مسبِّباتُها، لكن إهماله يمكنه أن يجعل الإنسان ينتقل إلى مرحلة أخطر، كما أظهر لك الحكيم النفسانيّ الدكتور غسَّان.

كانت عيناها تلمعان ببريق خاطف قبل أن تنهمرا دموعًا.

ـ حقيقي لا أملك غير هذا يا مي الحبيبة. نريدك حيَّة في معاركك النبيلة ضدَّ القَتَلة وأعداء الحرِّيَّة والخير.

ثم سحبتني من يدي بأصابعها الناعمة، وضمَّتني إلى صدرها. سمعت نبضات قلبها الطفولي.

أكثر من هذا، فقد شعرت بانتفاضة جسدها ودفئه ونعومته.

كم كانت بلوهارت قريبة ومهدّئة مثلَ مسكّن.

ـ ٤ ـ

يصفو قلبي من كلّ غيم. أراها بكلّ ملامحها.

لا أدري ما الذي أيقظها فيّ؟ ربَّما أصابعُها الناعمة، وجسدُها الحيّ.

شعرت بها فيّ، أقرب من همسة أو لمسة. بل إنِّي شممت فيها عطرَ صديقتي في عينطورة، هيلينا، التي تكبرني كثيرًا. كانت تمثِّل دور أمِّي. كانت كلّ يوم تقوم بشيء من أجلي، أو تأتيني بهديَّة ما. كانت تغار عليّ وتعاقب كلّ من تقترب منِّي بشكل مبالَغ فيه. هناك عادة عند راهبات عينطورة، وذلك بأن تُعيَّن لكلّ صغيرة دون الثانية عشرة، (أُمٌّ) من الفتيات اللواتي يكبرنها. ماما هيلينا كانت هي أمِّي. في قاعة الطعام أجد دائمًا درجي مملوءًا بالفاكهة والحلوى. في قاعة الدرس أجد تمثالًا للعذراء، أو منديلًا معطَّرًا وملوَّنًا. وكلّما فتحت كتابًا وجدت بين صفحاته أشعارًا ومقاطع من أغانٍ وجدانيَّة، وعلى وسادتي كلّ مساء زهرة. وتحتها ورقة عليها كلمة أحبّك. وكلّما كنت حزينة أخذتني للبيانو وشبكت أصابعي بأصابعها، وجسدها ملتصق بجسدي. ثم تلامسني وتقترب أكثر وهي تقول: لا، ليس هكذا العزف. تضع يدها فوق يدي وأنا أضغط على مَلامس البيانو. أتوه قليلًا مع رعشة جسدها. *لا يا روحي، إصبعك متصلِّبة شوي، لازم تتحرَّك بليونة. لحظة*. تقبِّلها، ثم تمصّها قليلًا العديدَ من المرَّات ثم تدخلها في أعماق فمها ويدها الثانية في أعماق حجرها. أشعر برعشة جسدها، وأسمع أعماقها المحروقة. *هيك إصبعك بتصير أخفّ وأجمل وأكثر قابليَّة على العزف*. أقول لها *مليح يا ماما، أفضل شوي*، وأنا غير مؤمنة بما أقوله لأنَّ إصبعي تنتفخ وأكاد لا أحسّ بها. في البداية كنت أنفر من ذلك، مع الوقت أصبحت أمدّ إصبعي تلقائيًّا قبل أيّ عزف وأجد متعة في القول لها:

ـ ماما هيلينا، بدِّي أعزف. فيك تمصِّي أصابعي.

ـ انتظري شوي حبيبة قلبي. بس تفرغ قاعة البيانو من الأطفال، أروح أنا وأنت.

أصبحت لا تعزف إلَّا قليلًا، ثم تجلس على ركبتيها، وتبدأ في مصّ أصابعي، واحدة واحدة، ثم اثنتين معًا، ثم ثلاثًا معًا، ثم الخمس حتى أشعر بأنَّ فمها سيتمزَّق. لا أدري بماذا كانت تحسّ وهي تغيب في المشهد. تأخذ أصابعَ يدي بيد واحدة وتدفن اليد اليمنى تحت لباسها بينما أصابعي في اليد اليسرى في فمها ثم تمصّها جيئة وذهابًا. وقبل أن نعزف تهمس لي:

ـ مامتك أنا حبِّي حتى الموت. شكرًا لهذا الاستسلام يا صغيرتي. الطاعة واجبة إذا أحببت تتعلَّمين بسرعة. دقيقة كهذه تعوِّضني عن صفاء أسابيع. لحظة واحدة كافية لإسعادي.

في ليلة من الليالي كان دورها للإشراف على ترتيب ردهات النوم. كنت في البيانو، فركضت نحوي. كنت منغمسة في موزارت التي صرت أتقنها بفضل ماما هيلينا. عندما لاطفت شعري من الوراء. صدرت منِّي حركةٌ لاشعوريَّة:

ـ اتركيني.

ـ ماما هيلينا لا يُقال لها اتركيني، أيًّا كان السبب.

ـ عذرًا ماما هيلينا.

ـ عدِّلي جلوسك حبيبتي إذا أردت أن تعزفي جيِّدًا. علامَ تبكين؟

ـ بدِّي نام. اشتقت لماما وبابا.

ثم تركتني أنام على صدرها. كان المكان شبه مظلم.

ـ مش قادرة أعزف.

ـ خلاص نامي يا روحي، وبكرة نعاود العزف.

حمَّمتني ثم مكيجتني على غير العادة.

ـ الليلة أنت لي.

همست في أذني.

ـ أريد أن أكون لك ماما هيلينا.

ضمَّتني، ثم قادتني نحو غرفتي. انزلقت معي في سريري. فهي في النهاية أمِّي، ماما هيلينا، لا أخاف منها أبدًا. مسَّدت على رأسي، ومرَّرت أصابعها على شفتي، وهي تتمتم:

ـ أنا أمّك في الدير، وحبيبةُ قلبك في السرير.

ـ أنت أمِّي في الدير.

على الرَّغم من كمّ النفور الذي واجهت به قُبلتها في البداية، إلَّا أنِّي سرعان ما استسلمت لها. شعرت بلذَّة لم أعرفها من قبل. قبلتها لم تكن تشبه في شيء، قبلةَ أمِّي، ولا ضمَّتها أيضًا.

فجأة امتلأت قاعة النوم ضوءًا. فبدا ظلّ الراهبة الكبيرة، الماما الكبيرة، المفتِّشة، واضحًا ومستقيمًا، ونظرتها حادَّة:

ـ أهل هذه هي الصورة التي تقوم فيها كلّ منكما بوظيفة الأمومة والبنوَّة؟ الاختلاء بين تلميذتين محرَّم وممنوع. كيف وأنتما متعانقتان في الظلمة. أهكذا أنت الكبيرة تؤدِّين لابنتك المَثَلَ الطيِّب في الطاعة

واتِّباع النظام؟ غدًا أحدِّث الأمّ الرئيسة بشأنكما. لن تكوني أمّها بدءًا من هذه اللحظة.

ثم التفتت نحوي وكأنَّها تكتشفني للمرَّة الأولى بعينيها اللتين تشبهان عينَيْ ثعبان.

ـ وأنت يا صغيرتي. ما هذا التأنُّق؟ ما هذا الشعرُ المتهدِّل على جبهتك ووجهك، وهذا الشريطُ الأزرق المعقود على عقرب الشعر، فوق العين؟ غدًا تضعين شعرك الجميل في الشبكة السوداء، وترتدين المئزر الأسود ذا الكمِّين كسائر زميلاتك. أحظِّر عليك مخاطبة ماما هيلينا أو الردَّ عليها إذا خاطبتك. ريثما تتَّخذ الأم الرئيسة قرارها بعد أن أخبرها بأنِّي ضبطت هيلينا تقبِّلك في الظلام. وأنت في الدير لا يُفرَض عليك إلَّا الترتيبُ والنظافة والبساطة في كلّ شيء، فقط. الباقي كلّه ممنوعٌ منعًا باتًّا.

ـ هيلينا لم تقبِّلني على شفتَي، كانت تضمّني إلى صدرها لأنِّي اشتقتُ لأمِّي كثيرًا وبدأت أبكي. تعطف عليّ لأنِّي وحيدة ومريضة. ضمَّتني بين ذراعيها ونوَّمتني على صدرها الطيِّب.

ـ اخرسي. وقحة. اذهبي إلى سريرك، وانكتمي. أنا أربِّي الأفاعي هنا. اركعي واستغفري الربّ قبل النوم.

ـ يا ماما، هيلينا لم تفعل ما يؤذيني. كانت نِعْمَ الأُمُّ.

ـ تكذبين. أخفضي بصرك. رأيتكما معًا. هذا لا يجوز في مكان عام، ما بالك في مكان مقدَّس كهذا. كانت تقبِّلك من شفتيك. ستنزع العذراء شفتيك.

ـ العذراء طيِّبة يا ماما وليست مجرمة.

ـ عندما تكبرين ستعرفين سبب طرد هيلينا.

لأوَّل مرَّة أرى ماما هيلينا تبكي بدموع حارقة.

لم أكن منزعجة أبدًا ممَّا فعلته معي. مسحتُ عينيها كما تفعل صغيرة ترى أمَّها تبكي أمامها. عانقتُها. ضممتُها إلى صدري طويلًا. أحسست باندفاع نهديها السخيَّيْن نحوي. منذ ذلك اليوم لم أرَها.

في آخر الليل من اليوم الموالي، عندما نام الجميع، ذهبت نحو البيانو القديم، بذيله الطويل. جلست في الظلام من دون أن ألمسه. كانت أصابعي متجمِّدة. تذكَّرت شفتَي هِيلينا. شيئًا فشيئًا بدأت ألمسه صعودًا ونزولًا. من أدنى البيانو إلى أقصاه. أحرِّكه بسرعة وبلا نظام. رأيت تسارع مصّها لأصابعي، ثم يدها اليمنى وهي تختفي تحت لباسها الرقيق. أسندت بعدها رأسي على خشب البيانو قبل أن تنهمر دموعي عليه. لكنَّ ظِلَّ ماما هيلينا ظَلَّ قريبًا منِّي. رأيت آخر مرَّة عينيها وهما تميلان نحو البياض كعينَيْ من يحتضر، ورأيت جسدها يتراخى كأنَّه كان ينحدر نحو جحيم كان من الصعب مقاومته.

حاولت أن أنسى كلّ شيء، وأتفرَّغ لحياتي التعليميَّة. غادرت مدرسة راهبات الزيارة في عينطورة، واستقرَّ بي المقام في مدرسة الراهبات اللعازاريَّات في بيروت.

بشكل غير منتظر، وصلتني من ماما هيلينا، رسالة واحدة، أُولى وأخيرة. سلَّمتها لي إحدى صديقاتي. حفظتها عن ظهر قلب: *محبوبتي ماري. كبرت أكثر وكبرتُ قليلًا. أحبّك أكثر من حبّك لي. لكنَّني أغار من ابن عمّك الذي تحوّل إلى وكيل عليك كأنَّه زوجك. طالب*

الطبّ، ذاك الذي يزورك كلّ أسبوع ونحن مجتمعات معًا في ردهة الاستقبال مع أهلنا وأقاربنا. عندما رأيتك معه آخر مرّة يوم افتتاح المدرسة ورأيتك تقبّلينه بلهفة لحظة الوداع، ويقبّلك بالشَّرَهِ نفسه، التوى قلبي. أموت كلّما فكّرت أنّك تحبّينه. أيمكن أن تحبّي أحدًا غيري[1]؟ لو أمكنني قتله ساعتها، ما تردّدت.

الغريب أنّي لم أبحث عنها وكأنَّ موضوعها انتهى في داخلي. ما روته في رسالتها القصيرة، كان حقيقيًّا، لأنَّ ابن عمّي جوزيف، الذي كان قد سرق قلبي، كان مأخوذًا بي. كان يدرس الطبّ ويحلم لنا بأجمل اللحظات، حدّدنا حتى المكان الذي نبني فيه بيتنا في شحتول، على رأس المرتفع، حيث نرى كلّ الناس، ولا يرانا أحد.

قيل لي لاحقًا إنَّ هيلينا انتحرت، لكن كنتُ قد قتلتُها في أعماقي، قبل ذلك بكثير.

ـ ٥ ـ

أخبرتني الإدارة بقدومه. كنت أنتظره.

دخل البروفيسور ميلر، يتبعه فريق طبّيّ بكامله. لم تكن على وجوههم أيّةُ علامة من علامات الحيرة. كانوا منطلقين في أحاديثهم، بينما كنت سجينة خوفي من أن أموت في هذه القلعة ولا يسمع بألمي ونداءاتي أحدٌ.

اقتادوني كالسجينة، نحو القاعة الكبرى. قاعة جميلة. معطَّرةٌ ونصفُ مضاءة. جلس الدكتور ميلر قبالة كرسيٍّ فارغ، طُلِب منّي

(١) مستوحاة من قصّة الحبّ في المدرسة.

الجلوسُ عليه. كان عريضًا ومريحًا. بينما وقف بقيَّة الفريق الطبِّيّ وراء البروفيسور ميلر في شكلٍ نصفِ دائريّ، كأنَّهم يأخذون صورة عائليَّة قبل الفراق. ثم أمرهم بالجلوس في نظام يشابه ما رأيته في هيكل الشرق الماسونيّ، في پاريس.

أقابلهم بصمت، تحت ضوء قليل.

لم يكن وجه البروفيسور باردًا كبقيَّة أطبَّاء العصفوريَّة، باستثناء سوزي، حبيبة قلبي بلوهارت. أكثر من ذلك، فقد شعرت بشيء من الحنان في علامات وجهه وملامحه.

انتظرت طويلًا قبل أن يسألوني أسئلة باردة لم أكن أملك لها أيّ جواب. كنت خارج منطق الجنون الذي زجّوني فيه. *لماذا أنت مصرَّة على الإضراب على الأكل وتكتفين بشرب الماء؟ ما الشيء الذي تشعرين به أنَّه كان السبب الجوهريّ الذي أدَّى بك إلى هذه الحالة؟ تحصَّلتِ على الكثير من حقوقك، حقّ الاطّلاع على الصحافة، حقّ الكتابة على الورق، حقّ العزف على البيانو، حقّ التجوُّل مرفقة بممرِّض أو ممرِّضة من المؤسَّسة، فلماذا هذا الانتحار؟ هل تظنِّين أنَّ هذا سيمنحك شيئًا جديدًا ويحلّ مشكلتك؟ أنت لست متَّهَمة بشيء، لماذا الخوف، الجنون مرض بعضه يُداوى، وليس جريمة؟ ما هي الكوابيسُ التي ترينها، وما شكلُ الأحلام التي تتكرَّر معك؟ هل تؤمنين أنَّك مجنونة.*

هل أؤمن أنِّي مجنونة؟ هههه. هل هذه غباوة الطبِّ كلِّه، أم إنَّها غباوة الأطبَّاء المسطَّرين أمامي كمجموعة مافيويَّة تحاسب أحد زبائنها، بعد أن وشى بهم؟ أشكال تشبه الفخَّار الصينيّ.

كانوا خمسة. كأنَّهم طَلَبة تخصُّص طبّ، في حالة تربُّص، إذ بدت لي الكثير من أسئلتهم سخيفةً وغبيَّة. حاولت أن أُقنعهم بأنِّي في كامل قواي العقليَّة، بأحاسيسي وحركاتي وأصابعي وإشارات عينَيّ. أنا لا أفعل شيئًا سوى مقاومة هذا البؤس الذي جرُّوني نحوه. لم أختر شيئًا، ولم أقتل أحدًا، هم من صنعوا لي قدرًا يشبه قسوتهم الداخليَّة.

كان صوتي يرتفع أحيانًا، فقط ليسمعوني ويسمعوا قلبي الذي كان في حالة غليان، ليتفهَّموا إضرابي عن الطعام الذي لا يفيدني في شيء. لكنَّني كنت كلَّما توغَّلت في محاولات الإقناع الذي ينتهي بالصراخ: ***وحياتكم مو مجنونة. أهلي زجُّوا بي هنا ظلمًا وانتقامًا. كلّ ليلة أُذبَح بسكِّين حادَّة، لكن لا أحد يسمعني***. بدوت لنفسي مجنونة حقيقة قبل الأطبَّاء المتجمعين حول البروفيسور ميلر.

من عيونهم المرتعشة، يبدو أنَّه لا أحد منهم صدَّق كلامي الهادئ، ولا صراخي الحادّ علَّ الربّ يسمعني. لا أحد استمع إليَّ. أكثر من ذلك، في لحظات اليأس، كنت أشعر بأنَّ الربّ نفسه كان متواطئًا مع ظلم العصفوريَّة.

نظر إليَّ البروفيسور ميلر، ثم أحنى عينيه نحو أوراق الملفّ الذي كان بين يديه.

ـ لسنا أعداءك يا ماري. بعد كلّ الذي حدث لك، وما تعانينه حتى اليوم، نحن هنا فقط لسماعك يا مي، ورفع تقرير للجهات المسؤولة المخوَّلة بتقييم الوضعيَّة. هم يريدون أن يعرفوا الحقيقة.

لا أدري من أين نزلت عليَّ حالة الهدوء الكبير فجأة، وكأنَّني كنت في إحدى جلسات صالوني.

ـ يا بروفيسور أتمنَّى أن يتَّسع قلبُك وصدرُك لي.

ـ آنسة مي، نحن هنا لذلك.

ـ لا تظنّ أنَّني أهذي بروفيسور؟ أنا هنا عن طريق الصدفة، وربَّما الغلط. متأكِّدة من ذلك. قصَّتي لا تتعلَّق بالجنون، ولكن بمجموعة من الأخطاء، انتهت بي إلى السقوط في شرك لعبة قاسية، أكبرَ منِّي. لقد استولى بعض أقاربي على مالي وبيتي العائليّ وأراضينا، وحجروا عليّ، ثم رموني هنا من خلال سلسلة من التواطؤات السرِّيَّة، صفقة لا أملك كلّ خيوطها، من داخل هذه العصفوريَّة نفسها، وإلَّا كيف استمعوا إلى جوزيف ساعات طويلة، ولم يسألني أحد عن الجرح الذي يصعب أن يندمل. عن رأيي في ما رواه ابن عمِّي الذي أعماه الطمع، هو وعائلته؟

ـ هل أجبرك ابن عمّك على شيء؟

ـ لم يجبرني، لكنَّه استغلَّ سذاجتي، وثقتي فيه، وتعلُّقي به.

ـ ألم تُعطيهم حقَّ تسيير أملاكك أمام باشكاتب القاهرة؟ فلماذا تحتجِّين عن شيء كنت أوَّل من وقَّع عليه؟ أنت من منحهم حقًّا لم يكن لهم. بحسب الوثائق، لم يكن هناك أيّ إكراه.

ـ بروفيسور، هل هناك إنسان عاقل يوقِّع على موته بيده؟

ـ لا أعرف جيِّدًا، لكنِّي مستغرب مع ذلك؟ طيِّب، لماذا وقَّعتِ؟

ـ كنتُ غبيَّة. كنت في حالة انهيار كلِّي. أُقرّ بانهياري العصبيّ بعد وفاة أمِّي، آخر حيطاني، لكنِّي لست مجنونة. أحاول الهرب من المكان لأنَّه يذكِّرني بوالدَيَّ اللذين فقدتهما تباعًا في ظرف مأساويّ.

جاءني شخص من أنسبائي المرافقين له، كانوا يُقيمون في بيتي، تخيَّل؟ كتب النصّ وجعلني أوقِّع عليه. رويت كلّ شيء منذ اليوم الأوَّل في هذا المكان، بلا جدوى، لهذا أضربت وما زلت. أقسى شيء في هذه الدنيا أن تشعر بنفسك خارج المدار، تنام وحيدًا وتموت وحيدًا. أشعر باليأس يا بروفيسور ميلر، والرغبةِ في الموت السريع، لتفادي أيّ احتضار أو عذاب.

يبدو أنَّ هناك قانونًا طبيعيًّا يجري على الكلّ، أصبح قاعدةً. من كثرة محاولة إقناع الناس بأنَّ عقلك سليم، تُفاجَأ بأنَّك تزجُّ بنفسك في الخانة التي وضعوك فيها هم أصلًا، حتى قبل أن يزوروك. لا أحد منهم يحاول فهم ما يجري أمام عينيه، لكنَّهم يعملون فقط على تثبيت الجنون. في النهاية يسخر الجميع من جنونك، ثم يمضون، ولا يلتفتون وراءهم، بعد أن يرموك في مكان الموت الصامت.

قال أحد الأطبَّاء الشباب، من المرافقين للبروفيسور ميلر:

ـ يا آنسة ماري، نحن نسمعك بجدِّيَّة، ولكن ألا ترين أن كلّ ما قلته يقوله جميع المجانين؟

ـ ومن قال لك إنَّني مجنونة؟ من أعطاك هذا الحقّ؟ خلاص أنت أيضًا جئت لتفهم حالتي بحياديَّة فصنَّفتني منذ اللحظة الأولى؟ كلّكم تقتلونني بالسلاح الجاهز نفسِه. ما عليهش. عليّ أن أؤمن بما تفعلونه وإلَّا سأتعب كثيرًا. أكثر من كلّ الذين في المستشفى. لأوَّل مرَّة أشعر بأمل أن يسمعني أحد خارج يقين الجنون؟

شعرت برجفة عميقة في قلبي، في يدي، وفي أصابعي. لا أدري ما الذي ذكَّرني بأصابع بلوهارت الناعمة وهي تعطيني الأقراص المهدِّئة

وتنصحني بعدم استعمالها إلَّا عند الضرورة، أو عندما أشعر بأنِّي سأفقد أعصابي، في وضع يدفع على الغضب الشديد. أخرجت قرصًا مهدِّئًا وبلعته بسرعة مع قليل من الماء.

أضاف الطبيب الشابّ:

ـ ربَّما كانت حساسيَّتك المفرطة هي السبب. أنا سألت سؤالًا واضحًا لا أكثر، حتى تتمكَّني من الدفاع عن نفسك.

ـ أنت لم تسأل سؤالًا. أنت أطلقت عليَّ رصاصةَ الرحمة.

ـ هو سؤال كغيره من الأسئلة، يا آنسة ماري.

ـ لا. ليس كذلك.

ثم تمالكتُ نفسي، عندما شعرت بأنَّ ارتخاءً خفيفًا كان يمسّ كلّ أطرافي. فصمتُّ.

أصرخ داخليًّا بكلّ قواي، ربَّما تعرَّف أحدهم من عيني، من ملامحي، من حركاتي التي لا يحكمها أيُّ نظام، على صوتي الداخليّ، وصراخي المكتوم، فينقذني من هذا الخوف. لا أحد. أبكي بقلبي المنهَك والمنتهَك، فيتَّسع فراغ الوحدة في داخلي. لا أحد أيضًا ينظر إلى وجهي، ليختبر صدقي. ليس لدى *المجنونة المصريَّة*، كما تقول عنِّي بعضُ عاملات العصفوريَّة، ما تُخفيه. وكلَّما مرُّوا بجانبي، بالخصوص الممرِّضة الثقيلة، مدام شوكي، الحاضرة دومًا في محافل الخوف واعتقال أرواح المنتفضين، وقفوا قليلًا، صمتوا، ثم مرُّوا منكِّسين رؤوسهم.

ـ لا أدري ماذا أقول لك. لا، كلّ المجانين لا يقولون عن

أنفسهم إنَّهم ليسوا مجانين، لأنَّهم أصلًا يركضون خارج مدارات الأرض في عالم وحدهم من يراه. تمنَّيت أن أكون كذلك لأرتاح من بشر لا يرونني أصلًا، ولكنَّهم يرون الصورة التي صنعوها عنِّي. ما قيمة لقاء يا سيِّدي تراني فيه كما صنّعتني أو كما سمعتَ عنِّي، وتتوقَّف هناك.

ـ كلامك يصل كاملًا يا آنسة ماري، ونحن لا نحمل إلَّا الاحترام والرغبة في الاستماع إليك.

قال طبيب آخر من مرافقي البروفيسور ميلر.

ـ شكرًا. لستُ مجنونة لسبب بسيط هو قدرتي أمامكم اليوم، على الدفاع عن نفسي. وما زلت أشعر أنَّ هناك ظلمًا سُلِّط عليّ، ولا بدَّ من مقاومته بكلِّ الوسائل حتى يظهرَ الحقّ.

لا أدري كم دام اللقاء. كان يصعد وينزل بسرعة غريبة، لكنِّي ظللتُ هادئة، ربَّما بفضل القرص المهدِّئ، لكنِّي كنت مصمِّمة ألَّا أصمت. لا يوجد على هذه الأرض المحروقة بالخيبات واليقين المُشين، إلَّا صوتُ الرجل، وأيّ رجل؟ هناك صوت خافت صحيح، لكنَّه يستطيع أن يقول الكثير.

نظر البروفيسور ميلر إلى وجهي مليًّا وأنا أحاول أن أقاوم الرغبة في النوم.

كان الأطبَّاء يسجِّلون ملاحظاتهم مثل التلاميذ المتربِّصين، بينما قام البرفيسور ميلر من مكانه وتقدَّم نحوي بلطف، بينما بقي باقي الفريق الطبِّي جالسًا في مكانه.

ـ نحن نعرف بعضنا قليلًا. اسمعيني جيِّدًا يا آنسة ماري. انزَعي من رأسك فكرةَ الكراهية. لا أحد هنا يكرهك أو يريد قتلك. نعرف جيِّدًا أنَّك متعَبة لأسباب أصبحنا نعرفها جميعًا. أنا ممَّن أحبُّوك حتى وأنا أحاورك عن الشعر الإنجليزي. كنت أريد أن أعرفك عن قرب قبل اتِّخاذ أيّ قرار لنقلك إلى العصفوريَّة. كنتِ داخليًّا منهَكةً، على الرَّغم من لحظات الصفو التي كانت تنتابك. لكن نقاشك كان جيِّدًا وصحيحًا. ربَّما تسرَّعتُ في تشخيص حالتك بسبب يقين جوزيف بأنَّك على حافَّة الجنون ويريد إنقاذك قبل فوات الأوان. قلتُ هذا لفريقي الطبِّي. يزعجني أن أسمع أنَّك ترفضين الأكل وتصرخين. هذا لن يوصلك إلى أيّ مسلك. أنا أريد أن أسمع كلّ شيء منك. في حالتك شيئان، واحد ناتج عن الظلم، وهذا أفهمه، ومن الطبيعيّ أن ترفضيه. أنا معك فيه. عرفت كيف أخذوك، والطريقة التي اقتادوك بها نحو العصفوريَّة. وعلمت أيضًا كيف يجبرونك على الأكل، لأنَّه لا خِيار أمامهم إن أرادوا إنقاذك من موت أكيد. إمَّا الأكل أو الموت. أمَّا بالنسبة للحالة الثانية، اسمحي لي أن أقول لك، إنَّها حقيقة وليست افتراءً. أنت في حالة انهيار عصبيّ خطير، وهذا ليس جنونًا، لكنَّه يمكن أن يقود إلى الجنون إذا لم تأخذي الأدوية، ولم تأكلي. وقتها تصبح مساعدتك صعبةً جدًّا، بل مستحيلة. اطَّلعت على ملفّك كاملًا. وقرأته كلمة كلمة. وتابعت الصحافة التي تقف ضدَّك أو معك. وجلست طويلًا مع الدكتور جوزيف وعرفت الأسباب كلَّها، على الأقلّ من منظوره.

ـ لن يقول جوزيف فيَّ خيرًا.

ـ كيفما كانت نواياه وأطماعه، لكنَّه دافع عنك. وقال إنَّ همّه هو إنقاذُك من نفسك.

ـ يا بروفيسور ميلر، أنت تضيِّع وقتك الثمين معي. لقد قلت كلّ ما لديَّ، وتعبت من تكرار الشيء نفسه. لم أعد أملك أيَّة قوَّة للمقاومة. أقف بصعوبة كبيرة. وزني انهار كلِّيًّا. أمامك امرأة وزنها الآن؟ كم كيلو؟ ٢٨ لا أكثر. ماذا أقول؟ ستخرجون من هذه القاعة وأنتم على يقين أنَّكم كنتم برفقة مجنونة. أرجوك. لا تتركهم يقتلونني فقط، أنا متعَبة. متعَبة جدًّا. تقول إنَّه دافع عنِّي؟ لماذا إذن استولى على كلّ أملاكي. تعرف يا دكتور، لو أخرج من هنا، سأموت جوعًا.

ـ لا أريد أن أُرهقك. أرجوك يا آنسة ماري، احمي نفسك بنفسك. أوقفي هذا الإضراب، وامنحيني وفريقي الطبِّي فرصة الدفاع عنك على الأقلِّ من فكرة الجنون. لنا وجهةُ نظر إيجابيَّة في حالتك، سنحسمها قريبًا، ونرفع تقريرنا إلى الإدارة العليا للعصفوريَّة. لهذا جئت بالفريق لتدارُس حالتك التي وضعتنا في حالة لا نُحسَد عليها. وبدأت الصحافة تتحدَّث عنها، ولا نريد للعصفوريَّة أن تخسر كلّ تاريخها. فهي ليست سجنًا، أو مكانًا لقتل الناس.

ـ لستُ مسؤولة عن أيّ شيء يا بروفيسور. الصحافة ذبحتني، ولم ترحم حتى والدي الذي كان من مؤسِّسيها. كلّها سارت في ما خطَّطه الدكتور جوزيف.

ـ نشكرك على تعاونك.

ثم قام الجميع. وقفوا وراء البروفيسور في خطّ مستقيم. مشوا بخطوات ثقيلة نحو الباب الخارجيّ، متخلِّصين من صراخ *المجنونة المصريَّة* التي تلتصق بأيّ شيء يؤذيها، ولا تتركه يمرّ أبدًا بسهولة.

المجنونة المصريَّة، أسمع مدام شوكي وزميلاتِها يكرِّرنها. تنتابني

رغبة في الضحك لدرجة البكاء أو الزعيق. هو نعت آخر يُضاف إلى النعوت القاسية الأخرى التي ترافقني منذ أن تخطَّيت عتبات العصفوريَّة: *حارقة المكتبات، وآكلة الحديد، وقاتلة الأطفال*... وما خُفي كان أعظم. ليس مهمًّا، الأهمّ أن أُسمَع.

لو كنتُ مجنونة حقيقةً، لرضيت حقيقة بقَدَري. كان يمكن أيضًا أن أمثِّل المجنونةَ وأرتاح، فيعاملني الآخرون كمجنونة مسالمة. أنظر للزمن الذي يمرّ أمامي، وأحدِّث العصافير، وأستجدي الغيم أن يتوقَّف قليلًا ريثما أرسمه، لكنِّي للأسف لا أستطيع. لا أقبل أن تُسرَق منِّي شعلةُ القلب والعقل.

لا أحد في هذا المكان المغلق، ولا حتى الفريق الطبِّي، يُدرك، أنَّك عندما تواجه الظلم وحيدًا، تتمنَّى فقط أن تصرخ مثل ذئب البراري والأدغال المعزولة، حتى تسمعَك بقيَّة الحيوانات الهائمة في الطبيعة. كنت أسمع بعضها في الأيَّام الأولى التي جيء بي فيها إلى العصفوريَّة. المحزن هو أنَّك، في العصفوريَّة، عندما يتَّسع صراخك، يرتدّ صوتك نحوك ويتراكض الممرِّضون والطبيب أحيانًا نحو سريرك، لا لمساعدتك، ولكن للجمك لأنَّك أصبحت حيوانًا مفترسًا يمكن أن يضرّ بالنظام والناس. حيوان يجب أن يُوقَف عند حدِّه. يتراكضون مثل البقر الوحشيّ المرعوب من صوت الطائرات المروحيَّة الجامد. تتمنَّى فقط أن يخرج أحدهم عن المجموعة، ويسألك عمَّا تعانيه. أوَّل ما يصلون، يُسقطونك أرضًا، ويبدؤون في تكتيفك مثل الأضحية التي تُحضَّر للعيد بجاكيت تقييد المجانين. لا فائدة من صراخك وبكائك. ثم تأتي حقنة المورفين حاملةً فيها حلًّا ساحرًا، فتؤخذ بعدها كجثَّة هامدة نحو سريرك، ويتمّ تقييدك حتى الصباح.

قسوة جوزيف قتلتني أكثر من خيانته لي.

ترجَّيته أن يفعل شيئًا وينقذني منهم. فهو يملك القوَّة والعلاقات، ليُخرجني من العصفوريَّة في غضون نصف يوم، أو حتى في ساعات. كنت أعرف أنَّه منذ أن جاء بي إلى هذا المكان، لم يسمعني أحد. مدَّ يده إلى رأسي يومها وهم يرمونني في سيَّارة الإسعاف الحديديَّة، وقبل أن أغيب بسبب المورفين:

ـ جوزي، أرجوك حبيبي، امنعهم من قتلي.

ـ ولو يا روحي. هذا طبيبك، وكلّ اللي هوني ما بيحبُّوا لك إلَّا الخير والشفاء. سأزورك.

ـ ألا ترى يا قلبي أنَّهم يكتِّفونني أمام نظرك، ويهينونني؟

الضربة على جبهته كانت واضحة.

ـ أزمة وتفوت. شوفي اللي عملتيه فيّ. كان ممكن تقتليني. لازم المستشفى لترتاحي أيَّامًا، يصبح بعدها الأمر سهلًا، ويمكنني أن أُخرجك من هناك بسهولة، لا مشكلة يا روحي.

أغمضت عيني واستسلمت لقَدَر لم يكن لي أيّ سلطان عليه.

مع الزمن تعوَّدت على شراستهم. كلّما رأيتهم يتجارون نحوي، في بهو بناية الأقواس، في العصفوريَّة، أستسلم لهم وأسلِّمهم جسدًا منهَكًا ومنتهَكًا. جسدي لم يعد لي. أتركهم، بلا مقاومة، يُدخلون إبرة المورفين القاسية، فترتخي كلّ العضلات مستسلمة لروائح المستشفى وأيادي الممرِّضات، وتضيع بعدها كلُّ رغبة لي في الحياة، وأتمنَّى الموت السريع. وتتحوَّل كلّ آلامي إلى أنين قبل أن أغرق في كوابيس

المورفين، أو في حلم لذيذ، بحسب الحالة التي أكون فيها قبل النوم بثوانٍ.

مع الوقت وتكرار الفعل، أصبحت أتحكَّم تقريبًا في الكابوس أو الحلم.

قبل نومي، أرى ما أشتهي.

ـ ٦ ـ

شيء يشبه طاحونة الأيَّام، يسحب الشمس بسرعة نحو القاع.

كان الجوّ رائقًا.

مشيت قليلًا في حديقة العصفوريَّة، قبل أن أجلس على الكرسيّ الحديديّ بمحاذاة بناية الأقواس الممتدَّة طولًا. شعرت بإنهاك جعل من جسدي كتلةً صعبة التحمُّل. لا شيء.

انتابني التفكير في وضعي الذي لم أعد أفهمه جيِّدًا.

هل أُوقف هذا الألم القاسي، أم أواصل في جحيمي؟ فمي كلّه ملتهب بسبب الآلات التي يستعملونها معي للأكل الإجباريّ. يقول الأطبَّاء بعد انتهاء كلّ عمليَّة من هذه العمليَّات، إنَّهم لو لم يفعلوا هذا معي، سأموت. المصل يغذِّي، لكنَّه في حالتي، لا يكفي. وزني منهار كلِّيًا. ولو استمرَّ في التدهور، سيرفض ما تبقَّى من جسدي كلّ إطعام أو مصل.

الغريب، أنِّي لم أرَ في الانتحار، ولا في مواصلة هذا الموت المجزَّأ بشكل مؤلم جدًّا، حلًّا. الموت راحة لكنَّها مستعصية. في أعماقي شيءٌ غريب يلتصق بجنون بالحياة، يصعب أن يسلِّم نفسه بسهولة إلى الموت.

لن أسهّل للموت مهمّتَه، عليه أن يكره نفسه قبل أن يجرّني من حقّ الحياة والاستمرار.

قلتها وأنا غير مؤمنة بها كثيرًا.

غابت الشمس مبكرًا، واتَّسع الليل. أرى بعض العابرين الذين يأتون من كلّ الزوايا، وكأنَّهم مكلّفون بحراستي كلّهم. بعضهم يخرج من تحت الأقواس، آخرون يأتون عبر الطريق الطويل المؤدّي إلى الخلجان والأشجار الكثيفة.

الظلال تغطّي كلّ الملامح. رأيتهما من ظلّهما ومن شكليهما العامّ: المجنونة كما يسمُّونها هنا، أو إيزميرالدا، *وأمير الحديقة، كازيمودو*. كانت تنام في حضنه وتتحسَّس كلّ ملامحه التي تماهت في الظلال. كلّما هدأت من الصراخ، ركضت إلى المكان نفسه تبحث عنه. رأيتها بالصدفة، في مرَّة من المرَّات، تستسلم له كلّيًّا، وهما تحت شجرة الصنوبر الحلبيّ العملاقة، ملفوفَين في أعماقها. لا أعتقد أنَّ أحدًا غيري كان يراهما. أعجبني المشهد. أحسست بشهوة غامرة. لا أدري لماذا تذكَّرت هيلينا وهي تمصّ أصابعي، ثم وهي تقبّلني شيئًا فشيئًا وأنا مستسلمة لها، قبل أن تأخذني بعنف لتُسكنني فيها. عرفته. عامل وحارس الحديقة الشرقيَّة في العصفوريَّة. رأيته يفتح أزرار لباسها عند صدرها، ويقبّلها ثم يضع نهديها في فمه وهي تتأوَّه. تخيَّلت أو سمعت حوارَهما ووشوشتَهما: شوي شوي حبيبي. *لنا كلّ الوقت. أنت حبيبي الكبير*. لا أدري لماذا كنت سعيدة في أعماقي. ربَّما لأنَّ شيئًا ما عميقًا يخترق كلّ حدود الأحقاد، قادني نحو جوزيف. كم كنت سعيدة. قلت في أعماقي، لا بدَّ من أن يكون سرُّها كبيرًا. تمنَّيت

أن أنصحه أن يحذر أكثر من أجله ومن أجلها، لأنَّه سيُطرَد إذا عرفوا بقصَّته، لكنِّي لم أعطِ لنفسي هذا الحقّ.

لم يكن مشرفًا وحارسًا غبيًّا. كان يعرف أشياء كثيرة عن كلّ ما يحيط به.

سمعته يقول لحارس آخر، رآني من بعيد، فسأله.

ـ مَن تلك المرأة الغريبة الجالسة تحت شجرة السنديان وهي تقرأ؟

ـ الكاتبة الكبيرة مي زيادة. قصَّتها مسكينة مرعبة، فقد جنَّنها ابن عمّها. خانها بأن تركها وتزوَّج غيرها.

ـ مي زيادة؟ أنت تمزح؟ لا يمكن أن أصدِّقك. هي في مصر. أنا أعرف كتاباتها ووجهها. لا تشبهها في شيء. ربَّما كانت مجنونة، تنتحل شخصيَّتها؟

ضحكتُ في أعماقي. تمتمت وأنا أبتسم: يا ريت. *يا ريت كنت منتحلة لشيء أحبّه.*

تذكَّرت صرخة إيزميرالدا القاسية، التي يسحبها حنينها نحو الأشجار العملاقة، والظلالِ المظلمة كلّما غاب عنها في نهاية الأسبوع لرؤية والدته المقعَدة، كما سمعت من بلوهارت. صوتها الذي يمزِّق سكون الليل والظلمة، لا يتوقَّف عن النحيب كلَّما تجاوزت الساعة منتصف الليل. تآلفت معه، مع الوقت.

يا عالم. اسمعوني، لستُ مجنونة، لست مجرمة. قتلني كلِّيًّا، أهانني، قتل حبيبي بأن رماه من أعالي الجبل، فانتقمت منه. ماذا فعلت غير هذا؟ أعترف أنِّي بترته من الأساس، من الموقع نفسه الذي

خانني منه. الشفرة كانت حادَّة. هو ارتاح وأنا ارتحت. هو دخل إلى المستشفى في حالة استعجاليَّة أنقذته، لكنَّه عليه أن يعيش بدونه، وأنا بعد يومين التبس عليّ كلّ شيء في السجن، فاقتادوني إلى هذا المكان، لأبقى مع حبيبي، أمير الحديقة. كلّما آلمني قلبي، مشيت عاريةً فقط ليرى العابرون ثقل الجريمة. ويتحسَّسون الجروح التي خلَّفتها سكِّينه الحادّةُ على جسدي.

باستثناء بلوهارت، كنت في البداية، الوحيدةَ التي كانت تعرف تفاصيل العلاقة بين كازيمودو وإيزميرالدا؟

أسمع خشخشة تأتي من مكان ظلال الشجر، تشبه الركض للقبض على حيوان مفترس وثقيل.

أسمع همهمة الحارس الثاني الذي اتَّجه نحوهما كأنَّه كان يعرف المكان بدقَّة، بينما ظلّ صديقه ينتظر في الطريق الصاعد نحو المرتفع. كازيمودو، كازيمودو، اخرجا من هنا. الحرَّاس الجدد يفتِّشون عنها في كلّ مكان. يظنُّون أنَّ إيزميرالدا هربت. دبِّر حالك معها بسرعة أرجوك قبل أن يؤذوك ويعذِّبوها.

ـ أحبُّها.

ـ ليس هذا وقت الحبّ. ستُطرَد، وستُزَجّ هي في جناح جهنَّم. لا نور ولا حياة. قطعة خبز من تحت البوَّابة الحديديَّة الثقيلة. هي تحبّك، أعرف ذلك جيِّدًا. فلا تتسبَّب في هلاكها من جديد.

ـ وأنا أحبّها.

ـ سنمثِّل بأنَّنا وجدناها تمشي فقط وتتأمَّل القمر والنجوم. بسرعة.

ـ سآخذها بنفسي.

ـ مجنون. المهمّ ألَّا يُلقى القبض عليكما متلبّسين.

ـ سأقول لهم هي هكذا. ليست عنيفة. كلّما انتابتها حالة حزن، خرجت بلا وجهة. أُعيدها إلى غرفتها. لا داعي لربطها، هي لا تمرّ الآن بأيَّة أزمة. كانت فقط تتأمَّل.

ـ ظنَّناها هربت من العصفوريَّة.

ـ كما ترون، أحاول أن أُرجعها إلى غرفتها بدون عنف.

ـ أسرع يا كازيمودو.

كان الجوّ الخارجي ناعمًا. دخلتُ تحت الفراش. غطَّيتُ رأسي كما أفعل عادة. كان ما يزال في أنفاسي عطر الصنوبر، ونبتات مسك الليل الملتصق بحيطان العصفوريَّة الخشنة، مخلِّفًا عطرًا طيِّبًا على الكتل الحائطيَّة الثقيلة، ولمسةً إنسانيَّة.

كلّما اتَّسع الليل، زادت مساحة الوحدة والكوابيس. وأصبحت العصفوريَّة تشبه قلعة صحراويَّة لا حياة فيها.

أُغمض عينَيَّ. من قال إنَّ المجانين غيرُ إنسانيِّين؟ المجانين يحبُّون أيضًا. لقد وضع الله في قلوبهم المحروقة، وأعيِنهم الخائفة، شيئًا من نور الحياة.

أسمع بكاءً يشبه النحيب، كان يأتي من الجهة الغربيَّة من العصفوريَّة، أكاد أجزم أنَّه لإزميرالدا.

٣ ـ خُصَّنِي بِحُضْنِك يا اللّه، لكَيْ أَعْرِفَ أنَّنِي مِنْكَ

ليلة ١٤ أيلول/سبتمبر ١٩٣٦ وما تلاها

ـ ١ ـ

يكفي يا جوزيف؟ أريد أن أنام. أن أنسى كلّ شيء جمعني بك: السماء، الغيم، الرياح، اللغة.

أشتهي أن أنساك دفعة واحدة، كي لا أُجنّ. الدفعة الواحدة ثقيلة، وصعبة، لكنَّها لا تقسِّط الألم.

لا أدري ما الذي قادني نحوه اليوم. كلّما تفاديته، حضر غيرَ آبهٍ بحرائقي الداخليَّة.

أكتب الآن ولا رفيق لي إلَّا سقف حانٍ، ووجوهٌ عابسة، ونساء يتعرّين ويلبسن مثلما يشأن ووقتما يُرِدن، وصرخات الكثيرات وهنّ ينادين الربّ الذي كفّ عن سماعهنّ. في أمخاخهنّ يمارسنّ حياة طبيعيَّة سُرقت منهنّ. في الخارج هنّ مجنونات، وفي مخّ الممرِّضات، أنا أشبههن إن لم يكن مرضي أكثرَ استعصاءً من جنونهنّ، لأنِّي حتى اللحظة لم أقبل بالمسطرة التي فرضوها عليّ.

كم تبدو الأشياء بعيدة وقريبة لدرجة التماهي معها.

كيف كتبت له وكيف وثقت فيه؟ هل قلبي هو السبب أم يأسي من كلّ شيء؟

يبدو أنَّ هوسي الأوَّل بدأ منذ تلك اللحظة. أخي الصغير مات وانتهى، لماذا ظللت أُصرّ على أن يكون لي أخٌ يرافقني ويحسّسني بالأمان. لم أشعر أبدًا بالأمان في حياتي.

شيء ما في جوزيف فرض نفسه عليّ بقوَّة.

كان ميلي تجاهه وميله نحوي واضحين.

أسخر أحيانًا من وضعي الغريب ومن تفكير العائلة. أحببت جوزيف، فخطبوا[1] لي أخاه نعُّوم. كيف أعيش مع رجل أنا أحبّ أخاه؟ العلاقة بيني وبين ابن عمّ والدي إسكندر زيادة كبيرةٌ ودافئةٌ جدًّا. وكان له ابنان وبنتان: نعُّوم وجوزيف وماري ولويز. عُيِّن مديرًا لناحية فتوح وكسروان في جبل لبنان. وقعت بين كمَّاشتي جوزيف ونعُّوم. نعُّوم كان ثقيلًا وجامدًا مثل حجرة. وجوزيف قريب إلى قلبي، يقاسمني كلّ شيء، حتى قُبَلي المدرسيَّة المسروقة. وأكثرُ ثقافةً وأناقة وحبًّا للحياة. مولع بالطبِّ الذي كان يدرسه في بيروت.

كلّ شيء تمَّ بسرعة بيني وبين يوسف (جوزيف). اتَّفقنا أن نسافر معًا إلى باريس. أتذكَّر جيِّدًا. في أواخر شهر جوان ١٩٠٥، حضر أهل عمِّي، وخالي بولس، إلى البيت، وكان الاتِّفاق أن نقضي العطلة في الناصرة، لأتهيَّأ للزواج في نهاية السنة. خيبة الأمل التي أُصبت بها

(١) كان ذلك في سنة ١٩٠٣.

لم تكن إلَّا مطيَّةً. كنت متعلِّقة جدًّا بجوزيف سرِّيًّا. كان نعُّوم يحاول دائمًا أن يكون لطيفًا معي، على الرَّغم من ثقله، لكنَّه لم يكن يناسبني. ثم ماذا أقول للعذراء عندما تسألني عن زوجي نعُّوم، الذي سأخونه حتمًا مع حبيبي وعشيقي جوزيف؟ لم تكن لديّ أيّ إجابة. ولم يكن من حقّي أن أترك نعُّوم يعيش على وهم خطير. بعد خطبة سريعة، لم يكن بإمكاني ردُّها من دون أن أُحزن أبي وأمِّي، بدأت في البحث عن أيّ سبب يجعلني أبتعد عنه. سألت جوزيف. أجابني بعنف: مسرحيَّة تراجيديَّة ستنتهي بقتلك وانتحاري. ساعدني في الحلِّ بعد أن سرَّب لي معلومات خطيرة منها أنَّ الرسائل التي كان يكتبها لي، ليس هو محرِّرها. بعثت له ببرقيَّة مختزلة ليعرف فقط أنِّي لست امرأة غبيَّة: fiançailles rompues وجمعت كلّ رسائله التي لم تكن له، وهديَّته، السلسال الذهبيّ ومحبس الخطبة. وجدتني في لعبة كانت تتجاوزني. أكبر منِّي بكثير، لكنِّي كنت مصمِّمة على توقيفها. عرفت من جوزيف أيضًا، أنَّ الفنَّان جوزيف الحويِّك هو من كان يكتب له الرسائل العشقيَّة ليبعثها لي ظنًّا منه أنَّها ستقرِّبني منه. انتابتني فجأة حالة من الاكتئاب القاتل شبيهة بتلك التي لبستني يوم وفاة أخي الأوحد صغيرًا. الدكتور جوزيف ظلّ قريبًا منِّي، ولم يتخلَّ عنِّي لحظة واحدة. عوَّلت عليه كثيرًا. عندما تخلَّصت من نعُّوم بخسارات أقلّ، فاجأني جوزيف بوقت سفره إلى باريس. هل يُعقل؟ صرخت في أعماقي: أأخطأتَ طريقَك إلى هذا الحدّ يا الله، لتعاقبني؟ لم أجد ما أقوله له. كنت في حرب ضروس لاسترداد جسدي وروحي. الضربة كانت قاسيةً، وأعتقد أنَّها كانت وراء كلّ ما حدث ويحدث لي:

ـ سأسافر إلى باريس يا ماري.

قاومت لكي لا أبكي.

ـ ألم نتَّفق حبيبي أن نتزوَّج ونسافر معًا. انتهينا من مشكلة نعُّوم. لست غاضبة منه بسبب الرسائل، لكنِّي حزينة من تحايله. الرسائل كانت جميلة، لكنَّها مجرَّد مطيَّة لأكون له. أنا أحبّك جوزيف وأنت تعرف هذا جيِّدًا. لقد بنيت كلّ شيء عليك، فلا تقتلْني بهذه السهولة.

ـ ما زلنا صغارًا يا ماري على الزواج. سنقتل نفسينا وحرِّيَّتنا في وقت مبكر. ظلم حقيقيّ.

شعرت بجرح بارد يفتح قلبي كلِّيًا، بلا دم ولا ألم. لا أعرف لماذا. ضربة سكِّين جافَّة. تقيَّأت كثيرًا، ورأيت الموت لأوَّل مرَّة بلونه الرماديّ. كيف لم أفهم هذا كلّه وقتها؟

أغمضت عيني لكي لا أنفجر.

ـ حبيبي جوزيف، لا تتسرَّع. خُلقنا لبعض ولا قوَّة قادرة على فصلنا. قاومت من أجلك كلّ شيء. مستعدَّة أن أهرب معك، ولن نعود من هناك إلَّا بأطفال سيمحون غضب أهلنا.

ـ قلت لك ما زلنا صغارًا على هذا العذاب. على كلّ اتَّخذتُ قراري.

ـ وأنا يا روحي؟ هل فكَّرتَ فيَّ؟ كيف أواجه العائلة التي قاتلتها فقط لأكون لك؟

ـ قضيَّتك يا روحي، أنا لم أطلبْ منك شيئًا.

ـ قضيَّتي؟ ارحميني يا عذراء؟ قضيَّتي؟ ماذا أسمع؟

صمتَ. ثم تركني وعاد إلى بيت أهله.

بقيت طويلًا في مكاني مثل جنديّ مهزوم لا يدري ماذا يفعل بجسد معطوب.

بعدها بيومين وصلني خبر سفره إلى پاريس. ثم سمعت لاحقًا من نساء شحتول الثرثارات، أنَّه يعيش مع سيِّدة فرنسيَّة أكبر منه بعشرين سنة، ساعدته كثيرًا. سيتزوَّج بها قريبًا.

أقنعت نفسي بسهولة أنَّ جوزيف لم يكن يحبّني. لم يعد لي، وعليّ أن أنساه. قبل أن يوقظ براكيني برسائله الرقيقة. قاومته. لم أردّ عليه. بينما استمرّ هو في مراسلاته بشكل متواتر.

الشعر وحده يومها أنقذني. أنقذني من جرح تعمَّق حتى وصل العظم. حتى عندما حملت ديواني الأوَّل *أزهار حلم*[1] الذي لم يكن أحد غيره يركض فيه، لأهديه إلى أمِّي. نظرت إلى عيني قالت جملة تركتني مندهشة ومعلَّقة في الفراغ: *أجمل من الديوان، عودتك إلى نفسك*.

ـ كيف عدت إلى نفسي يا أمِّي؟ أنا هنا.

لم تجبني.

لم أعد إلى نفسي، ربَّما لأنِّي كنت بلهاء لكن بلهاء صادقة.

هناك لحظات نصبح فيها عميانًا كلِّيًّا على الرَّغم من نصائح من يحبّنا بصدق.

يوم كتبت له الرسالة الأخيرة التي حكمت فيها بالموت على نفسي، في ٢٨ سپتمبر ١٩٣٨، توقَّعت فيه بقايا أشياء جميلة وحساسيَّات لم تمت.

---

(١) Fleurs de rêve

كنت مخطئة، بل لأوّل مرّة أُصيب هدفي: قتلي انتحارًا.

كنت ميّتة عندما دخلتْ عليّ ليليان. غارقةً في شيء بارد يشبه الموت. عندما فتحتُ عيني، والتفتُّ نحوها، كانت تقف على رأسي. طوال إقامتي في هذا المكان، لم أرَ ليليان في أيّ يوم من الأيّام غاضبةً، أو فَرِحةً. مثبّتة دومًا في وضعيّة وسطى. لكنّها حركيّة. تسمية غزالة العصفوريّة، لم تكن كلامًا بلا معنى. فهي من يأتي بالبريد، وهي من يأخذه للمراقبة قبل إرساله، على فرض أنَّ إدارة العصفوريّة ترسل ما يصلها منّا.

ليليان هي أيضًا من يخبر بقدوم الزيارات لساكنة مستشفى الأمراض النفسيّة.

- مرحبًا سيّدة ماري.

- مرحبا ليليان.

- عرفتني؟ جئت أبلغك عن رجل يقول إنّه يعرفك، وجاء لزيارتك.

- ألا ترين أنَّ الوقت متأخّر؟

- لا. الساعة الرابعة بعد الزوال فقط، ربّما لأنَّنا في مساحات غابيّة تغيب فيها الشمس مبكرًا.

- من يا ترى؟ أكيد جوزيف؟ أنا ما بدّي إيّاه. لا أريد رؤية وجهه. لقد جرحني ومزّقني من الداخل بسكّين حادَّة. قلت لكم إنّي لا أريد أن أراه، مهما كانت الذرائع. وقّعت على ورقة فيها إشعار واضح: لا أريد زيارة مَن قتلني. لا أريد الذي يقتل الضحيّة ويمشي

في جنازتها. رأسي يؤلمني من كثرة تكرار الصرخة نفسها.

ـ لا سيِّدتي أنا لم آتِ من أجل هذا. عندما سألنا هذا الرجل عنك، قال إنَّه لا يعرفك شخصيًّا، ولكنَّك ابنة مدينته. فهو يعيش بين الناصرة وبيروت. يعمل تاجرًا بين لبنان وفلسطين. اطَّلع على كلّ أعمالك، هكذا يقول. معجب بك، ويحسّ بالظلم الذي مورس عليك. ولا يريده أن يستمرّ. قال إنَّه يريد أن يساعدك. أن يفعل شيئًا من أجلك.

ـ من يكون يا ترى؟

ـ لا أعرف يا سيِّدتي، لكن يبدو لي صادقًا في كلامه.

ـ لا أستطيع المشي. رِجلي توجعني من سقوطي على الدرج، البارحة.

ـ أعرف. أنا هنا لمرافقتك. اسندي ذراعك اليسرى عليّ، واتَّكئي بالذراع اليمنى على عصاك.

هذا الليل مُثقَل بالضباب والغموض.

كنت أنوي أن أكتب شيئًا لم أعرف من أين أبدأه. بقيت كثيرًا أنظر إلى الورقة وقلم الرصاص. استكترت أن ألغي مشروعي من أجل شخص قد يكون تافهًا. لولا أنَّ ليليان أكَّدت على نبل الزائر.

لم أكن أعلم بعد موجة اليأس والشكّ في كلّ شيء، أنَّه ما يزال على هذه الأرض بشرٌ يشبهون الملائكة.

مشيت بتثاقل حتى وصلنا إلى صالة الاستقبال في الجناح الرئيسيّ.

رفعت رأسي ورأيت نجمة هاربة. تفحَّصتها وهي تتحوَّل إلى شعلة هاربة، ثم إلى رماد، كانت تشبهني.

نبَّهتني ليليان.

ـ هو ذاك الرجل الذي يجلس في الزاوية، بالقرب من المدفأة، ويتأمَّل الغابة من النافذة.

كان الرجل يعطيني ظهره. فيه شيء من والدي.

ـ شكرًا ليليان. اتركيني الآن أَسِرْ نحوه. سأعتمد على عصايَ ما عليهش.

ـ طيِّب أنا هنا. متى ما احتجتني ناديني.

ـ ماشي حبيبتي.

تقدَّمتُ خطوتين وأنا أضغط على العصا، مُحدثةً صوتًا جافًّا، حتى يسمعني.

التفت نحوي، ثم قام من مكانه. بقي مشدوهًا يتأمَّلني من شعري حتى أخمص قدمي، جامدًا في مكانه. كأنَّه لم يعرفني. أو كأنِّي بدوت له قد تغيَّرت كثيرًا. تفرّسني للحظات. سبقته إلى الكلام.

ـ مي زيادة. أو *المجنونة المصريَّة* إذا أحببتَ أن تشبه الآخرين في توصيفك.

انحنى قليلًا، ثم قبَّل يدي.

ـ تفضَّلي سيِّدة مي بالجلوس. حاشا أن تكوني مجنونة؟ قرأت لك كثيرًا، ولا يمكنني أن أقبل بهذه الصفة المجَّانيَّة. الظلم قاهر، لكن سيأتي يومًا مَن يكسر شوكته.

جلست بهدوء. ساعدني. ثم جلس هو بدوره، مقابلًا لي.

ـ مرحبًا يا آنسة مي. أنا مارون غانم، تاجر بالناصرة. أقسمت أن أتحوَّل إلى جندي مجهول في صفِّك وأسخِّر مالي وكلّ ما أملك، من أجل إخراجك من هذا المكان المظلم. لن أعود إلى عملي إلَّا بعد وضع حدٍّ لهذا الظلم. لا تشغلي بالك أنت لا تعرفينني. مجرَّد قارئ من بين الآلاف، وربَّما الملايين من قرَّائك الذين يحبُّونك. جئت نحوك، يقودني حبِّي لك والظلم الذي أصابك. لا تستغربي شيئًا، في هذه الدنيا الخيرُ والشيطان. كيفك اليوم؟

ـ الحمد لله. أرحتني بكلامك، حقيقي. ما يزال في هذه الدنيا بعضُ ناس الخير. لم تنغلق السُّبُلُ. أتشرَّف يا سيِّدي. حفظك الله. ها أنا ذي كما ترى. بين مدٍّ وَجْزر. امرأةُ موتٍ واسع وحياةٍ قليلة. أحيانًا أقف على الحافَّة متخلِّيةً عن الحياة أو ما يُسمَّى كذلك، وفي أحيان أخرى أشدّ على الحياة بأسناني وأرفض أن أستسلم لطاحونة الموت.

ـ الحمد لله أنَّك بخير. هذا المهمّ في النهاية.

ـ ها هي المجنونة التي تنافست الجرائد على بهدلتها بدون أيّ خجل أو حياء، أو حتى رحمة. الكلّ يتنافس على التفصيل في ممارسات هذه المجنونة التي تأكل الحديد، التي قتلت ممرِّضة في مستشفى، أحرقت مكتبة ابن عمِّها، بعد أن أحرقت مكتبتها الشخصيَّة ووو...

ـ لكن حبل الكذب قصير يا آنسة مي. ومَعينه ينضب، لن يدوم. في النهاية، لا شيء يبقى إلَّا الحقيقةُ. اتَّصلت بمحاميَّ الخاصّ للتفكير معًا في إخراجك من هذه الضغينة التي سُلِّطت عليك. وهو مستعدّ

للدفاع عنك شرط قبولك.

كان الأستاذ مارون غانم طيِّبًا، ونبيلًا، ومصرًّا على فعل أيّ شيء يخفِّف عنِّي ثقلَ هذه المأساة. شيء لم يفعله حتى أصدقائي المقرَّبون. لو لم أوقف الحديث معه، بعد أن تعبت قليلًا، كان استمرّ في الكلام حتى الصباح. شيء واحد لم أشكّ فيه، طيبتُه ومحبَّته واندفاعه نحوي. شعرت بصدق كبير في عينيه.

قبل أن أخرج، ركضت ليليان نحوي وفي يدها ظرفٌ كبير. نظرتُ إلى العنوان.

Mademoiselle Camille Claudel, hôpital - psychiatrique. De Montdevergues.

رسالة من كامي كلوديل. أكاد لا أصدِّق. هل يُعقل؟ بعد كلّ هذا الوقت؟

شعرت بارتجاف عنيف في جسدي، ربَّما في قلبي.

تمنَّيت أن أرمي العصا، وأركض بكلّ قواي، حتى أصل إلى غرفتي بسرعة.

كم بدت لي المسافة بلانهاية.

تلقَّفت الرسالة. ضممتُها إلى صدري. شممت عطرها وسرَّها. فيها شيء من رائحتي. رفعت رأسي نحو السماء. رأيت وجه الله لأوَّل مرَّة في شكل نجمة ساطعة في عمق السماء. قبَّلت النجمة ثم التفتُّ نحو الرسالة، أقرأها بلا توقُّف. وأعاود القراءة، وفي كلّ لحظة أكتشف ضوءًا جديدًا فيها.

العزيزة ماري زيادة. ملاكي الحبيب.

وصلتني رسالتك، وأنا في كامل انهياري لكنَّها أعطتني الإحساس بأنَّ كلّ سجناء العالم يتشابهون. ويلتقون في بُرَك العزلة والخوف والدم أحياناً. قلت في نفسي ما الذي قاد هذه المرأة الشرقيَّة المشبعة بالقيم الغربيَّة نحو مجنونة مثلي، زجُّوا بها ظلمًا في مغارات أعرف جيِّدًا سراديبها، وظلامها حيث نصبح لا شيء بجسد مستباحٍ، لا نصيرَ لها إلَّا الجنون الحقيقي، والموت الذي ينتظرها في زوايا كثيرة. الحبٌّ ليس حالة سهلة، جنون يتجاوز كلّ ما نملك من قيم وإرادة. على مدار تسع سنوات من الجنون. منحته كلّ الجنون الذي في داخلي، جسدي أصبح مُلكَه، يرتاده متى يشاء، وفي كلّ الوضعيَّات حتى وأنا مليئة بغبار الرخام والعمل. وعرف كيف يفجِّر كلّ شي جميل فيّ. أوغست رودان في ذلك الزمن لم يكن عاديًّا. كان إلهًا حقيقيًّا. التقينا أوّل مرّة في سنة ١٨٨٤. بيني وبينه ٢٣ سنة فرقًا. لم تكن مهمَّة. ولم أتركه إلَّا عندما تخلَّى هو عنِّي واستولى عليه غرورُه وأنانيَّته في ١٩٠٠. بعدها بسنوات، كان برفقة عصابته وتواطؤ عائلتي، زجُّوا بي إلى بيت الجنون. في ١٩١٣[1]. جوَّعني بعد أن حاصرني ومنع عنِّي كلَّ إمكانيَّة للعمل. هل الحبُّ الكبير يورث الحقدَ الأكبر؟ لا أفهم. لكن رودان الذي أصبح جزءًا من العَلَم الفرنسيّ، كان صغيرًا معي.

الفقرة الأخيرة من الرسالة ذبحت قلبي:

عذرًا يا روحي، تأخَّرت كثيرًا للردّ عليك. الجوّ هنا شديد

(١) وستبقى كامي كلوديل في مستشفى الأمراض العقليَّة حتى وفاتها في عزلة كاملة، في سنة ١٩٤٣، بينما كان قد توفِّي رودان قبلها بسنوات.

البرودة. ولا أستطيع حتى الوقوف للكتابة لك. لا أستطيع حتى أن أكون في الصالة الجماعيَّة حيث تحترق في هدوء ثقيل بعضُ القطع الخشبيَّة، ولا ضجيج إلَّا صوت المجانين الذين أخافوا الأرواح الشرِّيرة، فهربَتْ. مجبرة على البقاء في غرفتي الباردة لدرجة أنَّ أصابعي ترتعش، ولا تستطيع القبض على الشوكة. لم أتدفَّأ طوال الشتاء. مثلجة أنا حتى العظام يا عزيزتي. متجمِّدةٌ بسبب البرد. ماتت الكثيرات بسبب الزكام الحادّ ومنهنّ إحدى صديقاتي. كانت المسكينة أستاذةً في ثانويَّة فينيلون. لا تعرف لماذا زجُّوا بها في هذا المكان؟ وُجدت متجمِّدة في سريرها. شيء لا يُطاق؟ لا يمكنك أن تعرفي درجة البرد في مرتفعات مونتدوفيرغ؟ موجة البرد والصقيع هنا، تستمرّ سبعة أشهر.

ماذا أقول لها، وأنا ألتصق بها هي أيضًا، كي لا أموت؟

مددت يدي تلقائيًّا نحو حقيبتي التي أحتفظ فيها برسالتها الأولى التي أدخلتني في دُوار غريب، وكأنَّها كانت تحكي عنِّي. شعرت بالحقد على الناس الذين رموها في أتون مستشفى المرضى عقليًّا، بالخصوص رودان الذي كنت أحبّه. بسببها، كرهته. لا يختلفون في شيء، هنا أو هناك، هم أنفسهم الذين رموني في محرقة العصفوريَّة.

عزيزتي ماري زيادة.

بعض رسائلك تصلني، وبعضها الآخر لا أعرف بوجوده إلَّا من خلال ذكره في رسالتك اللاحقة. هذا هو نظام هذا الفراغ المَهول المأهول بالأصوات الغامضة والأشباح البشريَّة الحيَّة. الحيّ هنا جزء من الفراغ العام، والميِّت يتحوَّل إلى رقم، ثم يوضع تحت التراب. يمكنك بهذا أن تتخيَّلي الفراغ الذي أعيش فيه. اليوم ٣ مارس. يوم

ذكرى اختطافي في فيل ـ إفرارد. منذ ١٧ سنة رماني روادان وتجّار الفنِّ في سجن مستشفى المجانين، بعد أن استولى على منجزي الحياتيّ كلّه، مستعملاً برتولد لتنفيذ جريمته النكراء. وجعلني أعاني حجزًا كانوا هم أولى به. لم يكن برتولد إلّا مُنفّذًا صغيرًا حتى يبقى خارج مشهد الخزي الذي اشتركت فيه أمّي. لا تنسي أنَّ زوجة برتولد كانت موديلًا تعمل عند روادان. يمكنك أن تتصوّري الآن خيوط اللعبة التي كنتُ ضحيَّتَها. جميل؟ كلّ هؤلاء القَتَلة، الذين ارتموا على فنّانة بلا وسائل دفاع، الذين اشتركوا في هذا الاختطاف، كانوا كلّهم مليونريين... كلّ هذا خرج من عقل روادان الجهنَّميّ. فكرة واحدة ظلَّت تسكنه، خوفه من أن أحلّ محلّه، بعد موته، وأتجاوزه. كان لا بدَّ من أن يحتفظ بي بين مخالبه، بعد موته كما في حياته، ليجعل منِّي امرأةً بائسة، تابعة، مكرِّرة لخشونته وعنفه. وقد نجح في ذلك. فأنا اليوم امرأةٌ بائسة لأنّي أردت أن أكبر خارجه. أشعر بملل من هذه العبوديَّة. كم أشتهي أن أكون في بيتي، وأغلق الباب جيِّدًا، وأنام قليلًا بعيدًا عن أوامره. كم أشتهي أن أكون بلا كيانه وحراسته لي... يحبّني، أعرف ذلك، لكنَّه يغار منِّي ويخافُني. كلّ تفاصيل وأجزاء منحوتاته المهمَّة، كنت وراءها. أحبّه، لكنِّي لم أعد أثق في ما يحمله لي. أحبّه يا ماري، وعيناي ترفضان أن تفتحا على هذه الحقيقة، لكنَّ ألمي العميق يجعلني حاقدة عليه حتى الموت. لا أعرف سرّ ذلك. عقلي حاقد، وقلبي متسامح؟ لا بدَّ من أن تكون الحالة مَرَضيَّة إذ كيف يمكنك أن تحبّ قاتلك وهو الذي رماك من أجل امرأة أخرى، منحها كلّ ما اشتهيتُ أن يفعله معي، الحياة الزوجيَّة، الأولاد، العمل معًا...

تلك حيرتي يا ماري، وربَّما كانت حيرتك أيضًا؟

مثلك يا كامي، قتلني جوزيف بضربة جافَّة، ولم أعرف كيف أدخل بابَ الكراهية لأصفِّي حسابي معه؟

لم يجد من وسيلة لردِّ الجميل، إلَّا زجِّي في هذا الفراغ المخيف، وهذه الظلمة الثقيلة.

لا حدَّ للكراهية. ما أقبحهم.

ما أصغر قلوبهم وأنانيَّتهم.

لم أَنَمْ بسهولة.

ظللت مشدودة إلى الرجل الذي فاجأني بزيارته. على الرَّغم من أنَّه كان طيِّبًا معي، لا أعرف بالضبط لماذا أحسّ أنَّ شيئًا ما يحبس من حين لآخر أنفاسيَ. يقيِّدني. يشكِّكني في كلّ مساري. لا أعرف إذا ما كان عليّ أن أحزن أو أزهو.

يحدث معي أن أخاف من هذا الفراغ الأبيض. كلّما رأيت طبيبًا شعره أبيض قادمًا نحو الجناح، أحسست أنِّي أنا المعنيَّة بزيارته. أركض نحو المرآة حتى أرمِّم صفرة وجهي. أشعر فجأة أنَّ المرآة تخونني. أسألني هل التي تقف هنا هي هذه التي هنا؟ أليست الصورة إلَّا تعبيرًا هاربًا عن داخل منكسر ومتهتّك، أفرغوه من كلّ حياة؟ هل هذه هي ماري دلُّوعة والدها، أم المجنونة المصريَّة كما أسمتني الكثيرات من مقيمات العصفوريَّة. وحتى عندما كنت عند جوزيف، كلّما سمعتني نساء البيوت المجاورة، أصرخ بأعلى صوتي، صرخن بدورهنّ: *ما فيه حدا يلجم هاي المجنونة المصريَّة؟*

يوم غادرت القاهرة لم آخذ معي الشيء الكثير ما عدا رسائل جبران التي سرقوها منّي. كانت أهمّ ميراث في حياتي. جبران مات وبقي صوته الحيّ فيّ، بينما صرخة كامي كلوديل لم تبرح قلبي ولا ذاكرتي. وكأنَّ الأقدار كانت تقرأ لي ما سيحدث لي بعد زمن وتهيِّئ لي في صمت، أقسى المفاجآت. فكَّرت في الكتابة عن أكبر سجينة مظلومة في الدنيا، وكيف أنَّ كلّ معارفها تنكَّروا لها. حبيبها رودان، أمّها، أخوها پول، أصدقاؤها الكثيرون.

قمت من فراشي من جديد. سحبت رسالتها من جديد. كم كانت قريبة منّي. كم كنت أشبهها. ربَّما كان عليّ أن أجتهد طويلًا لأتخلَّص منها نهائيًّا، وأتحمَّل هذا الوضع الذي ما زلت تحت سطوته، ولا أفهمه إلَّا قليلًا.

لم أستطع كتابة ولا حرف واحد.

تركت كلّ شيء، ووضعت البطَّانيَّة على رأسي، ونمت في ظلامي.

ـ ٢ ـ

أيَّامي متكرِّرة في هذا المنفى الذي لا شيء فيه يستحقّ الاهتمام إلَّا غاباته الواسعة.

في برنامجي اليوم عنصرٌ جديد. اللقاء مع المحامي الذي وضعه لي الرجلُ الطيِّب، مارون غانم، لترتيب وسيلة دفاعنا القادم. لا أعرف كيف أشكره إلَّا الطلب من العذراء أن تمنحه كلَّ الخير والصحَّة.

اليوم سأوكِّل محاميًا للقيام بكلّ الإجراءات القضائيَّة.

أشعر ببعض الراحة الداخليَّة كلّما زارني المحامي.

منذ أن أوقفت الإضراب نهائيًّا، تغيَّر كلّ شيء فجأة، وأصبحت أحسّ باستكانة نسبيَّة، باستثناء بعض النوبات التي كانت فوق إرادتي عندما ينتابني وجهُ جوزيف الذي طلب من الإدارة رؤيتي العديدَ من المرَّات، لكنِّي رفضت ذلك كلِّيًّا. ووقَّعت على وثيقة من أجل ذلك. كلَّما استشاروني في السماح له بزيارتي، كان رفضي مضاعَفًا، لأنَّه يريد إرجاعي إلى بيت الأهل، انتفضت وقلت بصرخة غير طبيعيَّة خرجت من أعماق الجرح المفتوح، بلا إرادة منِّي:

ـ أرجوووووكم، بيكفِّي. العصفوريَّة أرحم. اتركوني هنا. أنا مرتاحة بينكم.

أضطرُّ في النهاية إلى تناول قرص مهدِّئ، من تلك التي وفَّرتها لي بلوهارت، وأتنفَّس بهدوء حتى يزول الغضب. أفضِّل هذا العذاب الصغير على العذاب الأكبر الذي مزَّق فمي وأحشائي.

أعتقد أنَّ كلّ ما قالته بلوهارت كان صحيحًا وناتجًا عن خبرة حقيقيَّة.

أوقفتُ الإضراب عن الأكل، واستمررتُ في تناول أدوية الرُّهاب، والانهيار العصبي، والاكتئاب، وهو ما سهَّل عليّ توازني وراحتي الداخليَّة لأقاوم وأتحمَّل ما ينتظرني في الأفق.

كان شعري قد ابيضَّ فجأة. زاد وزني، لكنِّي لم أعد مهتمَّة كثيرًا بمظهري. أحتاج فقط إلى أن أنام، وأستيقظ وأجدني في شحتول بين جبال والدي وعصافير الجليل، وشوارع القاهرة المزدحمة.

دخلت عليّ بلوهارت وهي تحمل العديد من الصحف اليوميَّة. وضعتها في حجري، ولم تستطع كتم فرحتها:

ـ شوفي حبيبتي مي؟ ما رأيك في كلّ هذا.

ثم وضعت الجرائد في حجري.

ـ شوفي ماذا تقول جريدة *المكشوف*؟

ـ *المكشوف* جريدة محترمة، ومديرها شخص طيِّب. في الحقيقة لم تغيِّر من موقفها. الوحيدة التي ظلَّت معي منذ بداية محنتي.

ـ أشعر كأنَّ الأمر بدأ يتغيَّر جذريًّا. خلِّيني أقرأُ ماذا قاله عددُ اليوم: *إنَّ المأساة التي عاشتها، وتعيشها مي في الحقيقة، كان سببها ظلم الأهل، بالطعن في عقليَّتها واضطهادها، بشكل معلن، من دون علم أُولي الأمر في الحكومة اللبنانيَّة، حتى علمت الصحافة الأدبيَّة، وشنَّت حملة عنيفة غرضُها إنصاف مي.*

ـ الحمد لله أنَّ صرختنا وصلت إلى الخارج. المحامي أصبح وسيلتي لمواجهة المؤسَّسات الظالمة. حتى صاحب الجريدة ومديرها، الميتر(١) فؤاد حبيش، تبرَّع بالدفاع عنِّي. من غير المعقول أن يُزَجّ بإنسان هكذا في مستشفى الأمراض العقليَّة للتخلُّص منه، من دون عقوبة ولا حتى مقاومة.

ـ انظري إلى هذه المانشيت من *المكشوف*(٢). *المكشوف تفضح المؤامرة التي وقعت للأديبة مي.*

---

(١) Maître

(٢) العدد ١٣٥.

ـ حقيقة وقفة الصحيفة معي لا تُنسى، وهي تتعرَّض اليوم لهجمات كثيرة لأنَّها كشفت عن هذه الدسيسة، ولاقت ما تلاقيه كلُّ صحيفة حرَّة من تهديد ووعيد. وهذا أكبر مكسب للجريدة وللحقّ.

ـ جميل ما يحدث. ما ضاع حقّ وراءه طالبٌ. لكنَّه لن يُنسيني هذا العبث والظلم الذي عانيته ولا أدري إلى متى سيطول. الكثير من الصحف التي تدافع عنّي اليوم، بعضها أهانني بقوَّة. وفي مقدِّمتها صحيفتا *الحديث* و*صوت الأحرار* اللتان أفرغتا فيّ سمومَهما وظلمهما، وقبحهما العميق. رائحة المال العفن. أنا صحفيَّة وأعرف صعوبات المهنة، لكن ليس بهذا الشكل من البؤس والانهيار.

ـ لا تخافي. الظلم يشي بنفسه، خارج إرادته. سيفتضح الأمر قريبًا.

ـ أعرف. أبي في هذا هو قدوتي. كنت الذراع اليُمنى له. رأيته يلاقي الليل بالنهار، ويذهب إلى عمله بلا نوم. كان كرهي لهم أشدَّ، يوم نشروا خبر جنوني، وأوجدوا عند الناس في الشرق وفي الغرب فكرةً، بل اعتقادًا بأنَّ «مي» مجذوبة. ولو أنَّ إساءتهم لي اقتصرت على ذلك، لهان الأمر، لكن هناك ما هو أمرُّ وأفظع. زرعوا فيّ الإحساس بالغربة والعزلة. كان على الصحافيِّين في لبنان تحديدًا ومصر وفلسطين، أن يدافعوا عنِّي، لا لأنِّي زميلتُهم ولكن لأنِّي مظلومة. إن لم يكن إكرامًا لي، فليكن لوالدي. أن يسألوا عنِّي مثلًا. أن يقوموا بزيارتي عندما سمعوا بخبر جنوني لمعرفة مبلغ ما في هذا الخبر من الصحَّة. لقد زارني ناس لا أعرفهم إلَّا من كتاباتي وتحسَّروا كثيرًا عليّ وقاسموني، ولو من بعيد، آلامي ولحظات حسرتي، ودافعوا عنِّي بمالهم. يُفترض أنَّ معشر الصحافيِّين يتحرُّون الحقيقة في كلِّ مكان.

بدل اهتمامهم بالرجال، وما يقولون والنساء وما يلبسن، وغرقهم أحيانًا في أتفه المواضيع وإخراجها إلى قرَّائهم، أن يهتمُّوا بما يهمّ أرضهم، ومستقبل هذه الأمَّة. ألم يخرج من المجموعة، واحدٌ يدافع عن الحقّ، يسأل عن مي؟ يتحرَّى فقط حقيقة جنونها؟ ألم يوجد أحدٌ بينكم يفكِّر في زيارة هذه الأديبة، الصحافيَّة الغريبة والمجنونة التي تخنق الأطفال، وتأكل الحديد؟ وقد تقولون إنَّ هذا الذي أُشيع عنِّي كان كحقيقة راهنة عندكم، إنَّكم لم تشاؤوا زيارتي حتى لا تحزنوا على مصيري البائس؟ قد يكون ذلك صحيحًا. لكن هذا *الاعتقاد* وتلك *الشفقة* لا ينبغي أن يضعا حجابًا من الإهمال والنسيان بين الصحافيِّين والأدباء، وبين زميلتهم مي. مي لا أهل لها، أبي وأهلي هم الصحافيُّون، هم الأدباءُ، هم رجالُ القلم. فما كان يجدر بكم أن تحيطوني ببعض العناية عسى أن تخفِّفوا عنِّي وطأة *الجنون*.

– أدرك المرارة التي في قلبك، لكن الآن الوضع بدأ يتغيَّر وأنت في أمسّ الحاجة إلى الكلّ.

– سعيدة وفخورة بك يا بلوهارت. لقد أصبح لي اليوم محامٍ لقلبي، ومحامٍ لقضيَّتي.

– ٤ –

دخل المحامي وهو يلعن أبو العصفوريَّة ومَن بناها.

– هل يُعقل أن يخيفهم محامٍ إلى هذا الحدّ؟

هل العصفوريَّة مستشفًى، أم قلعةٌ مفصولة عن كلّ حياة؟ يموت فيها الناس بصمت قاهر.

أضاف وهو في سقف غضبه.

ـ أيَّة خطورة تشكِّلينها على الأمن العام؟ امرأة وزنُها أقلُّ من ثلاثين كيلوغرامًا، مصُّوها وحوَّلوها إلى قشرة تقاوم الموت ظلمًا، أقلّ من كيس إسمنت أو كيس دقيق؟

أخطر شيء أن تشعر بأنَّك وحيد في مدار يضيق من حولك ويشدُّ على عنقك بعنف. ويزيد تصلُّبًا ليمسّ جسدك ولسانك لدرجة أن تتحمَّل الموت.

لأوَّل مرَّة منذ مدَّة طويلة، أشعر بأنِّي لم أكن وحيدة.

لا أدري لماذا أخرجتُ رسالة جوزيف؟ وأنا أنتظر وصول المحامي الذي كلّفه سيِّدُ الخير، مارون غانم، الذي لا أنسى جملة رسالته الأخيرة: *في ظلِّ الصمت المتواطئ أريد أن أستعمل بعض مالي لتخليصك من هذا الظلم.*

كان طيِّبًا وكبير النفس.

عندما دخل المحامي كنت غارقة فيها، كان قد طلب منِّي تحضيرها، يريد إعادة قراءتها، ربَّما وجد فيها عناصره الدفاعيَّة أمام طاحونة قضائيَّة لم تكن سهلة ولا عاديَّة.

لا أدري ما الذي يقودني نحو من سرق منِّي الحياة. أحيانًا أُصاب بهستيريا وأصرخ صرخة سيِّدنا المسيح الأخيرة: *لماذا فعلت هذا يا جوزيف؟* لم تكن في حاجة لأن تلبس قناع الخائف عليّ. منحتك بعضَ جسدي ولم أسال عن العواقب، وتخطَّيتُ عيونَ الربّ ودفء العذراء، الباقي لا قيمة له أبدًا. كنتَ حبيبي ولم يكن يهمّني

شيءٌ غيرك. لو طلبت منّي عينَيَّ كنت سلَّمتهما لك بلا تردُّد. روحي، كنتُ منحتها لك وتركتك تعيش عمرًا آخر بها.

أحاول وأنا أقرأ أن أفهم ما الذي عماني للركض نحوك؟ لماذا لم أذهب نحو غيرك؟ القاهرة كانت تجيش بأصدقائي. لو رفعت إصبعي، وقلت للعقَّاد، أنطوان، السيِّد، سلامة، يكن، الرافعي، وغيرهم، لركضوا بلا تردُّد، ولاصطحبوني بفرح، نحو أقرب كنيسة. لكنِّي فكَّرتُ فيك. لا يمكن لامرأة عاقلة، أو حتى مجنونة، ألَّا تفكِّر، في حبيبها في اللحظات الأقسى والأصعب.

أتأمَّل الرسالة الأخيرة التي كتبتُ لجوزيف. الصرخة الأخيرة قبل الغرق. حقيقي كنت منهَكة يوم كتبتها[1] وأحتاج لمن يُحسِّسني أنَّ الحياة ما تزال ممكنة. المصيبة ليست دائمًا في الغرق، لكن في أن تغرق وحيدًا ولا شيء من حولك إلَّا الفراغ والصخور الباردة، والكواسر التي تستعجل، من فوق، موتَك.

أتأمَّل الرسالة وأتساءل كيف بقيتُ حيَّة، حتى ولو بجنوني.

يا جوزيف. يا صديقي ويا أخي.

لم أعد أكتب منذ زمن طويل. كلّما حملت نفسي على ذلك، يظهر شيء قاهر يقضي على انطلاق تفكيري، ويشلّ حركة يدي. تُرى هل ذكراك في هذا النهار وعذابي قادران على منحي بعضَ القوَّة لكي أكتب إليك كلّ ما أريد أن أقوله لك شفويًّا؟ إنَّني محروقة جدًّا يا جوزيف. كما أنَّني أكثر من مريضة وينبغي أن أخترع عبارات جديدة لأشرح ما أشعر به في قرارة نفسي، ومن حولي. لقد حان وقت

(١) كُتبت في الأصل باللغة الفرنسيَّة في ٢٨ أيلول/ سپتمبر ١٩٣٥.

إعلامك بما سبَّب لي أشدَّ الألم. أعني رسالتك التي تسلَّمتها مؤخَّرًا. لم يحدث يا جوزيف أن خاطبتَني بكلمة قاسية. أو تلميح عنيف لأنَّك كنت رفيقًا بي. متسامحًا. ترعاني بمودَّتك الطيِّبة. حتى في الظروف الصعبة التي واجهتها أسرتُنا. كيف ترسل لي كتابًا جافًّا، بل أكاد أقول متحاملًا، وأنت تعلم ما أنا فيه من الكَدَر. كان ينبغي أن تعرف ما أصابني من الأشخاص الذين غادروا مصر إلى لبنان. لقد أبكتني رسالتُك طويلًا يوم أمس وأنا أُعيد قراءتها. فتبلَّلت كلُّ مناديلي. ثم تذكَّرت عبارة وردت في إحدى رسائلك السابقة، ربَّما أكون قد أتلفتها مع ما أتلفت من أوراق كثيرة خلال هذه الفترة. ورحت أردِّدها بتأثُّر بالغ: أنا طبيب يا ابنة العمّ الصغيرة، فإذا تألَّمتِ يومًا ما، وإذا ما شعرتِ بحاجة إليّ، فأخبريني لأركض نحوك فأداويك وأشفيك. هذا ما كنتَ تقوله لي، وهذا ما يجعلني أبكي بحسرة عميقة للمرَّة الأولى في حياتي على هذا النحو. ألم تعد راغبًا في أن تكون شقيقَ روحي؟ شقيقي على الرَّغم من البعد ومن ندرة المراسلة بيننا. ألم تُرِدْ أن تكون المداوي والمحبوب؟... تعالَ وأنقذني بقتلي رويدًا، إنِّي أسمح لك بذلك وأباركك بكلّ روحي الممزَّقة الصارخة. تعالَ بسرعة يا جوزيف لتُعْلِمَني بذنبي وتقتلني وتصفحَ عنِّي أخويًّا.

ـ أنا أستغرب من بلاهتي؟ كيف لم أتفطَّن له؟ أين كنت شاردة أمام شخص كان يريد مالي فقط؟

قالت بصوت يكاد يُسمع.

استطرد المحامي الذي دخل لتوِّه، قبل أن يغرق في ترتيب أوراقه.

ـ الدائرة بدأت تضيق عليهم يا مي. وسيدفعون الثمن غاليًا. أتمنّى ألّا ترحميهم. سيأتيك مَن العائلة مَن يطلب منك أن تصفحي عليه حفاظًا على سمعة عائلة زيادة. لستِ مجبرة على ذلك.

ـ المشكلة ليست هنا يا ميتر. أكثر. كيف لرجل برقّة جوزيف وخوفه عليَّ لدرجة أن حوَّلته أخًا لم تلده أمِّي، وحبيبًا أمشي وراءه مغمضةَ العينين، أن يقتلني بعينين مفتوحتين من دون شعور بالندم. أدرك اليوم أنِّي كنت عمياء وأتمنّى عبثًا أن تُبتر أصابعي قبل كتابة تلك الرسالة التي منحتني فيها له على طبق من ذهب؟ أين كان رأسي يا ربِّي؟

ـ ما فات فات. نحتاج إلى استراتيجيَّة جيِّدة لإخراجك من هذا المأزق الصعب. على أيٍّ، الناس في هذه المرحلة، عرفوا أنَّك مظلومة، وأنَّ المسألة مسألة طمع لا أكثر. الصحافة (هي) التي فجَّرت القنبلة، وتتحدَّث يوميًا عن العمل الظالم الذي قام به ابن عمّك. وتشهد في أغلبيَّتها أنَّك تتمتَّعين بصحَّة جيِّدة. أمَّا الجنون المنسوب إليك، فزعمٌ باطل ومؤامرة خبيثة، فقد تقدَّمتُ، بوصفي وكيلَك، بعريضة إلى وزارة الداخليَّة أؤكِّد فيها أنَّك صحيحة العقل، وأنَّ اتِّهامك بالجنون، يُخفي وراءه عمليَّة مركَّبة وخطيرة. وطلبت، على مستوى النيابة تشكيل لجنة طبِّيَّة لفحصك، والتأكُّد من سلامة عقلك، ومنحك الحرِّيَّة التامَّة التي يتمتَّع بها جميع المواطنين. وطلبت أن يؤتى على الأقلِّ بطبيب كبير، خارج استاف[1] المستشفى، ليكون العدل والشفافيَّة هما السيِّدان.

ـ أُدرك وأعرف جيِّدًا، أنَّ يد جوزيف طويلة. طويلة وبإمكانها أن

---

(١) Staff المجموعة.

تشتري البشر وعصابات الشرّ. وأفترض أن يكون قد اشترى الكثير من الضمائر. لكن هذا يحتاج إلى إثبات حقيقيّ، لا أملكه. المشكلة كبيرة.

ـ قلت لك هذا في المرَّة الماضية. يجب أن تتحوَّل القضيَّة، من القانون المدني العامّ إلى الدولة. عليها أن تتحمَّل تبعات وضع لا مسؤوليَّة لكِ فيه. المسألة لا تتعلَّق بخلافات عائليَّة. أكبر من ذلك. اختراقُ القانون بالحيلة لسيِّدة في حالة هشاشة بعد فَقدها والديها. ثم أنت شخصيَّة اعتباريَّة ورمزيَّة، وأيُّ مسّ بك، هو مسّ بهيبة الدولة نفسها، أو بأحد رموزها. توقيفك الإضرابَ عن الأكل، سهَّل علينا مهمَّتنا. أصبحنا في مركز قوَّة.

لم أتمالك نفسي من الضحك.

ـ ما ينقص العمياء إلَّا الكحلُ. يا أستاذ أنت تذهب بعيدًا أمام ناس لا أعني لهم الشيء الكثير، وربَّما أيّ شيء. بل لا أعني لهم حتى كوني مواطنةً لي كلّ الحقِّ في الحماية والوجود.

هزّ المحامي رأسه قليلًا، يمينًا وشمالًا، في زاويته نصف المضاءة، وكرسيِّه الصغير الذي كان يحاول أن يلملم فيه جسدًا فاض عليه قليلًا. لم يردّ عليّ، لكنَّه صمت قليلًا، ربَّما ليركِّز أكثر. فتح ملفًّا كبير، قبل أن يواصل حديثه.

ـ سعيد أنَّ وضعك الصحِّي تحسَّن قليلًا على الرَّغم من الصعوبات التي يضعها المستشفى في طريقنا. لا أعرف حقيقةً لماذا؟ مع أنَّ كلّ ما نقوم به قانونيّ. على كلٍّ، لن تمنعنا أيَّة قوَّة لتفجير الحقيقة علنًا. اتَّصلت بابن عمّك جوزيف وتحدَّثت معه طويلًا، وأبلغته

طلبك بحدِّيَّة، بعدم محاولة زيارتك مهما كانت الأسباب، وضرورة إرجاع المسروقات. أكَّدت له أنَّ عدم إعادتها للآنسة ماري، سيؤدِّي بنا إلى رفع قضيَّة ضدَّه شخصيًا، وضدَّ عائلته في هذا الموضوع تحديدًا. أفهمته أنَّ أمرًا مثل هذا غير مقبول، واستجابته، يمكن أن تخفّف من الأحكام المحتملة الصادرة من الهيئة القضائيَّة ضدَّه.

ـ أعرف جيِّدًا. هناك إرادة عمياء تريد أن تضع جوزيف خارج التهمة. تتستر عليه بكلّ الوسائل. استولوا حتى على بيت أهلي ومجوهراتي الخفيفة، ورسائل جبران. قالوا ضاعت. كانت في حقيبتي. لا. لم تضع. ليعيدوا لي فقط عِقْدَ أمِّي. لو يبقى في حياتي نبضٌ واحد لن أصمت. سأطالب به حتى النهاية. هو عِقْدُ جدَّتها. قبل أن تموت وضعته على صدري. ذات صباح، أردت أن أضعه في عنقي، كان قد طار.

ـ هو يقول إنَّ كلّ ما فعله كان في صالحك، حتى التنكيل بك. يستند طبعًا على عنصرين قويَّيْن في حوزته: الرسالة التي دعوته فيها ليأتي ويساعدك. وطلب المساعدة واضح. وقد اطَّلعت عليها كسند قضائيٍّ من طرفه. وسأُعيد قراءتها. وتوقيع التوكيل. يقول إنَّك أنت من طلب منه أن يكون وكيلك لأنَّ وضعك الصحِّيّ لا يسمح (لك) بإدارة ممتلكاتك وحمايتها من الضياع. توقيعك الشخصي. تمَّ ذلك بدون إكراه. أكثر من هذا، يتَّهمك بحرق البيت.

ـ على هذا البؤس أن يتوقَّف نهائيًا. أنا لا أطلب منه شيئًا. أريد فقط أن أعود إلى بيت أهلي في شحتول. لقد دمَّرني كلِّيًا، ولا أفهم مطلقًا كيف يخرج سالمًا من هذه الجريمة.

ـ مسألة الحَجْر قضيَّة ثانية. خلِّينا نثبت الاعتداء عليك أوَّلًا ونُسقط قوَّة سنده، وعندما تصبح قضيَّة الاعتداء عليك مؤكَّدة، البقيَّة سهلة وستأتي تقريبًا أوتوماتيكيًّا. على كلٍّ الدولة نفسها تنوي رفع قضيَّة ضدَّ ابن عمّك، وضدَّ كلّ من تورَّط في إدخالك إلى العصفوريَّة. حقَّقنا أشياء كثيرة في وقت وجيز. أمر جيِّد، سيُعطي للقضيَّة بُعْدًا وطنيًّا كبيرًا. أنت أيقونة وطنيَّة ولست فقط امرأة عاديَّة.

ـ أنا أعرف عناده. لن يستسلم.

ـ القانون فوق الجميع.

ـ هو رفع ضدِّي حَجْرًا في مصر، ولن يتوقَّف عند هذا الحدّ. سيصعِّد برفع دعوى حَجْر عليَّ في بيروت[1]. لقد رفعه في مصر ضدِّي كما تعرف حضرتك، لكوني حاملةً الجنسيَّة المصريَّة. لا شيء يُستغرب يا سيِّدي. الحَجْر الذي أُقيم عليّ لحرماني من مالي وحرِّيَّتي، قد نُفِّذ قبل أن يبتّ القضاء في الدعوى.

ـ القانون لا يطبِّق مثل هذا الحَجْر إلَّا على الذين فقدوا عقولهم أو كانوا قاصرين أو معوَّقين ذهنيًّا، فكيف سرى حكمه عليك، ولم تكوني لا مجنونة ولا معوَّقة، ولا خرفانة؟

ـ ما الذي يمنعه يا سيِّدي في مجتمع يسير بالمال الوسخ والأهواء السرِّيَّة والأقاويل التي جعلت منِّي امرأةً شاذَّة. لو كان فيه قانون ما قال عنِّي ما قاله.

ـ على كلٍّ وصلنا إلى مرحلة لا يمكن فيها أن نتراجع. بقي فقط

(١) هو ما سيحدث في ١٨ ـ ٠٢ ـ ١٩٣٧.

أن ننظِّم هجومنا. لا نطلب منك شيئًا سوى الثقة. أعرف أنَّك فقدت الأمان في كلِّ شيء ولهذا ما يبرِّره، لكنَّنا نحتاجك.

ـ لم يعد لديَّ ما أخسره يا سيِّدي.

ـ على الجاني أن يعلم أنَّ ما قام به، لن يظلَّ بلا عقاب.

لا أدري بماذا كنت أردّ على المحامي، لكن شموسًا كثيرة انكسرت أشعَّتها فيّ. كان عليَّ أن أبذل جهودًا كبيرة لكي لا أموت اختناقًا.

كنت متأكِّدة أنَّ وجود مُحامٍ يدافع عنِّي باستماتة، يكفي ليجعل وضعهم غير مريح. بدأت أتنفَّس الصعداء. الكثير من الأشياء تغيَّرت. لم يعد الأمر مظلمًا، لكن من حين لآخر أخاف من أن يكون ذلك مجرَّدَ مسرحيَّة كبيرة ضدِّي سأدفع ثمنها غاليًا، هذه المرَّة بشكل أكثر قسوة. أجد صعوبة كبيرة في التوقيع على الوثائق الإداريَّة. أقرأها، وأُعيد قراءتها، وأحاول أن أتأكَّد من أنَّ النصَّ الموقَّع عليه لا يحتمل أيّ تأويل آخر. لكن عندما أقرأ التعاطف معي من ناس بسطاء، من أصدقاء قليلين، من معجبين، أحسّ بأنَّ الأمر لم يعد على ما كان عليه.

أشعر بالملائكة التي نستني، أو نفَّرتني، تحيط بقلبي من جديد.

ـ ٥ ـ

وكأنَّ الخريف الذي حلَّ مبكِّرًا، لم يكن ينتظر إلَّا ذلك.

ساعات النهار تسير ببطء. الشمس لم تشرق اليوم، هنا، لكنَّها تتخفَّى وراء الغيوم، وتتلفَّع بدثار من الأسرار. الجوّ رماديّ الأديم.

الأفق متشابه الألوان في جميع جهاته. الأرض مغتمَّة، حسرى، والمطر الخريفيّ على وشك الانهيار.

كلّ الغيوم التي كانت تملأ السماء انسحبت فجأة لتحتلَّ مكانها رياحٌ عاصفة يأتيني حتى أذنَيّ المتعبتين هسيسُها.

لا أدري لماذا أشعرُني عاريةً ويزداد خوفي فأتخفّى داخل الغرفة. عبثًا، كنت أنتظر عودة النجوم التي غابت فجأة. عبثًا أحاول أن أنام.

بدون دراية منِّي، وجدتني أعضّ على أطراف أصابعي، العادة التي أقلعت عنها بفضل والدي الذي كان ينهرني، وعدت لها منذ غيابه السريع والفجائيّ. كلّما رآني على تلك الوضعيَّة، اقترب منِّي وهمس في أذني.

أسمع هسيسه الخفيّ الآن:

ـ أنت ككلّ المبدعين العشَّاق، لغتُك فضيحتُك. لا يمكنك أن تُخفيها وكلَّما حاولت سبقتك. من يتأمَّلْها عميقًا سيجد كلّ خفاياك وأسرارك. لهذا أفهم انشغالك.

ـ عادي يا بابا.

ـ معناه أنت مو منيحة. فيه شي عم يشغل قلبك. هذه لغتك كلّما وجعك قلبك.

ـ لا يا با. ولا شيء. عادة سيِّئة سأُقلع عنها يومًا ما.

ـ الله، انزعي لي هالأصابع من بقّك. تُفرحينني إذا فعلت وما أكلت أظافرك.

ـ حاضر يا بابا.

أنزعها. لكنَّها عادت بعد موته. كلّما أُصبت بحرقة في القلب، وجدتني آكل أظافري؟

ما سمَّته *المكشوف* بالجريمة الموصوفة، لا يُفرحهم أبدًا.

أشمّ رائحة حرب منظَّمة. الكثير من موظفَّي العصفوريَّة، توقَّف عن تحيَّتي. حتى بعض الممرِّضات يقمن بالحدِّ الأدنى فقط، باستثناء بلوهارت. ربَّما أصبح وجودي يضايقهم. الأقنعة سقطت ولم يعودوا قادرين حتى على قتلي. يماطلون في كلّ شيء، حتى في فتح تحقيق في ظروف إدخالي إلى العصفوريَّة الذي تورَّط فيه بعضُ العمَّال والأطبَّاء هنا. يجيبون بتقارير أطبَّائهم أنَّ كلّ شيء تمَّ بطريقة قانونيَّة اعتمادًا على ما يملكون من وثائق. بلوهارت المسكينة منحوها إنذارًا شديد اللهجة لأنَّها تغيب من حين لآخر من أجلي، وفي أوقات راحتها، تهرِّب رسائلي إلى الخارج، إلى البريد أو إلى أيادٍ حيَّة وحقيقيَّة في جريدة *المكشوف*، وتأتيني بأخبار المدينة التي كانت تعيش حياتَها كما تريد، وتهرِّب مقالاتي القصيرة التي قال الكثيرون عنها إنَّها كانت من أشخاص آخرين، أو إنِّي كتبتها قبل دخولي إلى العصفوريَّة.

وأيّ قدر صاغوه لي كما اشتهوه، عليّ أن أقف ضدّ رياحه العاصفة؟

الحرقة بدأت من تلك اللحظة.

كيف سلَّمت نفسي كلِّيًا لجوزيف؟ كان سَنَدي المتبقِّي، وحائطي. ظننته كبيرًا ومتنوِّرًا وحسَّاسًا، وعاشقًا للحياة في صفائها. تعلَّم كلَّ العادات اللطيفة في باريس. لكنَّه فجأة تخلَّى عنها، وأصبح يشبه الآخرين. شكَّكني في كلّ يقينيَّاتي. لا أدري إذا كنت قد أحببته. أم

تراه لم يكن أكثر ممَّن تبقَّى لي من الرجال القريبين الذين كبرت في حمايتهم وحبّهم؟

كلّما تذكَّرت رسالتي تلك، أدركت كم كنت غبيَّةً، وضحيَّةَ رومانسيَّتي المتأخِّرة.

خارج صحيفة المكشوف، يُعيدون النظر في كلّ شيء. لم يكتفوا بجنوني، أصبحت في نظرهم غيرَ موجودة بعد حملة التعاطف العامَّة التي جاءتني من كلّ مكان. ووُجدت، فأنا مجنونة أمشي عارية، متَّسخة، هاربة وخائفة من ظلِّي مثل هيديغر، أعتدي على الناس، وهناك من يتخفَّى ورائي ويكتب لي، في البداية قالوا والدي، واليوم يؤكِّدون أنَّه عشيقي الذي لم يحصل شرفُ اللقاء به.

لا شيء في هذا الشرق الذي أَخفق في كلّ شيء، حتى في أن يكون هو. خسر شرقيَّتَه، وأَخفق في أن يكون غربًا.

أن تكون رجلًا يكتب، فهذا تحصيل حاصل، أن تكتب امرأة لا بدَّ من أن يكون لها ظلّ.

كم يبدو الزمن السعيد بعيدًا، كم هو مصاب حتى الأعماق.

القبح يصل أحيانًا إلى درجة أن يصبح هو الحقيقةَ العُليا. لا مقاومة له إلَّا بعدم اعتباره وإهماله كأنَّه غير موجود مطلقًا. لا سلاح يقتله مثل الإنكار. على المرأة كلّما نجحت داخل هذا الوضع الغثّ، ألَّا تلتفت وراءها. في اللحظة التي تلتفت وراءها، هناك من يحفر لها، في الثانية نفسها، حفرةً قاتلة تهوي فيها.

لا أدري ما الذي يدفع الناس إلى إهانة المرأة بسيل من التُّهَم

القاسية، كلَّما خرجت من دائرة العاديّ. كيف لمراهقة أن تفهم عالمًا بكلٍّ هذا التعقيد. لدرجة أنَّ أبي الروحيّ يعقوب صرُّوف، طلب منِّي سيرةً خاصَّة، ليتمكَّن من الدفاع عنِّي من الهجمات الشرسة. في مصر، أصبحوا يبحثون عن هذا الذي يضحِّي بنفسه لأجلي، فوجدوا لأبي اهتماماتٍ لا تهمّني كثيرًا، وعلموا أن لا إخوة لي، فأنا وحيدة أَبَوَيّ. كيف لامرأة لغتُها الأولى الفرنسيَّة أن تذهب نحو عربيَّة لا تتقنها؟ نعم ذهبت نحو العربيَّة متأخِّرة جدًّا ولكن بحبٍّ كبير. لم أكن أعرف إلَّا المبادئ البسيطة التي كانت تعلِّمها المدارسُ الأجنبيَّة لغير الناطقين بها. الكتابة التي لم تكن في البدء سوى ميل وسلوى، صارت اليوم احتياجًا عميقًا. صارت جوعًا وعطشًا. صارت شعلة. أصبحت سلطانًا قاهرًا يدفعني إلى الإفصاح عمَّا يشغلني، مسيَّرةً غير مخيَّرةٍ.

منذ البداية أدركت أنَّ صراعي سيكون كبيرًا مع رجال شاخوا قبل أن يكتبوا. وُلدوا مخرَّبي الأدمغة في غمار حداثة أكبرَ منهم لأنَّهم رفضوا كسر كلّ معوقاتهم الداخليَّة. كلّهم بلا استثناء، صنَّاع الحداثة، كلَّما تعلَّق الأمر بامرأة مزَّقت الشرنقة مقابل ثمنٍ غالٍ دفعته من أعصابها وراحتها، أخرجوا سكاكينهم. أزمةُ الحداثة العربيَّة امرأةٌ. هزيمةُ الخروج من التخلُّف، امرأةٌ أيضًا. حتى أسمائي المستعارة لم تنفعني للتخفِّي منهم. كانت رغبتي لا تُحَدّ، في نقد المجتمع الشرقيّ الذي يرى في الغربيّ كلّ شيء، أو يخاف منه، فيتحوَّل إلى كائن متخلِّف يريد أن يحمي نفسه من وَهْمٍ ينام في أعماقه.

فيمَ أختلف عن غيري. امرأة تكتب؟ يا فضيحة آل زيادة الوقورين؟ أنا أيضًا خفتُ من شيء مُبْهَم.

أُريد أن أكتب، كانت هذه رغبتي القصوى. أن أكون حرَّة ولا أخاف من أحد. كان عليَّ أن أخرج من دائرة البشر وأكتب باسم إلٰهة. استعرت من ماري البدايةَ والنهايةَ. مي تصغير ماري عند الإنجليز. إيزيس كوبيا يكاد يكون الترجمة الحرفيَّة لماري زيادة. إيزيس أخت الإلٰه وعروسه. ماري أمّ الابن وعروس البحر. كوبيا اللاتينيَّة مرادفة لزيادة، أي الشيء الفائض. هذا التخفِّي زاد من هياجهم.

مَنْ هذه الشرقيَّةُ التي باعت أصولَها وشرفَها للغرب؟

بعثت ليعقوب صرُّوف كلّ ما كتبته، ونشرته، تحت أسماء مستعارة ذكوريَّة، كثيرة، وأنا أعرف أنَّهم لن يصمتوا أبدًا إلَّا بإسكاتي أو نزعِ لساني وكسرِ قلمي. وجاء مَن منحهم ما اشتهوه دائمًا، أقربُ الناس إلى قلبي. أجمل شهادة، هديَّة منحتها لهم سماء رمليَّة جافَّة.

فجأة وجدتُني في عالَمٍ أكبرَ من طفولتي التي لم تَمُتْ. المجنونة، كما يُسمُّون كلَّ من يدخل إلى هذا المكان، التي أوقفتني عند الأقواس، في أيَّامي الأولى في العصفوريَّة، حينما خرجت لأمشي قليلًا، بعد أن سمحوا لي بالخروج، وتأكَّدت لأوَّل مرَّة أنِّي كنت داخل كابوس حقيقيٍّ عليَّ أن أتحمَّله لكي لا أنتحر. قالت:

ـ هل تعرفين أنَّ الحمار عندما تأتينه بوردة، يأكلها بشكل أعمًى، وما راح يعرف يشمّها؟ هو ما بيفرِّق بين الورد والحشيش لأنَّه حمار فقط.

قلت بشيء من الخوف بدا واضحًا على وجهي.

ـ كيف؟ شو القصد يا سيِّدتي؟

ـ ماجدة. اسمي ماجدة. كانت عندي صديقة مصريَّة، تشبهك، بس ثخينة شوي. علَّمتني كيف أُغوي زوجي ليلةَ عرسي حتى ما يكون حمارًا فقط. رحتُ أُغويه بالطريقة التي وصفتها لي الصديقة المصريَّة.

وبدأت تنزع ألبستَها في الحديقة، القطعةَ وراء القطعة. كنت أنتظر أن توقف ذلك عند حدٍّ معيَّن وتكتفي بالإشارة، لكنَّها ذهبت بعيدًا حتى تعرَّت كلِّيًّا من ألبستها الخارجيَّة. ولولا مدِّي يدي لها وإليها وأنا أتمتم في أذنها:

ـ فهمتك حبيبتي، عارفة أنّك شلحت ثيابك كلّها. شو صار بعدها.

ـ شايفة هذا الجسد كان أكثر جمالًا وإثارة. كان موظَّفًا في أحد البنوك الكبيرة. عندما أغويته، أيقظت فيه الحيوانَ النائم الذي لم أَرَه يومًا في حياتي. هجم عليَّ مثل دابَّة عمياء. خفتُ. حاولت أن أقنعه أنَّ أمرًا مثل هذا يأتي بدون عنف. شوي، شوي. هي ليلة فرح. وأنَّ عذريَّتي لن تكون إلَّا له في النهاية. حتى جنون الرغبة وحماقاتي الصغيرة، صرّفتها بشكل آخر، أحيانًا بيدي وأخرى بشفتَي، بحيث تبقى زاوية الشرف محفوظة. عندما رفع ساقي اليُسرى، شعرت بسكين تخترق بطني الأسفل. ثم بدأ النزف. نادى على أمّه. قال لها لا أعرف ماذا وقع لها، كأنَّها ستموت، لا تشبه بقيَّة النساء. قالت له: يا حمار هذه امرأة، وليست كيسًا من الرمل. كائن مجروح. هي تنزف وستموت إن لم نفعل شيئًا. أحضرت سيَّارة الإسعاف، وأخذتني إلى المستشفى القريب ورقعوا جروحي وهم يتساءلون كيف لبشر أن يفعل كلَّ هذا في ليلة عرسه؟ وظلَّ مرعوبًا منِّي. كلّما اقترب من فراشي، أشعر بالرعب، وشعر هو بذكورته تخونه. وفي مرَّة من المرَّات، قال

انتهى كلّ شيء. يجب أن نفترق. أدركت متأخّرًا أنّنا لا نصلح لبعضنا بعضًا. فقدت رجولتي بسببك. وذات صباح عاود الكرّة معي، بالعنف نفسه وحمرةِ العيون نفسها. فتح كلّ الجراحات المرقّعة. هذه المرَّة لم أصرخ وبقيت أعومُ في دمي بعد أن غبت نهائيًّا عن الوجود. قبل ذلك بثوانٍ، رأيته يصعد إلى النافذة، ويرمي بنفسه من أعلى البناية، من الطابق الخامس. صرخت لكن لا شيء من صراخي خرج من فمي. استيقظت في المستشفى. كنت مرعوبة من كلّ شيء، حتى من نفسي وأنا أرى دمي يسيل بغزارة لدرجة أن لعنت كلّ شيء. لماذا منحنا الله هذا الجرح الذي يفتحه الرجل كلّما أحرقته شهواتُه؟ ثقبٌ مختومٌ بغطاء ناعم كعشّ عنكبوت، يمكنه أن ينفجر من تلقاء نفسه عند أوَّل حالة غليان عاطفيّ. عندما اقتادوني إلى العصفوريَّة، كنت شخصًا آخر. هل أنا مجنونة؟ طبعًا لا.

تذكَّرت كلمة الطبيب *هل رأيت في حياتك مجنونًا يقول عن نفسه إنّه مجنون؟*

ـ أريد أن أرقص لك. حفلة ستربتيز.

ـ لا داعي. ارتاحي أحسن.

شعرت نحو ماجدة بشيء غريب. هو مزيج من الرأفة والخوف.

وأنا واقفة أستمع إلى جرحها الخفيّ، فجأة رأيت أياديَ مشعرةً وخشنة، تهجم عليها بلا رحمة. رموا عليها جاكيت المجانين وهي تتخبَّط بعنف كغزالة في بريَّة خالية. كانوا يزأرون ويصرخون:

ـ مين الطبيب الحمار اللي سمح لها بالخروج؟ قادرة تؤذي الآخرين.

ـ تحتاج لحجز انفراديّ. لا بدَّ من وضعها في ردهة جهنَّم، حتى لا تتسبَّب لنا في كارثة، مثل مجنونة السنة الماضية التي ذبحت صديقتَها الخرساء لأنَّها رفضت الحديث معها، في لحظة غضب؟

ـ تعتقد أنَّها لم تفعل شيئًا سوى أنَّها أشفقت عليها؟

ـ شو عرَّفني بهذه الزبالة؟ عالم من بؤس.

ثم طاروا بها بعيدًا. أكيد نحو غرف الحجز الانفراديّ، كما فعلوا معي في يوم من الأيَّام عندما انتابتني نوبةُ جنون حقيقيَّة، لأنَّهم رفضوا الاستماع لكلّ ما كان يحرقني.

منذ ذلك اليوم لم أرَها. ما تزال في رأسي صرختُها اليائسة: *يا أولاد الشرموطة اتركوني؟ ماذا فعلتُ. أنا أُظهر جراحي لامرأة تُشبهني. هو مات وارتاح، وأنا أدفع ثمن جريمته في حقِّي... يا أولادَ القحبة بيكفِّي...*

جرجروها ككيس مهمَل في زاوية مظلمة.

أحنيتُ رأسي، ومشيت بصمت وتواضع نحو الفراغ.

ـ ماذا يساوي جنوني أمام حرقة ماجدة؟

ـ ٦ ـ

أنا مي.

أنا سيِّدةُ الجنون والهبل الكبير، صمَّمتُ ألَّا أموت كما أرادوا لي.

لن أموت. سأبقى فقط ليراني هو، ليروني هم، أنِّي لم أَمُتْ.

للدخان طعمٌ آخر، مع الحياة.

السحبة الأولى كانت بطعم اللحظة، الثانيةُ كانت بلذّة شفتَيْ هلينا الدافئتين، الثالثةُ كانت بطعم الغياب.

من أين يأتي كلُّ هذا الصفاء؟

كانت رسالتُه في يدي. أتأمَّل العصافير وهي تبحث عن أعشاشها في مساءات بيروت النحاسيَّة. أكاد أصرخ في وجهه، ثم أُخفي نفسي. الاعتذارت المتكرِّرة خطوةٌ نحو موت الشيء الذي يحكمنا. جملة الرسالة الأولى لم تَرُقْ لي. بدت لي باردة.

- مي العزيزة، أعتذر عن كلّ ما حصل لك. ليس إهمالاً ولكنَّها صعوباتُ الحياة. لم أسمع بالجريمة إلَّا عندما عدت من سَفْرة أميركا. أرتِّب الآن مع الكثير من الأصدقاء، حملةً حقيقيَّة لإخراجك من جهنَّم العصفوريَّة. نخطِّط مع مجموعة من المحامين الكبار منهم المحامي حبيب أبو شهلا، الوزير السابق، وهو جدّ متحمِّس للدفاع عنك بلا مقابل. حكيت له عن وضعك الصعب. صديق المثقَّفين والحقّ. الأمر يسير الآن كما نريده.

شعرت بحرقة السيجارة في حلقي. لها طعمٌ آخر مع الحرِّيَّة.

أمين الريحاني... أوَّل من انتظرت أن يقف بجانبي، لكنَّه غاب كما غابوا جميعًا. صدَّق القَتَلَةَ بلا تعب. لا ألومُه. لا ألوم أحدًا في النهاية. لا يكفي أن يرفعك من تعرف وتحبّ، نحو الأعالي، تحتاج إلى من يقف بجانبك بصمت.

لا ألومه، لا أدري لماذا؟ ماذا فعل الآخرون حتى يشعر هو

بالحزن والندم؟ طٰه حسين الذي ظلَّ يعتبرني تلميذةً لها مستقبلٌ؟ ورفع الصالون إلى الأعالي: *كان صالونًا ديموقراطيًا، مفتوحًا، وقد ظللتُ أتردَّد عليه أيَّام الثلاثاء إلى أن سافرتُ إلى أوروبا لمتابعة الدراسة. أعجبني منه اتِّساعُه لمذاهبِ القول وأشتات الكلام، وفنون الأدب. وأعجبني منه أنَّه مكان للحديث بكلِّ لسان، ومنتدًى للكلام في كلّ علم*. العقَّاد الذي عشقته وقاسمته ما أخفيته عن الآخرين؟ كان نموذجي في الاستماتة من أجل الحقّ، لم يُخِفْه السجنُ أو الغطرسةُ. كان يجد ضالَّته في الصالون. يقول إنَّ الصالون جميل، لكنِّي أنا أجملُ من كلّ شيء. أنا ملكةُ التوجيه، وإدارة الحديث، بين مجلس المختلفين في الرأي والمزاج والثقافة واللغة. لطفي السيِّد صاحبُ مقولة: الاختلاف لا يفسد للودّ قضيَّةً؟ كان وزيرًا في حكومة محمَّد محمود للمرَّة الثانية، أنطوان الجميِّل الذي ظلَّ يسمِّيني بيبي، الذي كان زهرة الصالون، حبيبي إسماعيل صبري، دينامو الصالون الذي أعطاه من كلِّه بلا هوادة. خرج من هذه الدنيا وأنا بين هذه الحيطان، أين أحمد شوقي الذي غضب منِّي وأنا أحاكيه عن حادثة الدونشواي، من يومها لم أَرَه؟ حافظ إبراهيم؟ شاعر الرقَّة والمحبَّة، المحبّ للمرأة؟ وغيرهم كُثُر، من لم يعتبرْني مجنونة، صمت وما يزال، يستمتعُ بمشهد الجريمة التي مورست ضدِّي بشكل مُعْلَن، ويتلذَّذ، ولم يَقُلْ حتى كلمةَ حقّ في صداقة ظننتها كبيرة.

كيف تجرَّأ عبَّاس محمود العقَّاد أن يرميني بسهولة؟ ألم يكن حبيبي، رغم خلافاتنا الخاصَّة. كان مأزومًا من جبران وغيرِ جبران. ولم يكن لديّ أيُّ حلٍّ له. كان من الصعب عليه أن يراني امرأةً خارج السيطرة. خارج سربه النَّسويّ السرِّيِّ الذي أعرفه. حلال عليه، وحرام

عليّ، أن يكون شخص في أقاصي الدنيا، يفصل بيننا محيطٌ بكامله؟ ومن الصعب عليه أيضًا أن يقبلني بكلّ جنوني وحرِّيَّتي. منحته يومًا خاصًّا به. بنا. الأحد، لأنَّه كان يتضايق من يوم الثلاثاء المخصَّص للصالون. لم أكن مهيَّأةً للنوم معه، وهذا خِياري. شيء ما في داخلي كان يُرجعني في كلّ مرَّة إلى تربيتي في الدير. مع الزمن يئس منِّي. كان يغضب كطفل صغير. يرفع رأسه قليلًا ويضع إصبعه على دماغه، في عادة هي أقرب إلى شوقي، كالمعلِّم المفكِّر الذي يحمل على ظهره يأس الدنيا. أحاول أن أُقنعه أنَّ جسدي ليس مُلكي، لدرجة أن يئس من يأسي ومنِّي. هو يريد أنثى شهيَّة بعد فيلم جميل نراه معًا في *الفانوس السحريّ*، وبيت معطَّر مهيَّأ للحظة قد لا تتكرَّر أبدًا، فيفاجَأ بامرأة تفعل معه كلّ شيء إلَّا أن تنام في حضنه. حظّه وضعه في كفَّيْ مثقَّفة، لا تنفعه كثيرًا في الفراش، تكاد تكون هو، رجلًا بجسد امرأة تفكِّر. شبيهته في كلّ شيء، حتى في غيرتها وعنادها. أكاد أصرخ وهو يمدّ كفَّه الرجوليَّة نحو جسدي الذي كان يرتعش كلَّما مسَّه، *يا حبيبي أنا امرأة مسيَّجة بالممنوعات، من كلّ الجهات، ما زلت أحمل في داخلي ظلامَ الأديرة، وأوامرَ أمِّي، وخوفيَ من مبهم لا أعرفه، وابنَ عمّ لا أعلم إذا كان يحبّني، أو ما يزال مع زوجته الفرنسيَّة.*

كلّ ما وجده العقَّاد ليقوله عنِّي: مي متديِّنة، *تؤمن بالبعث وأنَّها ستقف بين يَدَيِ الله يومًا، ويحاسبُها على آثامها. بالرَّغم من شعورها بالحياة، وإحساسها العميق الصادق، وذكائها الوضَّاء...*

اختلفنا بعمق. لم أكن سارة التي اشتهاها، فحشرني في هند؟

لا أدري إذا كان حبًّا.

العقّاد الذي تحوَّل مثل عاصفة دخان، كان يحبّني. عندما سافرت في صيف ٣٠ أغسطس ١٩٢٥ إلى إيطاليا، ومنها إلى ألمانيا، كتبت له رسالة، لا أدري إذا كان ما يزال يحتفظ بها: *حسبي أن أقول لكأنَّ ما تشعر به نحوي هو نفس ما شعرت به نحوك، منذ أوّل رسالة كتبتها إليك وأنت في بلدتك التاريخيَّة أَسوان. بل خشيت أن أفاتحك بشعوري نحوك منذ زمن بعيد. منذ أوّل مرَّة رأيتك فيها بدار جريدة المحروسة. الحياءُ منعني، وقد ظننت أنَّ اختلاطي بالزملاء يثير حميَّة الغضب عندك. والآن عرفت شعورك، وعرفت لماذا لا تميل إلى جبران خليل جبران. لا تحسب أنّي أتَّهمك بالغيرة من جبران، فإنَّه في نيويورك أو بوسطن، ولم يَرَني أبدًا. ولعلَّه لن يراني كما أنّي لم أَرَه إلَّا في تلك الصور التي تنشرها الصحف. لكن طبيعة الأنثى يلذّ لها أن يتغاير فيها الرجالُ وتشعر بالازدهاء حين تراهم يتنافسون عليها.*

أفظع الأشياء هي أن تشعر أن لا نصير لك في عالم الخوف والصمت هذا.

أكاد لا أعرفني أبدًا. كم من مرَّة قلتُها في خاطري، من دون أن أعلنها.

لا أحبّ الانتحار، لكنَّه فرضيَّة قائمة في مخّي عندما ينتابني اليأس الكلّي. لا أكرهه، لكنّي أعتبره هزيمة كبيرة أمام قَدَر أقوى. أسوأ ما ينتاب الإنسان من قوَّة ضعفه، إعلانٌ صريح عن الفشل الكبير. لحظة تسليم حياتنا الثمينة لقدر أعمى. لا نفكّر بعدها في شيء سوى في حالة التهاوي والسقوط، وفي درجة الألم. الألم هو المحدِّد لكلّ الخطايا. يمنعنا عن القفزة الأخيرة من شرفة الموت.

أبي كان دائمًا يذكِّرني بهذا، كلّما قرأ ذلك الشيء الغامض في عينَي، والذي لم أعرف أنَّه الكآبة إلَّا عندما كبرت:

ـ تعرفين يا مي. أسوأ ما ينتاب الإنسان، هو إنهاء علاقته بحياة هي في حركة دائمة. الحياة ليست لنا، ولكنَّها لشيء يتخطَّانا. للخير والحبّ. أرواحنا للربّ، احذري من التفكير في هذه اللعبة، فهي ليست تسلية. يمكنها أن تتحوَّل إلى حقيقة.

ـ لا تَخَفْ عليّ يا بابا. ابنتك تشبهك بقوَّة. لا تستسلمْ. رأيت خيباتك وهزائمك. شممتُ رائحة عَرَقك وأنت تكافح. بل سمعت عظامك وهي تقرقع بحثًا عن أماكنها بعد أن تفكَّكت طوال اليوم بحثًا عن أماكنها. كوَّنت في داخلي، من دون أن تأمرني بذلك، شيئًا في الداخل ضدَّ العدميَّة، وربَّما هو ما يحميني من مزاجي الذي يخيفني أحيانًا.

كنت داخل الحقيقة ولم أكن أكذب على أبي. كان مَثَلي الأسمى في المقاومة. على الرَّغم من أنَّ الانتحار حالة اختصار للألم ومحاربة اليأس، في أعماقي شيء ينتصر دومًا للحياة، كيفما كان اتِّجاهها.

أدخل كابوسًا، وأخرج منه، لأعود له ثانية. فأجدني في عتمة أخرى من جديد، لكن لم أسدَّ أيَّ باب ورائي وأنسحبْ. هذا لا يشبهني أبدًا. كثيرًا ما سافرت، لأقطع حدًّا مع الخيالات التي تقهرني. نمت العديدَ من المرَّات فقط لأنسى ما يأكلني، وأتخطَّى مسلك الكوابيس. أحارب كآبتي التي أكَّد لي عليها الطبيب النفسيّ، بيقيني الوحيد ورغبتي المجنونة في أن يراني الذي وضعني داخل هذا الخراب، حرَّةً كفراشة، وأنَّه لم يَنَلْ منِّي في شيء.

حلمي الوحيد في هذه الدوَّامة أن يراني على غير ما اشتهاني.

جرح القسوة والظلم لا يُنسى، لكنَّه ليس المنتهى. تلك معركتي، عندما أنتهي منها، سأعود إلى نفسي.

حلمي أن أرى جوزيف وهو يلمحني بنصف عين، وهو يراني أسترجع حقِّيَ في الحياة الذي طمسه.

أسحب اللفافةَ الأخيرة بمتعة طويلة متأمِّلة الأمطارَ الخريفيَّة التي كانت تتكسَّر على الزجاج، مُحْدِثةً صوتًا ناعمًا وصُوَرًا سرياليَّة بلا أشكال ثابتة. يصعد الدخان عاليًا داخل الغرفة. يمنحني دفئًا كبيرًا وشهوةً للحبِّ والتحليق عاليًا.

شيء فوق الحرِّيَّة يسحبني نحوه. ينتابني بقوَّة.

ربَّما كانت أنفاس العذراء الزكيَّة.

٣ ـ سَامِحْهُمْ يَا رَبِّي، فَهُمْ لاَ يَعْلَمُون

ليلة ٢٨ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٦ وما تلاها

ـ ١ ـ

من أين يأتي كلُّ هذا البرد القاسي وكأنّي أنام تحت الأقواس العارية.

يااااااه يا بيروت ماذا فعلتِ بي؟ هل يُعقل؟

ـ وآهٍ يا بيروت؟ كيف احتملتِ أن أجتاز شوارعك في ذلك الموكب المُشين الأليم؟ كيف احتملت الدموع التي سكبتها في تلك السيَّارة، وأنا بين الطبيب، وتلك الممرِّضة الخشنة، أشعر بوحدة رهيبة في الدنيا، وأرى القدر المروّع المُعَدّ لي من دون أن أدري لماذا؟ بحجَّة التغذية وباسم الحياة ألقاني أولئك الأقارب في دار المجانين أحتضر على مهل وأموت شيئًا فشيئًا. لست أدري إذا ما كان الموت السريع هيِّنًا أم الموت البطيء.

يا مدينتي العاشقة. مهربي الكبير عندما ينتابني الخوف والوحدة.

سكني في الوحدة، وغطائي في الغربة.

أتنفَّس عميقًا. أكاد لا أصدِّق. أشعر بندى النباتات يدخل إلى صدري الضيِّق.

تنظر إليَّ الممرِّضة المكلَّفة بالسهر عليّ ليلًا. تضمّني إلى صدرها طويلًا. تتمتم بلغة إنجليزيَّة أنيقة تكاد لا تُسمع.

ـ أنت هنا في مأمن. تحت تصرّفك في كلِّ الأوقات.

أستعيد بيروت التي ضاعت منِّي منذ سنة.

من هنا، أرى أو أتخيَّل، جبالَها، ناسَها، عشَّاقَها على حافَّة البحر، جبالَها المغطَّاة بالثلج. شوارعها الناعمة.

عندما أفتح النافذة، تدخل الرياح الباردة، فتنعشني. أهتزّ كما الورقة اليابسة التي تستعيد حياتها من جديد. البرد القاسي، عزّ الشتاء، لكن بمجرَّد إغلاق النافذة، يعود الدفء من جديد. الرياح التي عصفت طويلًا البارحة، وهزَّت الأشجار بعنف شديد، لدرجة أنِّي كنت أحسّ بأنَّها ستغادر جذورها، وستُقتلع من الأعماق، توقَّفت نهائيًّا.

جسدي لم يعد لي من شدَّة الإنهاك والبرد، لكنِّي شديدة السعادة. تعوَّدت ألَّا أثق في الوعود الهاربة. الوعد هذه المرَّة كان صادقًا. أخيرًا جاؤوا بي إلى مستشفى نيقولا رابيز[1]. شديدة الإنهاك لكنِّي حالمة. لم يبق فيَّ إلَّا مخِّي المخترَق، الذي كان ما يزال يفكِّر قليلًا.

أخذوني في عربة ساعدتني على التنقُّل، نحو سيَّارة الإسعاف. كنت مثل ميِّتة. لكنَّ الحياة بدأت تدبّ فيّ. أحاول أن أتخلَّص من

(١) نُقلت مي إلى مستشفى نيقولا رابيز، ومكثت فيه من ٢٨/٠١/١٩٣٧ إلى ١٤/٠٢/١٩٣٧.

صورة جوزيف، لكنَّها ماثلة أمامي مثل الكابوس. تمنَّيت أن أكرهه لكنِّي لم أتمكَّن. تمنَّيت أن أكرهني، فأحرقت في لحظة غضب بعضَ كتبي، والمخطوطاتِ التي لم تَرُقْ لي، وكذلك أحرقت الدار. لم أكن مجنونة لكنِّي كنت خائفة من أن تسقط بين أيديهم.

أحيانًا أقول ماذا لو اعتذر لي جوزيف عن خطئه القاتل، وجثا عند قدميّ كما يفعل عند القدِّيسات، واعترف بخطئه القاتل، وطلب منِّي أن أرى صدقه في عينيه، هل كنت سأغفر له؟ لا أعتقد. لا أدري. بي شيء من الضغينة نحوه، نبتت عميقًا فيّ كالجرثومة، واتَّسعت خرائط الشكّ فيّ حتى استولت على الجسد الجريح الذي فقد الطعم والسمع، وأصبح يصغي لخوفه وأنينه. مع أنِّي لست كذلك. كلَّما تذكَّرت آلامي أغمضت عيني طويلًا وضغطت بكلِّ قواي، لكي لا أرى نار حقدي المشتعلة فيّ.

شعرت بأسى تجاه الذين غادرتهم. بالخصوص العاشقة وحبيبها خادم الحديقة. كانا يعيشان قصَّة حبٍّ حقيقيَّة في غابة مثل البدائيِّين، على الأقلِّ من طرفها. من الصعب على المرأة أن تخادع في عواطفها من دون أن يظهر ذلك عليها.

في مرَّة من المرَّات سألتني بخجل. كانت في صفاء أذهلني. لم يكن بها أيّ جنون، بالخصوص بعد خروجها من نوبات حادَّة تصرخ فيها بأعلى صوتها.

منذ مدَّة وهي تعيش هدوءًا خاصًّا.

ـ مش حلوة، بس بدِّي أسألك.

ـ تفضَّلي حبيبتي إيزميرالدا.

ـ السؤال شوي محرج. أنا بنام بشكل كامل، مع أميري خادم الحديقتين، العليا والسفلى، حبيبي كازيمودو، مرَّتين في الأسبوع. بس بخاف أحمل منه. هو يقول إنَّه يعرف تفاصيل هذه الأمور، يعني...

ـ فهمتك يا قلبي.

ضحكت طويلًا. قلت لها: مثلك حبيبتي، ويمكن أكثر. أمِّيَّة. ربَّما مثل كلّ بناتنا البالغات. مع ذلك، عرفت تفاصيل كثيرة عن هذا الشيء الذي تتحدَّثين عنه.

ـ قصدك ما جرَّبتِ؟

ـ بهذا الشكل، لا.

ـ يووووه يا مي، لو تجرّبي ما راح تعرفي توقَّفي بنوب.

ضحكت طويلًا لدرجة أنِّي لم أستطع أن أوقف ضحكتي المتفجِّرة. خجلتْ في مكانها، لكنَّها كانت تحكي براحة وكأنَّها مجرَّبة كثيرًا. *ربَّما؟ قلتُ في أعماقي، شو عرّفني؟*

وشرحت لها عن الحلِّ الطبيعي الخاصّ بالحساب، بدءًا من نهاية العادة الشهريَّة، والحذر كثيرًا. لا أعرف إذا كانت إيزميرالدا حقيقة مجنونة. كانت تستمع إليّ بجدِّيَّة كبيرة. فهي مقبلة على الحياة كامرأة.

قالت:

ـ سأجرِّب وأحكي لك لاحقًا. يمكن يطلع كلامك صحّ.

ضحكت مرَّة أخرى في أعماقي. كدت أقول لها: *جئتِ عند أسوأ* خبيرة ههههه. لكنِّي فضَّلت الصمت. حشرتني إيزميرالدا في أمر كنت لا أعرف عنه الشيء الكثير. أنا أيضًا كنت مقيَّدة بتربيتي القاسية.

إيزميرالدا متحوِّلة كما الريح. يومًا ناعمة كنسمة بحريَّة، ويومًا عاصفة. في الحالتين أعطف عليها.

عندما جاءت لتودِّعني، يوم مغادرتي العصفوريَّة، كانت مشرقة، بعينين جميلتين مكحّلتين. وشعر غجريّ أشعث. همست في أذني كأنَّها خائفة من أن يسمعها شخص ما:

ـ افرحي لي يا ستّ مي، أنا حامل. فحصني طبيب العصفوريَّة عندما رآني أتقيَّأ كثيرًا، أكَّد لي على الحمل. استدعوني بعدها للمكتب، وقلت لهم الحقيقة كلّها. سألوني إذا اغتصبني أميري كازيمودو، قلت لا. حبيبي مستحيل يغتصب حبيبته لأنَّه يحبّها، وليس في حاجة إلى ذلك، فأنا له بكلِّي. وأميري كان رجلًا مستقيمًا. اعترف هو بنفسه أمام الطبيب، وقال بوفاء: هذه حبيبتي وهذا ابني أو ابنتي. وعدونا أن يأخذونا للكنيسة، ويزوِّجونا دينيًّا، ولم يُطرَد من عمله. كما كان يظنّ. بس أرتاح شوي، نتزوَّج، نرحل ونخرج من هذا البؤس. قال الطبيب إنَّ شفائي قريب جدًّا، وإنَّ حالتي تتطوَّر بسرعة إيجابيًّا.

ـ بس كيف حملتِ؟

ـ ما بعرف. طبَّقت طريقتك وما نفعت، أو أنا خربطت في الحساب. يمكن العادي أحلى. أنا كثير مبسوطة. سنغادر معًا المكان، ونذهب لنعيش في الجبل. العذراء تفهم جيِّدًا قلبينا.

ـ ألف مبروك حبيبة قلبي إيزميرالدا.

ـ لازم تحضري لعرسنا.

ـ بمشيئة الله.

حبيبها كان في الخلفيَّة، اكتفى برفع يده والتأشيرِ لي من بعيد. حيَّيتُه من حيث المكانُ الذي كنت أقف عليه.

لا أدري ماذا أقول؟ هل التي كانت تحدِّثني، كانت جادَّةً؟ هل ما زالت مجنونة. فقد تغيَّرت بسرعة، في كلامها المهذَّب. في لباسها الفاتن والمورّد الجميل. لم يفتها أن تنبِّهني له:

ـ شفت لباسي ما أحلاه؟ حبيبي اشتراه لي.

ـ حلو. يلبق لك يا روحي.

ـ أوَّل ما أخرج، أزورك في رابيز. خلص. وعد.

ثم عانقتني. شممت عطرها الرخيص. أخرجت قنِّينة عطر إيطالي ووضعتها في يدها.

ـ أنت امرأة رائعة. أرى أنَّك شُفيت بفضل الحبّ. استمتعي بالحياة إيزميرالدا. تستحقّ منك ذلك. لقد سرقوا منك الكثير. ليحفظك الله يا روحي.

البرد قارس، ولكنَّ المكان هنا أرحم. الأسرَّة حديديَّة، لكنَّها ليست مثلجة، كما في العصفوريَّة. ينتابني الإحساس العميق أنَّ المحنة الأولى انتهت ليبدأ شيء آخر قد يكون أقلّ عنفًا لأنَّ جسدي لم يعد قادرًا على التحمُّل. ولو أنَّ إحساسي بمحنة أخرى يرتسم في الأفق المتعب.

لن يتوقَّفوا عند هذا الحدِّ. من يُبْنِ مشروعه على الشرّ، فلن يتوقَّف عند هذا الحدّ.

يوم دخلت إلى رابيز وجدت كلّ الناس الذين تضامنوا معي، في انتظاري. آل الجزائري الذين فرحوا جدًّا بخروجي من العصفوريَّة.

ساندوني بقوّة لحظة ما سمعوا بالجريمة الموصوفة. شعروا بالظلم المسلَّط عليّ. كانوا من علِّيَّة أهل الشام. كنت أعرف عميد العائلة، الأمير سعيد الجزائري، حفيد عبد القادر الجزائري. يوم زرت الشام بدعوة من نساء سوريا، كتب تقريظًا عنّي. لقد ركض آل الجزائري طويلًا بين الإدارات لإنقاذي من جنون حقيقيّ. جهنَّم التي عشتها أثقلت حياتي، وأعمت الكثير من حواسّي إلَّا حاسَّة الاستماع لآلام الآخرين ونشيجهم، فقد علَّمتني الكثير من الصبر. أشعر كلَّما غفوت قليلًا، أنَّ تجربتي في الألم كلّها، كانت كأنَّها من طعم سيِّدنا المسيح ودمه، وهو يقطع درب الآلام حاملًا على ظهره صليبَه ومساميرَه.

آل الأيُّوبي والخوري، والسيِّد فارس الخوري تحديدًا، رئيس المجلس النيابي السوري، وزوجته الطيِّبة، السيِّدة أسماء عيد، لم يقصِّروا معي. ظلُّوا يصغون إلى حرقة الظلم التي ألبسها لي أهلي وأنسبائي بالقوَّة. جعلوا من قضيَّتي مسألة إعلاميَّة، صحَّحت ما قالته الصحف المأجورة. كلمات فارس الخوري وزنت كثيرًا، في وقت تخلَّى عنّي من أحببتهم في مصر. لا أفهم لماذا؟

قلبي يؤلمني كلَّما تذكَّرت أحبابي في مصر. لا أنسى جحودهم. سأظلّ أقول هذا الكلام وأكرِّره بلا توقُّف. ماذا لو أثار طٰه حسين زوبعة، وهو سيِّدُها وقادرٌ عليها؟ ألم أقف بجانب قضيَّته ضدَّ الظلم الذي تعرَّض له، يوم حوكم بسبب كتابه في الشعر الجاهلي؟ ويوم طُرد من الجامعة؟ ماذا لو ركض نحوي محمود عبَّاس العقَّاد من القاهرة، إلى بيروت، ألم أكن حبيبتَه التي ألهمته بكتاب(١)، ومنحَتْه ما لم تمنحه

(١) رواية سارة.

لأحد غيره، وضمَّني إليه، كما تعوَّد أن يفعل معي كلَّما عدت من سفرة، أو جاءني من قريته حيث يهرب دائمًا؟

لا يمكنني أن أتخطَّى هذا الرجل أبدًا. لا نعترف بالحقيقة، لكن بعض الحروب كاذبة بالخصوص التي عرفتها، معركة على السفود بين عبَّاس محمود العقَّاد، ومصطفى صادق الرافعي. لم تكن ثقافيَّة، وأدبيَّة بالمعنى الدقيق للكلمة. في عمقها كانت نار الغيرة تشتعل بينهما بسببي. هل رأيتم رجلًا يحبّ غريمه في امرأة الأقدار المجنونة، أو تلك التي يتخيَّلها حبيبته؟ الرافعي كان يراني أنِّي أُعاشر شخصًا يكره المرأة، وأنَّ كلّ ما فيها هو غيرُ صحيح، وأنَّه لا يحترمني، وأنَّه يحكي في المجالس أنِّي نعجتُه الشهيَّة، وعشيقتُه. وكان العقَّاد، حتى من دون أن أُبدي رأيي فيما يفعله، ينتفض بقوَّة. أعرف غيرته الكبيرة من كلِّ المنافسين له أدبيًّا، بالخصوص جبران. لكنِّي كنت أقول له دائمًا الإجابةَ التي لا يحبّها ويكرهها: أيّ حبٍّ هذا؟ جبران هناك، وأنا هنا، لا أصلح له، ولا أعتقد أنَّه يصلح لي. أنا امرأة تربيتي دينيَّة، لبقة جدًّا. رجلي يجب أن يكون لي كلِّيًّا وإلَّا لماذا اخترته من بين العديد من الرجال؟ كان يسخر كثيرًا من الرافعي مثل طفل حقود: *ماذا عشقت في رجل أصمَّ وأبكم، ومعتوه، وربَّما مجنون أيضًا*. لم أكن أملك وسيلة الدفاع عنه إلَّا الصمت. كلّ ما كان يكتبه الرافعي، كان العقَّاد يأتيني به ناقمًا: *ها هو معتوهك يُهينك مرَّة أخرى، أمام الجميع، وأنت تجدين له كلَّ سبل التسامح*؟ وكانت علاقتي على كفّ عفريت، فوق بركان حقيقيّ. انفجر البركان وخرجت من كفِّي، كلُّ العفاريت المتخفِّية: *أنا امرأة حرَّة، ولست أَمَةَ أيّ رجل. إذا ما عجبتك أمامك النيلُ واشربْه*. كلَّما تطرَّفتُ في مزاجي صار العقَّاد

عاقلًا فجأة. أنا امرأة معشوقة ليس لأنِّي أجملهنَّ، ولكنِّي فقط أشبههنَّ. المرأة المكروهة المحبوبة، السهلة الخطيرة، العاشقة المكروهة.

أنا امرأة حيَّة، لم تمت بعد كما شاء لها الآخرون، وتعرف ماذا تريد. أتذكَّر دومًا كلمة هدى شعراوي رائدةِ صالوني: مي *تعرف قَدْرَ نفسها في تواضع جميل*.

ثم ماذا لو سأل عنِّي سلامة موسى؟ ألم يعلن لي عن حبِّه عشرات المرَّات، ورفضته لأنَّ أنانيَّته كانت كبيرة، ونَفْسَه الداخليَّة كانت صغيرةً؟ مع أنِّي كنت معجبة بما كان يكتبه أيَّما إعجاب. كم هي المسافة كبيرة بين الإيمان بفكرة الخير، والقدرة على الدفاع عنها وتنفيذها. كلمات فارس خوري كانت مهمَّة وفَّرت لي بعض السكينة:

ـ يمكنني أن أقول بكلِّ صراحة إنَّني تحدَّثت إلى أناس كثيرين في بيروت فلم أرَ فيهم مَن هو أعقل من الآنسة مي. وأزيد على ذلك أنَّني سمعت من بعضهم أخطاء لم تَفُهْ مي بواحدة منها. هي بحالة عقليَّة تامَّة، لكن صحَّتها الجسديَّة ضعيفة.

تشدّ زوجته السيِّدة أسماء عيد على يدي.

ـ محنتك ستتوقَّف. فارس سيقوم بكلِّ شيء. متأكِّدة من ذلك.

ـ هذا ما كنت أنتظره يا سيِّدتي. أتساءل أحيانًا في خلوتي: أهذه هي المكافأة التي أعدَّتها لي المرأة الشرقيَّة بعد جهاد طويل من أجلها؟ أهذا ما تلقاه الأديبة في الشرق؟

ـ فارس كلَّف الوزير السابق المحامي حبيب أبو شهلا للدفاع

عنك. وتطوّع لفعل ذلك أمام المحاكم اللبنانيَّة للتأكيد على سلامة عقلك واسترداد حقوقك المغتصبة. وربَّما العمل على تشكيل هيئة طبِّيَّة لاختبار وضعك والانتهاء من هذه المحنة التي يعلم الله كم آذتك.

ـ بحاجة إلى قليل من الراحة فقط لكي أسترجع نفسي التي ضاعت داخل الخيبات واليأس. أنام قليلًا وأقول شكرًا أيُّها الربّ. وأعتذر منه عندما صرخت لماذا تخلَّيت عنِّي يا الله.

ـ أنت الآن في مكان آمن، لا خوف عليك. وفارس عمل كلّ شيء من أجل راحتك.

في الأخير، عندما التفتَتِ السيِّدة أسماء نحوي، شعرت بألم عميق في قلبي، وعيني، وأنا أرى خطَّين مستقيمين يرتسمان على خدَّيها، قبل الخروج. كانت صادقة.

وعمل الكثير، بل والمستحيل لأكون هنا.

رافَعَ من أجلي أمام أعضاء المجلس(١): *ما حدث لمي، هو أكبر جريمة ضدّ المرأة وضدّ العقل. كيف لا تهتمُّون بهذه النابغة اللبنانيَّة؟ كيف تُسْجَن مي بين جدران مستشفى المجانين، ولا يثور الرأي العامّ اللبناني ويظلّ هذا الخبر سرًّا مكتومًا. لقد كان حديثها لي حلوًا لا إبهام فيه ولا تعقيد. لقد وجدت فيها مي الكاتبةَ، الشاعرةَ التي عرفناها في الماضي، فكيف دُبِّرت هذه المؤامرة الدنيئة؟ على نابغة النابغات؟ أنقذوا مي، وابذلوا جهدكم. حرام أن تُعامَل الأنوثة التامَّة والنبوغ والعبقريَّة هذه المعاملةَ التي عوملت بها مي؟*

(١) نُشرت المرافعة في جريدة بيروت في ١٢ شباط/ فبراير ١٩٣٨.

قد تأتي الأشياء متأخِّرة لكنَّها تحمل فرحها أيضًا لإزاحة الظلم.

امتلأ قلبي بالنور. يمكنني الليلةَ أن آكلَ.

تصريحات فارس الخوري كانت مهمَّة، أعادت لي الأمل في الحياة.

البشر الخيِّرون هم من يُعيدون لنا الأمل ونحن في مدار الهاوية. لا يأس.

لا أدري لماذا تذكَّرت كلمةَ سيِّدي وحبيبي وأستاذي الكبير لطفي السيِّد. قلبي موجوع من غيابه، لكن حركته في مصر من أجلي منحتني بعض الثقة فيه. تعجبني مواقفه الكبيرة. اعتزل السياسة بعد الحرب العالميَّة الأولى فعاد إلى قريته بالدقهليَّة قبل عزل الخديويّ عبَّاس، وإعلانِ الحماية على مصر، وتنصيبِ الأمير حسين كامل سلطانًا عليها. قَبِلَ لطفي السيِّد منصب مدير دار الكتب المصريَّة الذي عرضه عليه الخديويّ حتى لا يقبض عليه الإنجليز، لكنَّه سرعان ما استقال، ليعود ثانية إلى دار الكتب، بعد الاحتفال بتأسيس الجامعة المصريَّة التي ترأَّسها. ثم دخل لطفي السيِّد ضمن تشكيل حكومة محمَّد محمود باشا كوزير للمعارف. ثم ترك المنصب، ليعود ثانية إلى رئاسة الجامعة في ١٩٣٠ ليستقيل منها في ٩ مارس ١٩٣٢ احتجاجًا على نقل طٰه حسين من الجامعة إلى ديوان الوزارة، من دون موافقته، وهو ما اعتبره تعدِّيًا على مؤسَّسات الدولة[1].

(١) في سنة ١٩٤١ غادر لطفي السيِّد الجامعة محتجًّا على اتِّصال الأمن بالطَّلَبة. وانتهى به الأمر في مجلس الشيوخ، ثم رئيسًا للمجمَّع اللغويّ قبل وفاته في ٥ آذار/مارس ١٩٦٣. هو صاحب مقولة: «*الاتِّفاق في الرأي لا يُفسد للودّ قضيَّة*».

لو فتحت باب هذا الرجل العظيم لن أتوقف أبدا. من الناس الذين عرفتهم في وقت مبكر في بيروت.

ـ ٢ ـ

تمنحنا الطبيعة أحيانًا ما يعجز عنه البشر.

هذا الصباح بلون آخر بلون الخضرة والنحاس.

تبدو الأشجار والمدينة كأنَّها طُليت بالذهب في أعاليها وقمم جبالها.

فقد بدت الشمس الشتويَّة من نافذة غرفتي الجديدة، جميلةً والغابة هادئة ومستكينة. والممرَّات، والطرقات الصغيرة من أعالي البناية كرسوم متقنة الصنع. البناية ساحرة جدًّا وكأنَّنا في بيت أندلسيّ قديم يستحمّ في الشمس صباحًا، وينام على عطر الياسمين، ومسك الليل.

تذوب السيجارة بهدوء ويقين بين أصابعي المستسلمة. كلَّما ارتعشت، أحسست بأنَّ شيئًا ما فيّ يشتعل مثلَ البركان، فأحاول أن أهدِّئ من روعي حتى ولو كان مصدره وهمًا.

كلّ يوم أحسب الدقائق لأرى الشمس وهي تخرج من وراء الصفصافة العالية، مسلِّطة أشعَّتها على قلبي. كم أحتاج أن أكبر في ظلِّها بلا أسئلة. أغمض عيني ثم أفتحهما لأجد نفسي وراء البيانو القديم أعزف آخر أداجيو لموزارت، أو سنديانةِ شحتول أكتب فرحي الطفوليّ الذي اغتصبه جوزيف مع أنِّي بنيته معه.

أفعل هذا كلَّما شعرت بحزن لأستعيد الرغبة في الحياة. أحتاج لها باستماتة المجنون.

هذا المشهد رافقني منذ صغري. وأنا في الناصرة، كنت أصعد باكرًا إلى السطح. أفتح عيني عن آخرهما. أشاهد الشمس وهي تخترق كلّ الحواجز. أراها تشرق من وراء كنيسة البشارة الضخمة والعظيمة، والجامع الأبيض المواجه لبيتنا، في الحيِّ القديم. ولا أنزل أشرب قهوتي على الرَّغم من نداءات أمِّي المتكرِّرة، حتى أستحمّ بالأشعَّة الصباحيَّة الأولى قبل أن يعلوها الغبار وتلتصق بها الأتربة. أستيقظ أحيانًا على صوت المؤذِّن يرسل في السحر نشيدَه الرائق المشجي: الله أكبر. الله أكبر. فلا تلبث أن تتعالى من ناحية أخرى، في البلدة رنّات أجراس النواقيس في انسجام وحُسن إيقاع، فتنشد بلغتها الفضِّيَّة ما مفادُه «الله أكبر». ويندغم النشيدان في اصطحاب متفرِّد، ينتشر مرفوفًا كالجناح، ثم يحملني ويحلِّق بي في مجاهل الأثير، شأن من يقصد إلى قلب العوالم والأكوان، إلى حضن باري البرايا، الرحمٰن الذي لا إلٰه للجميع إلَّاه.

كنت أتهيَّأ لاستقبال يوم جديد، عندما سمعت دقًّا خفيفًا على باب غرفتي الجديدة. هنا في رابيز، لا شيء غير السكينة والدواء والمراقبة الصحِّيَّة. كلّ لمسة من الطبيب أو الممرِّضات تُعيد لك إنسانيَّتك. لا تحتاج لا إلى حجز ولا إلى جاكيت مجانين. هذا الإحساس وحده يكفي للارتقاء بك. يحتاجون إلى قليل من الراحة فقط.

في العصفوريَّة فقدت كلّ شعور بالأمان.

أخبرتني الممرِّضة يواكيم إستر عن أنَّ سيِّدة من آل الجزائري تريد أن تراني بعد أن أجرت عمليَّة جراحيَّة معقَّدة، وهي في غرفة ليست بعيدة عن غرفتي.

آل الجزائري سمعت عنهم كلّ الخير. وصلتني بعضُ أصداء جهودهم للخروج من العصفوريَّة.

ـ تعرفين يا إستر، هؤلاء أهلي وأحبابي. آل الجزائري أكرموني يوم عبرت نحو الشام. الأمير سعيد الجزائري، أكرمني بمحبَّته. نعم أجيء معك. بس دقيقة واحدة، أغيِّر هُدومي حتى لا تهرب السيِّدة الجزائري من رؤيتي هههه.

ـ معك دقيقة يا آنسة مي، قبل أن يمرّ الطبيب في دورته الصباحيَّة، وقبل أن تنام السيِّدة.

غيَّرتُ لباسي وسرت في أعقاب إستر النشيطة. دخلنا الغرفة بهدوء بعد أن سبقتني. اقتربت منها إستر. وشوشت في أذنها. قامت السيِّدة بكلِّ احترام ووقار من فراشها. كانت الخيوط التي تنزل من حوضها وبطنها كثيرة، بعد العمليَّة الجراحيَّة.

سبقتني ببعض الكلمات:

ـ ارتاحي يا آنسة مي. لا تتعبي نفسك. عائلة الجزائري تعرفك وتحبّك.

ـ مرحبًا سيِّدتي. قلبي معك. ربّنا يشفيك. ساعة ضيق وتمضي.

ـ مؤمنة بأقدار الله. هو سيِّد ما يشاؤه. أيَّام قليلة وأغادر المكان. أنا من اختاره. قلبي معك. كلّنا في الشام، نفكِّر فيك. لقد أصبحتِ رمزًا لمقاومة الظلم والضغائن ضدَّ المرأة. فكَّرنا في أن نأتي إلى المستشفى ونُضْرِب عند مدخل العصفوريَّة الرئيسي، لكن سيِّدي الأمير سعيد، عندما استشرناه، رفض، ووصف عملنا بالانتحار لأنَّه

سيعقّد الأمور، وسيقرأ المحتلُّ الإنجليزي الذي فرض وصايته على البلاد، فعلنا بشكل سلبيّ. ما ننتزعه منهم، أقلُّ بقليل ممَّا نشاؤه. نحن في حالة تمزُّق كلِّي. أنا من عائلة عميد عائلة الجزائري، الأمير سعيد، أحد أحفاد الأمير عبد القادر.

- حصل لي شرف التواصل معه قبل سنوات، يوم زرت الشام. رجل شهم جدًّا. نحفظ نحن المسيحيِّين كلّ الودّ والمحبَّة لدفاعه عن مسيحيِّي الشام بشهامة كبيرة. ونحفظ للأمير سعيد الأحاسيس نفسها عندما عمل باستماتة على توقيف الأحداث الدمويَّة بين الدروز والمسيحيِّين، وحقن الدماء. فقد فكَّر آل الجزائري في حماية المسيحيِّين لأنَّ الحكومة المحلِّيَّة سحبت كلّ قوَّاتها من حيِّهم وتركته بلا حماية في أحداث ١٨ تشرين أوَّل ١٩٢٥، ممَّا دفع بالعائلات المسيحيَّة من أمثال آل العجلان، القوتلي، الأيُّوبي، رجالًا ونساء وأطفالًا بعد الحريق، وذهب الأمير شخصيًّا لمقابلة الجنرال غاملان[١] وطلب منه أن يتوقَّف عن ضرب المدينة بالقنابل. وسمع الجنرال له. وفعل ذلك أيضًا مع المفوَّض الفرنسي السامي، ونبَّهه إلى كوارث استمرار الحرب بين الدروز والمسيحيِّين، والعمل على عقد صلح بينهما، لكنَّ المفوَّض السامي في سوريا، الجنرال سراي[٢] كان غارقًا في أفكاره الاشتراكيَّة ولم يكن يهمّه الشرقُ وعاداته، في شيء. كان مغلقًا. فجأة رأيت قسمات وجهها بشكلٍ أوضحَ عندما أشعلت الممرِّضة إستر ياواكيم الكهرباء.

---

(١) Le Général Maurice Gustave Gamelin, قائد القوَّات الفرنسيَّة في سوريا في الفترة ١٩٢٥ ـ ١٩٢٩.

(٢) Général Maurice Sarrail.

ـ أنت يا مي ممَّن يحفظون الودّ والخير والحبّ لكلِّ الناس. لو كان الزمن زمنًا صادقًا لوضعوك في رتبة وزيرة ليعود عملك بالعدل على أرضك وناسك الذين لم ينسوك أبدًا.

ـ يا سيِّدتي ما أجمل قلبك الكبير. لكنِّي لا أريد شيئًا آخر سوى إخراجي من هذا العفن.

ـ لقد اتَّصل سيِّدي بمن لهم قدرةٌ على فرض الحقّ، وسيظهر الحقّ قريبًا. منذ أن عرف سيِّدي بقصَّتك وهو لا ينام ويجمع كبار القوم للذهاب نحوك وإخراجك بالقوَّة.

ـ ممكن يستعملون الرصاص الحيّ. الكثير من الأطبَّاء مسلَّحون؟

بقيت معها حوالى النصف ساعة قبل أن تقصّ علينا حبل التفكير المرأةُ التي مع حبيبها أميرِ الحديقة. عرفتها من صوتها، في اللحظة التي كنت أهمّ فيها بالخروج. حاولت ممرِّضة السيِّدة جزائري طردها، لكن هذه الأخيرة رفضت. قالت بصوت خافت: مبيَّن عليها مسالمة. اتركيها. ليست عدوانيَّة. تريد قليلًا من الأمان لا أكثر.

ـ يا ستِّي هذه مجنونة تتخيَّل نفسها من سلالة الأمراء. سمَّت نفسها إيزميرالدا.

نظرت إليَّ كأنها كانت تنتظر منِّي دفاعًا:

ـ إيزميرالدا، امرأة طيِّبة. تعيش مع نفسها. أراها في كلِّ مرَّة في الحديقة، تحلم، تفرح، تحبّ، لكنَّها لا تؤذي أحدًا. جاءت لتراني لأنِّي غادرت المكان. وهي حامل من زوجها أمير الحديقة.

انفرجت عيناها عن ابتسامة عريضة.

ـ أنا وعدتك. تزوَّجنا خلاص. ونُقيم في الجبل. أميري برا. في قاعة الانتظار.

ـ هذه إلِّلي أمامك أميرة من آل الجزائري.

وركضت متحدِّية الجميع، نحو فراش الأميرة، وقبَّلت يديها ورجليها، وهي تتمتم:

ـ أنا إيزميرالدا. وأسمع بك، وأقدِّر أعمالك الخيريَّة في بلاد الشام!

سألتها الأميرة الجزائري عنِّي.

ـ هل تعرفين السيِّدة التي أمامك؟

قالت بلا تردُّد وصفاء كبير.

ـ نعم. أعرفها جيِّدًا. الستّ مي. المرأة الطيِّبة والنبيلة. الكاتبة الكبيرة الأميرة مي زيادة.

ضحكتُ بالرَّغم منِّي.

ـ أميرة؟ يا ريت. لم يعاملوني حتى كإنسانة فقط.

التفتت الأميرة من آل الجزائري نحوي، بينما وضعت إيزميرالدا رأسها على حُجْرها.

ـ ادعي لي يا مولاتي، أن يكبر ابني في الخير.

ـ إن شاءِ الله يا إيزميرالدا. عطرك حلو كثير.

ـ إيطاليّ.

فتحت حقيبتها الصغيرة ووضعته في كفِّها. خذيه يا سيِّدتي.

أعرف أنَّه لا عطر ينقصك. لكنَّه هديَّةٌ من مجنونة على فعل الخير.

التفتت الأميرة الجزائري نحوي:

ـ محنتك خرجت من العصفوريَّة، وكلّ الناس يعرفونها اليوم. تهون. الأمير سعيد، مصرٌّ على أن يوقف هذه المهزلة. اتَّصل بشخصيَّات نافذة في الشام، منهم عائلة الأيُّوبي، ورفعوا عريضة للدولة اللبنانيَّة، وللحاكم الفرنسيّ، ضدّ حجزك وحَجْرك. الدنيا ظالمة. شوفي هذه المسكينة. عائلتها جنَّنتها. وهي من الجبل. عشقت عاملًا في حديقة المدنيَّة. وهي هنا مرتبطة به بطريقتها الخاصَّة. كلّ واحد فينا يحمل قصَّته المعانِدة.

إيزميرالدا هي تعيش خارج دائرة البشر كلّيًّا.

فكَّرت أن أسألها بالتفصيل عن صحَّتها، لكنِّي قلت في نفسي إنَّ المكان غير مناسب. وكأنَّها سمعتني. أخذت يدي في حضن يدها.

ـ سأحكي لك قصَّتي مع هذا المرض المُتعِب. ربَّما كانت العمليَّة أكثر من ضرورة. أقدار الله تطال الجميع، كيفما كانوا، وأينما وُجدوا. حتى تلك التي تعيش في خدر جميل. الإنسان جزء من هذه الطبيعة القاسية والجميلة أيضًا، مع أنَّ أعماق بعضهم كثيرًا ما تكون طيِّبة.

ـ نعم يا أميرتي. في عمقه أيضًا مورثات متوحِّشة تُعيده إلى جذره الحيوانيّ وإلَّا ما حدث الذي حدث. ما الذي يدفع بشخص يملك كلّ سبل العيش الرغد، والهناء، والحياة الطيِّبة، إلى أن يتحوَّل إلى وحش حقيقيّ فقط ليؤذيك، ويستولي على كلّ ما أعطتك الحياة؟ جيِّد أنَّنا لا نملك إيمان الفراعنة، فنترك كلّ شيء وراءنا، ذَهَبنا وممتلكاتنا

وقصورَنا، وإلّا لزاد طمع الناس واقتتالهم. جرَّدوني من كلِّ شيء، حتى من حقِّي أن أكون إنسانة عاديَّة.

قبل أن أخرج، سمعت صوت الطبيب في البهو وهو يسأل ممرِّضته:

ـ هل هذه غرفة الأميرة الشاميَّة.

ـ لا. الثانية، على اليمين.

سحبتُ إيزميرالدا من ذراعها بسرعة، وخرجنا. قبل أن تطاوعني، قبَّلت يد الأميرة، ولم تنسَ أن تعنِّفني بغضب في البهو.

ـ أوعي يا مي... شوي، شوي على البيبي، الطبيب ما راح يموت إذا انتظر دقيقة؟ الجنين، ما بيتحمَّل لا الصراخ ولا العنف. لمَّا يجي على الدنيا، راح أقول له: شوف حبيبي، وحياة العذراء مو أنا. اللي زرّقت ذراعك هي خالتو مي.

ـ والله بيبي طالع لأمّه. دلع في دلع. يا الله بسرعة، نترك الحكيم يدخل.

ـ ٣ ـ

عندما وقف عند العتبة، عرفته من ظلِّه، وعطره، وأناقته الكبيرة.

لم أتحكَّم في حركاتي. قمت بسرعة من مكاني وعانقته طويلًا. لم يتغيَّر كثيرًا. أمين الريحاني، هو هو، الرجل الجميل. ربَّما جسمُه امتلأ أكثر.

ظللتُ صامتة أتأمَّله. أحنى رأسه قليلًا ولم يقل شيئًا.

خانتني كلّ الكلمات. خانني تجلُّدي وصبري، فبكيت طويلًا، ويداي في كفَّيه.

قال وهو يبحث عن كلماته بخجل.

ـ كأنَّك محجمة عن الكلام.

ـ ليس لديَّ ما أقوله.

ـ يا مي اعتذارٌ صادق خيرٌ من حقيقة مزيَّفة. تعرفين أنِّي كنت في أميركا الشماليَّة لمدَّة ثمانية أشهر. وأنا حزين لأنَّه كان يمكن أن أسأل عنك على الأقلِّ، أو أفعل أيّ شيء من أجلك.

جمد لساني، ولم أجد أيَّة رغبة في الكلام. بل انتابتني رغبة كبيرة للتقيُّؤ. حتى عندما خرج لم أتفطَّن له. ندمت في أعماقي لأنَّه بدا لي كأنِّي حمَّلته بأكثر ممَّا يطيق. لكن شيئًا ما تجاهه كان يحرقني في القلب، لأنَّه الأقرب إلى قلبي وروحي. لم يكن إنسانًا عاديًّا أو نكرة، بالنسبة لي. ليته فعل مثل الآخرين ولم يعد، كنت نسيته بلا ألم أو حنين.

مرّ كالغيمة، وكالظلّ انسحب.

بعد ثلاثة أيَّام عاد ثانية. هو هو، بابتسامته الطيِّبة، كما في زيارته الأولى. لم أمنع نفسي من الفرح به. ضممته إلى صدري كأنِّي منذ زمن بعيد لم أضمّ رجلًا. كنت أفعل الشيء نفسه، مع والدي قبل انسحابه من هذه الدنيا، منكسرًا ومريضًا وفي قلبه خيبة كبيرة. عانقته كما في المرَّة الأولى، وربَّما بشكل أكثر حرارة. أحسَّ بذلك، قرأت عينيه الصافيتين.

جلس على الكرسيِّ المحاذي للسرير. ابتسم وهو يقول بكلمات منتظمة كأنَّه حفظها عن ظهر قلب:

ـ أنا لا أتكلَّم اليوم، لقد قلت كلّ ما أريد قوله في الزيارة الماضية، ولم يسمعني أحد. إذن سأسكت، وعليك أنت أن تتكلَّمي حتى آذن لك بالتوقُّف هههه.

صمتُّ كثيرًا قبل أن أتفطَّن إلى أنَّني لم أكن أرغب في خسرانه، كما في المرَّة الماضية. كنت عاتبة عليه، ناقمة، بل حتى حاقدة أحيانًا. الذين نحبّهم نغفر لهم في آخر الوقت. رَمادي الذي سكنني كان أقوى منِّي.

ـ لقد كنتَ هنا عندما جيء بي من مصر يا أمين. وكنتَ هنا، عندما نُقلتُ إكراهًا إلى العصفوريَّة. وقد كنتَ هنا أثناء وجودي في ذلك الجحيم. كم من مرَّة فكَّرت فيك، وأنا ناقمة حانقة. أيعقل أن يصدِّق الأستاذ الريحاني بكلِّ جلاله وقدره وإنسانيَّته، ما يصدِّقه الناس؟ قلت في خاطري يومها: والله لو صدَّقت أمَّة أجمعها، ما شيَّعه الناس بخصوص مي، يجب ألَّا يصدِّقه الأستاذ الريحاني. بل أن يجيء بنفسه، ويرى بعينيه. هذا هو سبب نقمتي عليك.

ـ أعترف ولن أدافع عن نفسي.

ـ أخيرًا يا أمين، اقتنعت بغير ما أقنعوك، وجئت؟

ـ قصَّة طويلة يا مي. كنت دائمًا أقول لنفسي، كيف رضيتْ مي بالذهاب إلى العصفوريَّة؟

ـ لم أختر شيئًا يا عزيزي. جاؤوا بي إلى ذلك المكان لغرض

واضح كان في نفوسهم. سأحكي لك كلّ شيء بالتفاصيل عندما يحين وقته. تعبت وكدتُ أموت.

ـ خلاص. الوجع الكبير انتهى يا روحي، أمامك حياةٌ أجمل.

ـ أخاف أن تخفي لي الأقدار الصعبة فصلًا جديدًا في جناح جهنَّم.

ـ لن يكون إلَّا الخيرُ. في قلبي رمادٌ هو خليط من اللوم الذاتيّ والخيبة. عليَّ أوَّلًا أن أعترف بذنبي. فقد كنت مقصِّرًا في واجب الزمالة والحبّ، بل عن واجب الصداقة المقدَّس. صدَّقت ما صدَّقه جميع الناس. صدَّقت الإشاعات المحزنة عندما جيء بك من القاهرة إلى بيروت قبل مدَّة طويلة، فأمسكتُ عن زيارتك، وأنا أبرِّر عملي بما تطوَّر من مزاجي. فإنَّني في مواصلة العاقلين قليلُ الرغبة، فكيف بي في مواصلة غير العاقلين؟ إنَّ الروح مصدر الصداقة، وإنَّ العقل مختلط اختلاطًا قاهرًا بالروح، فمتى ذهب العقل، ذهب خير ما في الروح كذلك.

ـ فلسفة أستصعبها. الزيارة لا تكلِّف كلّ هذا.

ـ لكن يا مي لا أفهم. ضعي نفسك في مكاني. كيف قبلت الدخول إلى العصفوريَّة؟ كيف وقَّعت لهم صكًّا يشرِّع سرقتك، وأنت في كامل قواك العقليَّة؟

ـ تسألني كيف قبلت بالعصفوريَّة؟ هل هناك عاقل يقبل بهذا؟ ههنا تخيَّل امرأة فقدت أعزَّ ما بقي لها؟ فقدت أمَّها وأباها وسيِّد روحها جبران؟ تخيَّل أيضًا، إذا استطعت، امرأةً تقاوم من أجل الحصول على طاولة بائسة فقط لتكتب حتى لا تموت قهرًا بالحروف

التي تظلّ عالقة في حلقها؟ لقد جرّدوني من كلّ شيء بما في ذلك عقلي. ضحكوا من المستشفى وقالوا: ماذا تفعل امرأة مثلك غير متوازنة، بطاولة؟ كان عليَّ أن أعتبرهم كلّهم مجانين وأنا العاقلة الوحيدة، وأجيبهم وفق ما افترضوه فيّ. فقلت لهم ساخرة، كما أشتهي أن أفعل أحيانًا عندما تتجاوز الغباوة حدَّها الأقصى.

ـ الطاولة، طبعًا لأرقص عليها مثل عادة المصريَّات العاشقات، والمجنونات.

الطبيب فهمني جيّدًا. أدرك مغزى ما كنت أقوله. أوقف المحاورة وأمرهم بتوفير طاولة.

ـ وفّروا لها طاولة.

لم يستطع أمين الريحاني كتم ضحكته:

ـ والله هذا جزء صغير من الحقيقة. أتوني في النهاية بطاولة. منذ ذلك اليوم وأنا أكتب ذاكرتي وألمي.

ـ لكن، كيف انطلت عليك الحيلة؟

ـ ربَّما لأنّي كنت في الأصل، على حافَّة الانهيار. كان جوزيف يعرف جيّدًا ضعفي نحوه وثقتي فيه. منذ الأسبوع الأوَّل، أحضروا مدير العصفوريَّة الدكتور ميلّر، وطبيبها الأساسي، زاعمين أنَّه جورج، مستشرق إنجليزيّ. وظلّ جورج المزعوم يعود المرَّة بعد الأخرى، نتكلَّم في الشعر والأدب الإنجليزي غالبًا طيلة الفترة التي استبْقوني فيها عندهم، لا لتحيطني العائلة بمحبَّتها كما يقولون، بل لغايات كانوا يعرفونها هم وحدهم.

وحكيت له عن الجريمة بالتفصيل المملّ. لم يقل ولا كلمة. كان فقط يهزّ رأسه وينظر عميقًا في وجهي، ثم يثبّت عينيه على الأرض كأنَّه يرفض أن يرى وجهي.

ـ كنت أحسّ بوجع غير مسبوق وهم يستبيحون جسدي. لم يكن معي أحدٌ. بل لم يدافع عنّي أحد؟ كان الجبن سيِّدَ كلّ شيء. لماذا؟ هل فعلت شيئًا مشينًا ليقتلني هذا الشرقُ الأليم الذي دافعت عنه بكلِّ حواسِّي؟ لا أحد قال كلمة واحدة.

ـ عذرًا يا مي. يفترض أن لا أُثقل عليك بأسئلتي. في النهاية بعد كلِّ عذابات الإضراب عن الأكل، هل جنيت من ورائه شيئًا؟ كان يمكن أن تموتي وتقدِّمي لأعدائك خدمة جليلة.

ـ تعرف لماذا؟ المسألة بسيطة حبيبي. أغلب الناس الذين زاروني عند وصولي إلى بيروت، كانوا يحدِّثونني بأحاديث تدلّ على اعتقادهم التامّ بجنوني، فكنت أشفق أن تصل السذاجة بابن الإنسان إلى هذا الحدّ، وأن يسيطر اللؤم على النفس البشريَّة، ويسيطر عليها بمذلَّة. فأمقت أن يقع نظري على قوم أشبهَ بقطيع، يفكِّرون بعقول الآخرين. طبعًا هؤلاء الناس معذورون إلى حدٍّ ما. فقد زعموا أنِّي أحرقت مكتبتي، وهي أعزّ ما أملك في الحياة، بما فيها من مؤلَّفات تحمل تواقيع أصحابها وعبارات إهدائها. ذهبوا إلى أبعد من هذا. زعموا أنَّني حاولت إحراق الأطفال، فكان من السهل عليهم بعد هذه المزاعم الباطلة أن يصدِّقوا ما يقولونه عنِّي.

ـ أحزن لأنِّي لم أتفطَّن من البداية باللعبة المدبَّرة. أحيّي الناس الطيِّبين الذين أحسُّوا منذ البداية باللعبة المدبَّرة. كان الشيخ فؤاد

حبيش أكثرَنا تبصُّرًا. لهذا كانت جريدته المكشوف، هي الوحيدة التي وقفت في صفّك. على الرَّغم من التهديدات، لم يتوقَّف أبدًا عن العمل لصالحك. جَنَّد الكثير من الصحفيِّين لصالح قضيَّتك. في طليعتهم سعيد فريحة الذي اقتنع بأنَّ وراء جنون مي، المزعوم، مؤامرةً قذرة غايتها الاستئثار بأموالها.

ـ بينما الذين أحبّهم، تحوَّلوا فجأة إلى بخار، سرعان ما ابتلعته الفضاءات... يااااه كم الناسُ قساةٌ بلا سبب.

تلعثمت. هربت الكلمات منِّي. انتابتني رغبة في البكاء قاومتها بصعوبة.

أشعر بالأرض تميد تحت قدميّ، وأنا ورقة في مهبِّ الريح، لا أستطيع أن أستقرّ في مكان.

لا أحد يسمعني إلَّا قلبي المتعب.

حتى بيروت التي أحببتها، خدعتني، أغلقت حواسَّها وصمَّت آذانها لكي لا تسمعني وأنا أصرخ عاليًا، بينما ظلَّتْ واقفة عند الأبواب الموصَدة تنظر إليَّ بعينين فارغتين مثل عينَيْ ميِّت، وأستجديها وأقصّ عليها قصَّتي. اسمعيني يا بيروت. لا أحد غيرك يسمعني. هذه هي الحقيقة. أنا لا أتخيَّل يا بيروت. أنت لستِ البشرَ. أنتِ كلّ شيء. اسمعيني، لن تخسري شيئًا: **فقد أبقاني عنده شهرين ونصف شهر، على مضض منِّي وأنا أطالبه بالعودة. حتى استكمل برنامجه في أمري، فأرسلني إلى *العصفوريَّة*؟** أنا لم أُرسل نفسي إلى الموت، هو من فعل ذلك. هل يُعقل أن يصبح الإنسان رخيصًا إلى هذا الحدِّ. أعرف أنَّهم كانوا يريدون موتي. أخي الأوحد مات في وقت مبكر.

الوحيدة التي تحرِّك أطماعهم هي أنا، وأنا العائق أيضًا. عائلتي انتهت. أنا امرأة وحيدة، وغريبة، ومنبوذة. لا ناس لي ولا وطن. أصبحت بين يوم وليلة أتَّكئ على الفراغ. لهذا استباحوا جسدي كما شاءوا. بحجَّة التغذية وباسم الحياة ألقاني أولئك الأقارب في دار المجانين أحتضر على مهل وأموت شيئًا فشيئًا. لست أدري إذا ما كان الموت السريع هيِّنًا. أمَّا الموت البطيء طيلة عشرة شهور وأسبوع من التغذية القهريَّة، كان قاتلًا.

ـ يا أستاذ الريحاني، تمنَّيت أن تكون أنت، أوَّل من يسمع وجعي، لكنَّك لم تفعل. لست في موقع محاسبة من ظلمني، ولا من صمَّ أذنيه واتَّخذ صفَّ القتلة. لم أعد أريد شيئًا سوى الراحة قليلًا، والاستماع إلى داخلي المنهَك لترقيع كلّ التهتُّكات التي خلَّفتها سكاكينهم، والعودة إلى القاهرة. ساعدني يا سيِّدي على العودة إلى مصر، إذا استطعتَ. تلك أرضي أيضًا. أريد أن أموت هناك. لم يعد لي ظلّ هنا، ولا شمس، ولا قبر.

ـ ماذا أقول يا مي. أشعر بحزنك، متأخِّرًا، نعم. لكنِّي أشعر به بصدق وليس مجاراةً.

عندما أصفو قليلًا، وأعود لنفسي الجريحة، أنسى مستشفى رابيز، فيبدو لي حائطُ العصفوريَّة الذي لم أنسَه أبدًا، مثلَ حائط قلعة قديمة، طويلًا ومتآكلًا في بعض زواياه، ارتسمت عليه خرائطُ لا تؤدِّي لأيِّ مكان، لكنَّها خرائط الإهمال والرياح والأمطار. أتتبَّعه وهو يزحف كثعبان خرافيّ. معهم حقّ أن يرفعوه. في اللحظة التي أدخلوني فيها إلى هذا المكان، أوَّل شيء فكَّرت فيه البحث عن منفذ للهرب. الآن

أصبحت على يقين أنَّ في الدنيا متَّسعًا لشمس لا نراها ولكنَّها موجودة.

كنت أغمض عينَيَّ لتفادي الموت السريع ممَّا ضبَّبَ ما كنت أراه. أغمض عينَيَّ قليلًا وأنسى كلّ شيء وأُقنع نفسي بأنَّه مجرَّد كابوس، سأستيقظ بعد قليل، وينتهي كلّ شيء، وينقشع هذا الخوف مع أوَّل شعاع شمس يخرج من وراء البحر والظلال الكثيفة للأشجار التي تغرق العصفوريَّة بسرعة في ظلمتها.

- كم أريد لهذا الخوف أن يتركني. وأتخلَّصَ منه دفعة واحدة.

- سينتهي كلّ شيء وتعودين إلى حياتك الطبيعيَّة.

منْ أنا.

ما زلت هنا كما لم تتخيَّلْني أبدًا. أفتِّش عن بقاياي التالفة. في كلِّي وأجزائي وجزيئاتي، لا بدَّ من أن يكون هناك شيءٌ يتخفَّى تحت أجنحة الغياب. لا بدَّ لهذا الظلم من أن يتوقَّف ويمنحني فرصة أن أختار حياتي وموتي، ولا يفرض عليّ ناموسه.

أسحب نَفَسًا طويلًا من سيجارتي اليتيمة التي هربت مثيلتها، عندما أخذوا منِّي كلّ شيء، حتى لباسي الذي اخترته بدقَّة في القاهرة، وأنا قادمة إلى بيروت، وبيروت مدينة أنيقة.

تخيَّل يا فيلسوفي الجميل، لقد سحبوا منِّي كلّ شيء. عندما قلت للطبيب أريد سيجارة واحدة، حكَّ على رأسي.

- *حبيبتي ماري ما يصحّ؟ نحن في مستشفى يا روح قلبي.*

- *لن أحرق المستشفى فقط أريد لمخِّي الذي يغلي بقوَّة أن يستريح قليلًا.*

ـ السيجارة ليست حلًّا.

ـ لكنَّها تريحني.

ـ راحتك الوحيدة الآن هي أن ترتاحي قليلًا.. أَغمضي عينيك وتناولي أدويتك. تعوَّدي على المكان. أعرف أنَّ المسالة صعبة لكن يمكنك فعل ذلك بشيء من الصبر.

ـ لا أحبّ المستشفى. وفوق هذا العصفوريَّة؟

ـ ومن يحبُّه يا روحي. لا أريدك أن تنتقلي إلى الجهة الأخرى.

ـ ما معنى الجهة الأخرى. الجنون؟ أنا فيها. لست في قصر السلطانة.

ـ المهمّ أن ترتاحي. ستجدين قوَّتك وطاقتك. وأنا مسؤول أمام أهلك.

ـ أهلي؟ كلّهم ماتوا. أبي. أمّي. جبران. ومن بقي منهم أصبح لصًّا، أو قاتلًا. ماذا كان جوزيف وأنسبائي في النهاية؟

حكّ الطبيب على رأسي مبتسمًا. في ابتسامته إشراقٌ ساحر. أُحبّ الرجال الذين يبتسمون. حركة الابتسامة فاضحة. نرى فيها العاشقَ والحاقدَ. السعيدَ والنكديَّ. المجنونَ والعاقلَ. كلّ من ابتسمتُ لهم حوَّلوا الابتسامة إلى إعلان حبّ. تصحُّر في عمق الإنسان العربي. وحشته الأساسيَّة امرأةٌ لم يحسم معها حساباته الحياتيَّة. كتمت الابتسامة وحوَّلتها إلى صرامة لم تكن لي ولا هي تشبهني. هناك عطش ذكوريٌّ تحمَّلته بكلّ ثقله. أشتهي أن أنتمي لرجل واحد أمنحه كلّي ولا أترك لنفسي شيئًا، ولكن لا أحد منهم كان يحبّني كما

اشتهيت. سأموت وسيفتح كلٌّ منهم علبتَه السرِّيَّة، ليجعل من الحبَّة قُبَّة، ومن صباح الخير إعلانًا عن حبّ، ومن اللمسة حبًّا مجنونًا على سرير اللذَّة.

الطبيب خرج ولم يلتفت نحوي. لا أدري لماذا غمز الممرِّضة، مُفْرِجًا عن ابتسامته المشرقة وأسنانه البيضاء.

أنسحب نحو داخلي. أرميني في ضجيج مدن الخوف والفرح. تخترق أنفي عطورُها وحنينها.

أسحب طويلًا وأخاف أن تنتهي بسرعة. أتعطَّر بدخانها ورائحتها التي تشبه عطر الخزامى التي طلبت من بلوهارت أن تأتيني بها من حين لآخر. أحبّ الخزامى. لهذا سُعدت عندما وجدت الخزامى في صالون غرفتي في رابيز، في الحمَّام..

كأنَّك نبتة خزامى، أسمع الجملة تأتي من أبي، من عمق المطبخ، كلَّما حمَّمَتْنِي أمِّي وعطَّرَتْنِي.

سرقك الموت منِّي يا با، ومنحني بعضَ سنوات عمرك لأستمرّ. وأستمرّ كما قلتَ لي وأنت تودِّع هذه الدنيا.

ـ أيَّتها الشعلة الزرقاء. استمرِّي بكلِّ ما تملكين من شعلات حيَّة ومتَّقدة دومًا. على الرَّغم من أنَّ الحياة ذئب متوحِّش، فهي شمس، وصباحات مشرقة، ومطر ساحر، وثقافة، وخير، ومحبَّة. هشاشتك مصدرُها الحبُّ وليس الكراهية. ضمِّيها قدر ما تستطيعين، ولا تتركي الحياة تفلت من يديك. داوي جرحَك بجرحك. وخوفَك بخوفك. وألَمك بألمك. الباقي يأتي من تلقاء نفسه. ما يفلت يسيح في الوديان، ويتبخَّر في الفضاء، ويموت في النفوس، ولن يعود أبدًا.

استمرَّ اللقاء مع الأستاذ أمين الريحاني أكثر من ثلاث ساعات مسكونة برماد الخيبة والظلم. كان عليه أن يعرف المَظلمة التي كنت فيها. لم تكن المسألة دلعًا فارغًا، فقد تخطَّيت ذلك العمر.

ـ لماذا لا ترتدين ثيابك وتغادرين هذا المستشفى؟

ـ إلى أين وأنا لا مال لي؟ كيف أخرج من المستشفى والحجر عليّ؟ أنا مقيَّدة يا أستاذ. قيَّدوني وحجزوا مالي، نهبوا بيتي، ورشَّحوا أنفسهم بأنفسهم لإرثي.

أحنى أمين الريحاني رأسه. وضعه بين يديه. عندما دخلت إستر يواكيم، طلب منها حبَّة لوجع الرأس.

جاءته بحبَّتين وكأس ماء.

ـ اشرب الاثنتين مع بعض، سترتاح بسرعة.

قام من مكانه. عانقني كما عادتُه الطيِّبة.

ـ شكرًا أنَّك منحتني ثلاث ساعات من تعبك. وسعيد أنَّ المكشوف حرَّكت النيابة العامَّة بناء على طلب وكيليك حبيب أبو شهلا وبهيج تقيّ الدين. أرافق الأستاذ فؤاد حبيش في مهمَّته النبيلة.

ـ ٤ ـ

أعرف أنَّ لله يدًا في كلِّ ما وقع لي، لهذا بقدر الضرّ الذي مسَّني، هناك فرحٌ ظلَّ متخفِّيًا، لي.

استغربت أن يزورني أمين الريحاني في أقلِّ من أسبوع مرَّتين، مع أنّي سامحته من كلِّ جوارحي لأنَّه حسَّسني بصدقه. لم يُخْفِ عنّي

شيئًا، حتى انزلاقه مع الآخرين. حزنت ولكنّي سعدت لصدقه. وفعل أكثر ممَّا في وسعه لأكون هنا في رابيز، في وضع صحِّيٍّ أفضل وأجمل.

عندما دقَّ عليَّ الباب، كنت شبه نائمة وحتى دائخة بسيجارتي الأخيرة التي دوَّختني من كثرة تلذُّذي بها. لولا السيجارةُ والكتابة كنت ربَّما جُنِنتُ. يكفي أن أتذكَّر ما حدث لي لأُصاب بالهَبَل الحقيقيّ. ووجهي تحت الغطاء ولا تظهر إلَّا عيناي. أتذكُّر فصول العصفوريَّة لحظة بلحظة. لكنِّي استعدت بسرعة وزني في رابيز، بل أصبحت خائفة من البدانة. كنت أعرف أنَّه حبيبي، أمين الريحاني، الذي عاد من أميركا فقط ليرعاني بقلبه وكلّ حواسِّه. هذا الرجل في هذا العالم الضحل نادرٌ، لكنَّه موجود. كأنِّي فجأة سامحته دفعة واحدة.

ـ مي. أمين الريحاني.

ـ ادخل ما فيه حدا غيري.

سمعت صوته الشجي الذي ما يزال به شيءٌ من طفولة، لم تعش بالشكل الكافي.

ـ معي ضيف، يريد أن يراك. توسَّطت له عندك.

ـ إذا كان يشبه الآخرين، لِيَعُدْ على أعقابه. لكنِّي أعرف أنَّ قلبك طيِّب، ولن تأتيني إلَّا بالطيِّبين.

كنت صادقة فيما كنت أقوله.

ـ رجل من معدن فريد. هو إلِّلي حكى لي عن كلّ مصائبك.

أردت أن أقول، سأكون في مستوى استقبال الضيف، لكنِّي لم أفعل.

دخل وهو ينظر إلى عينَيَّ المتعبتين. أزال حيرتي بسرعة. أعرف من وجهه، لكنَّ الأدوية كثيرًا ما كانت تسرق منِّي بعض راحتي، ونباهتي فتثقل جسدي كلّه.

ـ هل عرفتِ هذا الرجل يا مي؟

قمت فجأة من فراشي.

ـ مستحيل أن أخطئ في هذا الفنَّان العظيم. أستاذنا الكبير يوسف الحويِّك.

ـ كلّ هذه الذاكرة الحيَّة بعد القسوة التي عشتها؟

ـ نعم. على الرَّغم من نظري الذي أصبح مرتبكًا، وأخاف أن يعود لي مرضُ العيون الذي علَّق عليه جبران كثيرًا.

ـ الله يرحمه. هذه العيون الذكيَّة لا تخفى على أحد. أرى الذكاء الوقَّاد والألَمَ المكبوت والكبرياءَ الجريحة.

ـ نترحَّم على مَنْ يموت، جبران حيّ.

تدخَّل أمين الريحاني، مغيِّرًا الحديث عن جبران. كان يعرف هشاشتي من جبران. هو من أبعدني عنه، أو هكذا يظنّ على الأقلّ. لا أحد يمكنه أن يُبعد آخرَ، عن أحدٍ. كان من الصعب عليّ، بتربيتي الشرقيَّة أن أكون واحدة من كلٍّ. اشتهيت أن أكون الكلَّ في واحدة. مستحيل.

ـ شفت ما قلت لك هي بتعرفك منيح؟

ـ مستغرب كيف ما تذكَّرت أين التقينا أوَّل مرَّة.

ـ بالنسبة لي لا يمكن أن أنسى. مش حضرتك يا اللي كنت

تتخفَّى وراء رسائل خطيبي، ابن عمِّي، نعُّوم الموجَّهة لكنار شهاب إلِّلي هي أنا؟

ـ بالضبط. يا فضيحتك يا يوسف يا يوسف هههههه؟

ـ كيف ما مرَّ بذهنك أنَّ إلِّلي كنت عم بتكاتبها هي مي؟ الرجال بَهاليلُ حقيقةً.

ـ معك حقّ يا مي. بهاليلُ وأيُّ بهاليلَ؟

لا أدري إذا كان يوسف الحويِّك يعلم بخراب ما فعله؟ كادت لغته تقتلني، وترميني بين ذراعي نعُّوم؟ فقد اكتشفت لاحقًا، بعد أن رُسمت الخطوبة، أنَّ عالم نعُّوم كان شيئًا آخر، لا علاقة له بي مطلقًا. الخطوبة كادت أن تكون خرابًا؟ كيف أقبل بنعُّوم، وجوزيف كان حبيبي؟ أمِّي مصرَّة عليَّ، وأبي خائف على قطعة الأرض المشتركة مع أخيه، أكثر من خوفه عليّ. العائلة مجتمعة صرعتني، وشلَّت عقلي بكلامها. نساء العائلة في ضيعة شحتول باركنَ الخطوبة. منّا وفينا. دم واحد. كنّ من حين لآخر يتغامزنَ عليّ. كلَّما رأينَني تحت السنديانة يتهامسنَ:

ـ *يا عيب الشوم. صار لها شهر ونصّ ما غسلت محرمتها. هيدي مين راح يقدر يتزوّجها. محظوظة أنَّها وجدت نعُّوم. إن شاء الله ما تعصعص. منحبّ نزوِّجها لابنِ عمَّها حتى يظلُّوا الرزقات شركة وجوّات البيت، ما بياخذهن حدا غريب، وما يروحوا لبرّا. أهلك أهلك ولا تهلك. وحدة مثل هيدي لا قزّ تشيل ولا ترقيع بترقِّع، ولا بتغزل ولا بتنفض الحصيرة ولا عارفة شو السيرة. تقبل نعُّوم وتسكت.*

أضحك في أعماقي.

وقتها كان حبّ والدَيَّ يكفيني وزيادة. أكثر من هذا، كنت في أعماقي لجوزيف. رأيته في تلك السنة[1] عندما عاد من باريس، فلم أستطع تفاديه. كنت دائمًا أشعر أنَّه حبيبي، ومستعدَّة للصفح عن غلطته ضدِّي. وجدت له عذر كوننا صغارًا، ورغبته في إتمام تخصُّصه الطبِّيّ. كان يوسف (جوزيف) مثارَ اهتمام العائلة كلّها، بمن في ذلك والدي ووالدتي. رجل باريسيّ بامتياز، بهيئته الأنيقة. لم ينتبه لي يومها كثيرًا. بل أحسست أنَّه كان يتفاداني. أمَّا أنا، فقد كنت مشدودة إليه بقوَّة، حتى قبل سفره إلى باريس. كانت بيننا قصَّة حبٍّ جميل أحتاج إلى إرادة فولاذيَّة لأتخلَّص منها.

في مراهقتي، كان جوزيف يزورني في مدرسة بيروت، ويسحبني معه لأجمل أماكن السهر. تعلَّقت به، وكان ما يزال يدرس الطبّ في بيروت. كنت مُصابة به.

تمتمت. اعتقدت أنَّ صوتي فيّ ولم يخرج.

يا إلٰهي كم إنَّ مصائر البشر تشدّ على خيط رقيق، ينتهي في أغلب الأوقات إلى التمزُّق.

ـ تلك هي الحياة يا مي.

أردف أمين الريحاني قائلًا، وهو يتتبَّع كلَّ حركاتي.

ـ أنا أعتذر عن كلِّ ما صدر عنِّي. في الحقيقة كنت أكتب لنفسي وليس لك، لأنِّي وقتها كنت على حافَّة الانتحار بسبب خسراني للمرأة التي أحببت.

ـ لا مشكلة يا يوسف. الحبّ الأوَّل، موتٌ بطيء يظلُّ حيًّا

(١) سنة ١٩١٣، حينما عاد من باريس.

للأسف. لم يكن جوزيف في النهاية إلّا آلة للقتل المنظَّم.

كان أوّل حبٍّ، ولا أعتقد أنَّ رجلًا واحدًا غيره، استطاع أن يهزّني من أعماقي. ويغيّر نمط حياتي. أنساني ضوابط الأديرة التي كنت أتهيّأ لها. كان يضمّني إلى صدره، فأستسلم له. تقبيله لي أمام زميلاتي كان يُسعدني. الرجل الوحيد الذي أزال عنّي ألبستي السوداءَ الثقيلة التي ما يزال بها عطر الكنائس والأديرة، وأيقظ ارتجاف جسدي الغضّ كلَّما مرَّر عليه أصابعه. كان كلَّما مدّ أصابعه الأنيقة، شعرت باشتعال يحتلّ كلّ داخلي. كان جوزي وقتها يصنع لي سجن الحبِّ الأوَّل، الذي لم أخرج منه حتى اليوم. الحبّ الأوَّل لا يُنسى. يستمرّ فينا حتى يحرقنا ويحوِّلنا إلى رماد، لا أحد يستطيع لملمته. حبّ الحيرة الذي يحوِّلنا إلى عبيد حقيقيِّين، لا نحن قادرون على التخلُّص منه، ولا هو قادر على أن يتركنا نمضي في سبيلنا.

ـ ما راح نثقل عليك يا مي. حبِّيت أخبركِ فقط أنِّي وجدت لك سكنًا على رأس الجبل في انتظار بيت في الفريكا. قريبة منِّي ومن عائلتي. هكذا نلتقي بسهولة وإذا احتجت أيّ شيء نحن في الخدمة.

ـ لا أدري كيف أشكرك؟

ـ المهمّ تكونين مرتاحة قليلًا، وتنسين كلّ الزمن المرّ الذي عشته.

ـ ٥ ـ

البيت جميل.

كان عليّ أن أفعل ذلك على الرَّغم من قصر اليد. رافقتني الممرِّضة إستر يواكيم.

يقع في مرتفعات بيروت، نزلة أبو طالب. متواضع لكنَّه أفضل بكثير من المستشفى. أشمّ هنا على الأقلّ عطر الجبل وغاباته، وهواءه الذي يفتح الرئتين المتصلِّبتين.

هل كانت طفلة الأديرة وعاشقة سطوح مدينتها تعلم أنَّ زمنًا سيأتي سيمسح كلِّيًّا طفولتها ويضع مكانها سيِّدةً بعمر الخوف، منهَكةً، تبحث ليل نهار كيف تُخفي آلامها وجراحاتها المفتوحة دومًا؟

كلّ شيء تغيَّر. أتساءل أحيانًا وأنا أحضِّر غرفتي لاستقبال ضيفي:

ثم ماذا... لو لم يحدث هذا كلِّيًّا؟

أشعر بتيه غريب يملأني. يسكن قلبي وبصري ولا أرى آلامي إلَّا من خلاله. مع أنَّ أوضاعي تحسَّنت كثيرًا في الشهر الأخير. ربَّما لا شيء، سوى تلك الكآبة التي نركض نحوها، وتدفع بنا نحو هوَّة لا قرار لها إلَّا الفراغ.

مع ذلك، لم أصدِّق أنَّ ما حدث هو خراب كلِّيّ.

أحيانًا تنتابني عدميَّة تُثقلني كلِّيًّا، تكبِّلني. فأحاول مثل الفأر المحصور في مكان ضيِّق أن أبحث عن مخرج ولو صغير، أقلِّص جسمي إلى أقصى حدٍّ فقط لأتمكَّن من مغادرة الدائرة التي وضعوني فيها.

أَأُصدِّق أنِّي ما زلت على قيد الحياة، وأنِّي ما زلت قادرة على الفرح؟

الثلاثة أسابيع التي قضيتها في مستشفى نيقولا رابيز علَّمتني أنَّ

الإنسان قوّة خلّاقة دومًا حتى في أصعب الظروف. السؤال الوحيد، هل يملك طاقة على توليف الأشياء وفق مقتضيات الحال؟ العصفوريّة كانت جنونًا، فأصبحت عقلًا. ورابيز كان أدوية وحقنًا، فأصبح راحة.

هل نستطيع أن نفعل بالأمكنة ما نريد؟ تلك هي المعضلة الكبرى.

لم يتوقَّف الثلج منذ البارحة. أمدّ يدي، أقطف الغيوم والندف البيضاء. يأخذني الدُّوار اللذيذ في سحره. أشتهي أن أركض. أركض بلا توقُّف. فجأة يضيق نَفَسي. أركض بلا توقُّف. وحدي في الجبل كعصفورة الندى، أفتح عينَيَّ عن آخرهما لكي لا يفوتني شيء من المشهد الساحر. أهو حلم هارب أم حقيقة تملأني؟

ـ هل أنا أحلم؟

يتّكئ على حائط البيت ويتأمَّلني كعاشق، رِجلاه غارقتان في الثلج.

ـ قل يا أمين، هل أنا هنا، أم ودَّعت هذه الدنيا وأصبحت في عالم آخر. سبحان الله كم يتغيَّر الإنسان بسرعة؟

ـ أنت لا تحلمين. أنت هنا. أشعر الآن بسعادة كبيرة.

ـ وأنا كأنَّني طفلة.

ـ ما راح أكسر لك فرح. حبِّيت بس أذكِّرك بكبير أطبَّاء لبنان، الدكتور الجنرال مارتن. بيجي يشوفك اليوم، إذا ما غيَّر رأيه في آخر لحظة بسبب الثلوج الكثيفة.

ـ ما نسيته طبعًا. أنتظره. لازم يسمعني ليرفع عنِّي هذا الضيم نهائيًّا.

ـ أكيد. هو هنا لأجل هذا.

انسحب أمين، بينما واصلت جنوني الصباحيَّ في بحر من البياض الذي يحبس الأنفاس.

يا الله ماذا سرقوا منّي؟

لقد وفى أمين الريحاني بما وعد به. بيت الفريكا الذي اختاره لي كان جميلًا. أتنفَّس هواء الجبل ملءَ رئتَيَّ، أخرج لأنغمس في ضبابه العالي في هذا الفصل تحديدًا. شباط قاسٍ، لكنَّه ساحر. فأشعر فجأة بأنّي ما زلت بكلِّ الخير الذي يملأني. كنت سعيدة. البيت كان صغيرًا وناعمًا.

أصبحت أتنفَّس الأرض والسماء، بلا حواجز.

لم تكن لديَّ أيَّةُ قدرة لا على شكر كلّ الناس الذين تضامنوا معي ومنحوني لحظة استراحة جميلة، ولا على البيت الذي أجَّروه لي، فامتلأ بهم، ولا على توقيف الدموع التي انفجرت كسيل بركانيّ. كانت تحرقني لا على وجهي فقط، لكن أيضًا في قلبي. مع ذلك، كنت أسعد مخلوقة في الدنيا.

ها قد عاد الذين أحبُّوني، وبعضُ الذين أحببتهم.

المنغِّصاتُ لا تنتهي طبعًا، وكأنَّها أصبحت جزءًا من حياتي. عندما نقلني أمين الريحاني، والعائلاتُ التي تبنَّت قضيَّتي، والتاجرُ الطيِّبُ السيِّدُ مارون غانم، والمحامي الرفيعُ القَدْرِ ميتر فؤاد حبيش صاحب جريدة *الكشَّاف* التي آزرتني روحيًّا وماديًّا، إلى أعالي بيروت، في نزلة بو طالب، كان كلّ شيء قد انتهى، أو هكذا بدا لي الأمر في

البداية، إذ شعرتُني أكثر نساء الدنيا حظًّا. لكنَّ فصلًا آخر كان ينخرني من الداخل في خفايا الجسد المنهك.

الفقر الذي كان يتهدَّدني، ولم أكن قادرة على تصديق ذلك. لقد حجروا على كلِّ ممتلكاتي ومالي.

بسرعة أدركت الحقيقة المُرَّة، وكان عليَّ التعاملُ معها بقليل من الصبر والكثير من الذكاء والثقة في المحامين الذين تبنُّوا قضيَّتي. لو لم أجِدِ الخيرَ في أمين وعائلته وبعضِ العوائل البيروتيَّة الطيِّبة، كنت مُتُّ جوعًا وبردًا. لم أكن أعرف جيِّدًا ما كان يحدث من حولي، وفي محيطي. متخفِّية دومًا بجسدي الهزيل وأنفاسي التي رفضت أن تتوقَّف. لكن عليَّ أن أرفع هذا الحجر الذي سُلِّط عليَّ ليحوِّلني إلى امرأة متسوِّلة.

معركة أخرى كان عليَّ خوضُها ولا أعرف إذا كنت قادرة عليها؟

خرجت بلوهارت برفقة إستر يواكيم من المطبخ بابتسامتيهما المشرقتين.

- كلّ شيء جاهز آنسة مي، الدواء وفطور الصباح.

بلوهارت، هذا الملاك الأزرق الذي جاء لا أدري من أين؟ بجناحين من نور. تلقَّت إنذارها الثالث من إدارة العصفوريَّة للإخلال بالعمل، إذ كانت وسيطي مع الخارج، فُصلت لمدَّة شهر من عملها كعقوبة على التهاون.

- وفَّروا عليّ. هيك أبقى برفقتك الشهر كلّه، ولو أنِّي أعرف أنَّ إستر مش مقصَّرة.

ضحكت. إذا كانت بلوهارت متهاونة في عملها، فمن هي الجادَّة والمداومة؟ هذه المرأة منحتني الحياة، لهذا، فأنا أَدين لها بكلِّ شيء. يوم نبَّهتها بضرورة الانتباه إلى عملها، ضحكت ووشوشت في أذني، بعد أن مسحت على وجهي طويلًا. وضمَّتني إلى صدرها، وشعرت بكلِّ الدفء الذي فيها.

ـ لا عليك حبيبة قلبي مي. بعد سبعة أشهر، بحضرتك، في عمق الموت المبرمج، في العصفوريَّة، وأكثر من عشرين سنة مع أدبك، لا يمكنني إلَّا أن أحبّك. كبرت في حضن كتبك وأفكارك. أنا أشكرك أنَّك منحتني فرصة أن أكون معك طوال هذه المدَّة القاسية. وأن أحمل آلامك. أن أكون المجدليَّة عند قدميك. لن أتخلَّى عنك. لن أشبه أحدًا. أنا لم أخلَّ أبدًا بعملي. أعمل بحبٍّ كما يأمرني القانون، وقلبي، والربّ الذي يراني من بعيد. لم أغادر المستشفى إلَّا في لحظات استراحتي. ماذا لو سألوا الربَّ عن صدقي فيما أعمل؟ سيرفعني نحو مقامه.

ـ لكنَّنا نحن في الأرض يا بلوهارت، والأطبَّاء في العصفوريَّة، بعضهم قَتَلة ولصوص، مثل الصحفيِّين أيضًا. في أغلب الأوقات يقفون مع الأقوى. لن أقتنع أنَّ الذي قادني إلى العصفوريَّة ليس لصًّا، وفي أحسن الأحوال (كان) متواطئًا. لماذا عاملني كمجنونة، مع أنَّه كان بإمكانه أن يعاملني كإنسانة مُصابة بانهيار عصبيّ، أو هي في طريقها إليه، لا أكثر. لا أطلب منه أن يعاملني كحبيبة أمضت معه أجزاء كثيرة من عمرها في انتظاره. سرق طفولتها ومراهقتها. الحبّ حرِّيَّة يا بلوهارت، وليس ضغطًا يُمارَس على العاشق أو المعشوق.

ـ أنا أكثر الناس إدراكًا أنَّك العاقلة، وأنَّهم المجانين. باعوا ضمائرهم ووضعوك على حافَّة الموت. عندما كنت تصرخين صرخةَ سيِّدنا المسيح، شعرت بقلبي يحترق بقوَّة. ذهبت حتى لكنيسة العذراء وصلَّيت لك طويلًا، وحمَّلتها جزءًا ممَّا حدث لك، وصرخت في وجهها: وينك يا عذراء؟ ليش نسيتها يا أمَّنا الحنون؟ ما سمعت صوتها يا سيِّدة البرايا؟ ويوم خرجت من العصفوريَّة، عدت لها واعتذرت منها. فقد سمعتني، حبَّيتها أكثر وأكثر.

ـ لكنَّني لا أريدك أن تكوني ضحيَّة وضعي.

ـ أوَّل ما رأيتك وعرفت أنَّك مي زيادة انتميت لك نهائيًّا. لا أفعل شيئًا يخلّ بواجباتي أبدًا. أقوم بها على أحسن وجه ثم أغادر. أغادر لوقت محدود. حتى لباسي لا أنزعه أحيانًا. أضع معطفي عليه وأخرج. الإنذار الثالث أتى، وأنا لست نادمة. قالوا لي إنِّي أشتغل ساعي بريد المجنونة المصريَّة. صرخت ليست مجنونة أنتم من يريد أن يجنِّنَها. لكن عرفت أنَّ جوزيف هو من يحرِّك كلّ شيء، حتى من خارج المستشفى.

ـ تمنَّيت أن أسألك عنه كيف؟ من أين له سُلطةُ الأذى هذه كلُّها، لكنِّي لا أريد.

ـ المهمّ. جئت أنا وإستر، فقط لنذكِّرك بموعد الدكتور الجنرال مارتن. إستر أيضًا تحبُّك جدًّا وربَّما أكثر منِّي.

لأوَّل مرَّة تنتبه إستر وتخرج من غفوتها التي فرضناها عليها أنا وبلوهارت بكلامنا الثنائي.

ـ لقد كانت حارستي الطيِّبة في مستشفى رابيز. لم أشعر بأيَّة

غربة. الخير فيكم أكثر من المثقَّفين الذين دخلوا بيتي، وأكلوا ملحي، ولم يجدوا أفضل من شتمي والتأكيد على جنوني. القسوة كانت كبيرة وحارقة.

ـ أحسن ترتاحي لك شوي قبل وصوله حتى تسترجعي كلّ طاقتك وقوَّتك في الحديث والإقناع.

قالت بلوهارت وهي تضع قطعتين من الخشب في عمق المدفأة التي زادت شعلتها اتِّقادًا، ولا يُسمَع إلَّا صوتُ النار في المدفأة الذي كان يمنح إحساسًا غريبًا من الدفء والراحة الداخليَّة.

مددت رأسي على الوسادة. شيئًا فشيئًا بدأت أتَّخذ وضعًا جنينيًّا تعوَّدت عليه من جديد، منذ خيبة جوزيف.

لا أدري كم نمت، لكنَّني نمت طويلًا. عندما فتحت عيني وكان الثلج قد خفَّ قليلًا، رأيت الدكتور مارتن، بحقيبته الصغيرة وهو ينفض الثلج من على ظهره.

ـ ٦ ـ

أن تموت وأنت تعرف لماذا، لا مشكلة ولا ندم، لكن أن يصنع لك الآخرون النهاية التي يشتهون، وقدرًا مليئًا بالضغائن، فتلك قسوة ما بعدها قسوة. أسوأ موت يمكن أن يُصيب حياة الإنسان.

لم أغادر فراشي. في الوضعيَّة الجنينيَّة نفسها.

قمت بسرعة. غسلت وجهي. تعطَّرت. لا أدري ما الذي جعلني ألبس أغراضي بسرعة، وأجلس على طرف السرير، في انتظاره. مرَّرتُ على وجهي بعض الميكآب حتى لا أبدو مثل الميِّت.

فتحت إستر الباب.

ـ الدكتور وصل.

ـ حالًا إستر.

كان جالسًا في الصالون. علامة خير مضيئة.

عندما رآني، قام بلطف. قبَّل يدي وجلس:

ـ الدكتور مارتن.

ـ أسعد بك جنرال. سمعت عنكم كثيرًا وعن نبلكم.

كان لطيفًا ومهذَّبًا.

الدكتور الجنرال مارتن. كبير أطبَّاء لبنان. رجل سامق كسنديانة. قامة فارعة، أو هكذا بدا لي. وجهٌ صافٍ لم تعمل فيه السنوات إلَّا قليلًا. كنتُ قد كتبت له رسالة طويلة منذ أن كنتُ في العصفوريَّة، شرحت له فيها وضعي بالتفصيل. نسخة سلَّمتها للمحامي حتى يتمكَّن من الاتِّصال به إن أمكن، والثانية، أرسلتها مع بلوهارت بالبريد المسجَّل المضمون.

قال وهو يُجلسني بهدوء في مكاني، عندما قمت لتحيَّته:

ـ خلِّيك جالسة آنسة ماري، في مكانك، أنت جدّ متعبة. أعرف قليلًا ممَّا حدث لك، لكن رسالتك أثَّرت فيَّ تأثيرًا بليغًا، وقد أكَّد لي الكثيرون من الذين سألتهم، عن حالتك الصحِّيَّة الهشَّة، والظلمِ الذي تعرَّضتِ له.

ـ الآن أنا في مرحلة ثانية يا دكتور. لقد انتهى الفصل الأوَّل من مسرحيَّة الموت، وأنتظر الآن أن يُرفَع عنِّي الضيم والحَجْر. لقد حكم

الأطبَّاء والمحقِّقون والبرلمان أنِّي ضحيَّة وضع مصنَّع، وهذا وحده كافٍ لأن يُعيد لي بعض حقِّي. لولا بقيَّة متبقِّية من الأصدقاء كنت انتهيت في العصفوريَّة، ولو خرجت أموت من الجوع.

ـ أعرف. من اليوم لن نسمح لأحد أن يؤذيك. كلّ الذين زاروك يؤكِّدون على أنَّك مظلومة. هل الطمع وحده هو ما دفع ابن عمِّك جوزيف إلى هذا الموقف المشين؟

ـ جمعتنا أيَّام جميلة. لم يمرّ أبدًا بخُلْدي أن يكون بهذا الشكل وهذه الصفة. منحته كلّ شيء حتى سلطة الإشراف على تسيير شؤوني المادِّيَّة. لا أستبعد أن يكون مجرَّد منفِّذ لجريمة عائليَّة. كانوا يعرفون ضعفي نحوه. وكنت قد طلبت منه أن يأتيني إلى القاهرة لمرافقتي إلى بيروت، كنت مريضة وضعيفة وأريد أن أغادر مصر لقليل من الراحة في بيروت التي تحوَّلت بسرعة إلى سجني الأكبر. وجدت نفسي وحيدةً بعد أن مات الذين كنت أحبُّهم، أبي، حائطي الكبيرُ، أمِّي قلبي الذي أعيش به، وأخي وحبيبي جبران، لغتي السرِّيَّةُ. وجدتُني بلا أحد، فأُصبت بصدمة كبيرة جعلتني أخاف من كلّ شيء. طلبت من جوزيف أن يُنقذني، لا أن يقتلني. قتلني حقيقة وباعني بالرخيص يا دكتور.

ـ وهل ندم على ما فعله ضدَّك؟

ـ لا أعرف. رفضت أن أراه سرِّيًّا من دون علم الأهل. رأيت في ذلك جُبنًا كبيرًا. قيل لي إنَّه اعترف بأنَّه كان ضحيَّة، ولم يكن إلَّا منفِّذًا لجريمة صُنِعت عائليًّا مع بقيَّة أنسبائي. طلبت منه، عن طريق أهله، أنَّه إذا أراد أن يراني، أن يخبر العائلة وأن يعلن الحقيقة في الصحافة، لكنَّه كان أجبن من أن يفعل ذلك؟ أحاول أن أنساه.

- فهمت. ما موقف الأهل؟ ألم يظهر منهم مَن يدافع عنك؟

- كلّ الذين دافعوا عنّي هم من مُحبّي أدبي، وبعض العائلات الشاميَّة واللبنانيَّة. حتى أصدقائي من المثقَّفين، أغلبهم انتمى إلى الجريمة ولم يحاول حتى أن يفهم الحقيقة. ما الذي يجمعني بك يا دكتور غير البحث عن الحقّ والدفاع عنه ومحاولة الحفاظ على مهنة شريفة كالطبّ.

- كلام صائب تمامًا. لكنَّ البشر تقودهم أحيانًا هزائمهم السرِّيَّة وأهواؤهم السرِّيَّة. المهمّ الآن، كما قلت، كلّ شيء أصبح وراءك، وهذا هو المهمّ.

لم يغادره لا غليونه الذي عطَّر البيت، ولا كأسُ القهوة الساخنة الثالثة.

كان يستمع بانتباه طفل محبٍّ للدرس، وأنا أحكي له القصَّةَ كاملة، على نَفَسٍ واحد، لدرجة أن خفت في لحظة من اللحظات، أن أكون قد بالغتُ في التوصيف. كنت أتأمَّل وجهه وأنا أحكي. كان متأثِّرًا للغاية. كان الدكتور مارتن قشَّتي الأخيرةَ.

في الأخير سلَّمَتْه بلوهارت كلَّ الوثائق الخاصَّة بي، التي كان قد طلب تحضيرها له. تأمَّلها طويلًا. غرق في أرقامها التي أدوِّنها يوميًّا، وهذه طبيعتي، تعلَّمتها من أبي ومعلِّمي إلياس زخُّور.

- Rien à dire. Tout est parfait.[1]

قال وهو يلملم معطفه الخشن، وقبَّعته، ويحيط عنقه بكوفيَّة خشنة:

---

(١) لا كلام. كلّ شيء تمام.

ـ هذا ظلم، وعلى الحقيقة أن تظهر. وسأقول هذا رسميًا. لقد تبيَّن لي أنَّ الآنسة مي زيادة تعيش في منزلها حياة طبيعيَّة عاديَّة. تهتمّ بقضايا البيت مثل أيّ إنسان عادي، كشراء الأغراض التي تدوِّن حسابها بدقَّة. وأنَّ مصاريفها تتناسب مع دخلها الضعيف في الوقت الحالي. وتسجِّل أسماء كلّ من يُقرضونها والقيمةَ الماليَّة المستحقَّة التي عليها دفعَها.

ـ شكرًا جنرال. سعيدة بدعمك الكبير.

ـ دكتور أفضل من جنرال.

قالها وهو يركب السيَّارة برفقة سائقه.

ـ تعلَّمت من الثقافة الفرنسيَّة أنَّ الرتبة العسكريَّة لها أولويَّة قبل الرتبة الوظيفيَّة العامَّة.

ـ ههه براڤو يا مي. لكن بحسب المقام. نحن من الآن أصدقاء. سعدت جدًّا بلقائك.

ـ وأنا أيضًا يا...

ـ دكتور.

تابعت سيَّارته مسلكَها وهي تجهد نفسها في الطريق الضيِّق، حتى غطَّتها التلَّة الصغيرة وأشجارُ المنحدر، وغاباتُ الصنوبر المثقلةُ بالثلوج التي تساقطت الليلَ كلَّه.

٤ ـ يَا أبَتَاه... بَيْـنَ يَديْكَ، أسْتَوْدِعُ رُوحِيَ[1]

ليلة ٨ آذار/مارس ١٩٣٨ وما تلاها

(١) لوقا ٢٣ : ٤٦.

ـ ١ ـ

بيروت تنام، وتُداري شجنها وحروبها السرِّيَّة.

سكون الليل يغري بالمزيد من الصمت. لا شيء في الأفق.

تبدو الأضواء المشتعلة هنا وهناك مثل شلَّالات من الفرح.

الأشياء الصلبة والمثبَّتة كالحجر الأصمّ، تتحرَّك الآن بسرعة غير محسوبة.

عدد *المكشوف* الذي خُصِّص لقضيَّتي كان شديد الأهمِّيَّة، وعاري اللهجة. سمّى كلّ شيء باسمه. لأوَّل مرَّة أرى صحافة صريحة بهذا الشكل في بلادي. منحني هذا العدد فرصة أن أشعر أنِّي لم أكن وحدي، في عمق غابة شديدة الخطورة على كلّ من لا يعرفها، ووجد نفسه فجأة فيها بمحض الصدفة. في اللحظة التي تشعر فيها بأنَّ عدوَّك يريد إغراقك، تنبت لك أجنحة المقاومة التي لا يمكن صدّها. صورة العدد الخاصّ كانت بريشة صديقي الفنَّان والنحَّات، يوسف الحويِّك،

الذي ساعدني من حيث لا يدري على التخلُّص من ابن عمّ باهت كالفراغ، خطيبي نعُّوم. تحت الصورة، كُتبت تحت صورة الغلاف: نابغة العرب. لا أعتقد أنِّي أستأهل كلّ تلك الصفات الثقيلة، لكنِّي قبلت بها لأنّها ضربة قاصمة للذين روَّجوا لجنوني. التأم في العدد كلّ أصدقائي، والكثير ممَّن لم أكن أعرفهم. ودافعوا عنِّي وأنا ما أزال في حفرة المذلَّة، العصفوريَّة.

رأيت في صفحات الجريدة، نسخةً من رسالة صاحب السموّ الملكيّ الأمير عبد الله بن الحسين المعظم، أمير الشرق العربيّ، إلى رئيس الجمهوريَّة إميل إدّه، يطالبه فيها بالتدخُّل لمساعدتي. نشرتها المكشوف كاملة في صفحاتها.

ما كنت لأتدخَّل بأمر أحد (إحدى) رعايا لبنان لولا الرجاواتُ العديدة من كرام العوائل ورجالات العلم والأدب من لبنان، لأكون الملتمس عنهم لدى فخامتكم لتساعدوا الآنسة الشهيرة مي لخلاصها من المأزق الذي قيل إنَّ البعض من أقاربها وضعوها فيه. وللأمل في أنكم تُحلُّون كتابنا هذا محلَّ قبول.

حُرِّر مع مزيد من الشوق والاحترام لفخامتكم.

أخبرتني عائلة الجزائريّ عن اتِّصالها بصاحب السموّ الملكي، من خلال الأمير سعيد الجزائريّ، لكنِّي لم أكن أتصوَّر أنَّ قضيَّتي أصبحت أكبرَ ممَّا كنت أتخيَّل. لم أعد وحيدة كما كنت في هذا العالم السفليّ.

في مدَّة قصيرة تغيَّر كلّ شيء. لا أدري هل كان عليَّ أن أفرح أم أحزن. لقد أصبحت تحت الأنظار، مع أنِّي لم أطلب الشيء الكثير.

الحدث كبير، ومع ذلك ظللت هادئة كدمية صينيَّة. حتى فرحي باسترداد حرِّيَّتي لم أفرح به كما يليق بحدث أعاد لي وجودي وبعض كرامتي.

لم تكن حربي كبيرة ولكنَّها كانت صادقة وصحيحة. ليس سهلًا أن تتحوَّل إلى سؤال معقَّد بين ملك ورئيس، وأنَّ قضيَّتك تُناقَش على مستوًى عال جدًّا. فقد كان ردّ رئيس الجمهوريَّة إيميل إدّه جميلًا ومريحًا إليَّ نفسيًّا، ليس لأنَّه وقف بجانبي، فهو لم يفعل هذا، ولكنَّه انتصر للقانون، وهذا كلّ ما كنتُ أريده.

حضرة صاحب السموّ الملكيّ الأمير عبد الله بن الحسين المعظم، أمير الشرق العربي. تناولت كتاب سموّكم الذي كان له أفضلُ الأثر في نفسي لما تضمَّنه من الشعور السامي، والعطف على سيّدة لبنانيَّة من كبيرات سيّدات العلم والأدب، وأحللت هذه الرعاية المحلَّ الذي تستحقّه. ولمَّا كنت أثق كلّ الثقة بنزاهة القضاء اللبناني وتدقيقه في إحقاق الحقّ، فلا شكَّ في أنَّه سيتَّخذ يوم الاثنين ٣ أيَّار القادم القرار الذي يؤيّده العدل ويحلّه محلَّه في هذه القضيَّة، راجيًا أن تتفضَّلوا بقبول أصدق عواطف الولاء والاحترام.

رئيس الجمهوريَّة اللبنانيَّة إميل إدّه.

لم أكن سعيدة كما ارتضيت. ليس سهلًا أن يصمت الناس عن ألمك وكأنَّك روح هائمة في الفراغ بلا جسد يتعذَّب ويتهاوى كلّ يوم قليلًا كشجرة ميّتة لا تشدّها إلَّا جذور التصقت بها حتى آخر ثانية من أنفاسها المتقطّعة. ولم أكن حزينة لأنَّ ما حدث لي لم يكن سهلًا.

ما الذي تغيَّر بهذه السرعة المجنونة؟

بيروت، بجنونها المعتاد وصمتها المخاتل؟

أنا؟ مي، التي لا تعرف أيّ قدر آخر ينتظرها في منتصف الطريق. هل تستمرّ عقارب الساعة في اتِّجاهها المعتاد، أم سيأتي من يغيِّر كلّ شيء؟ فكَّرت في لحظة من اللحظات وأنا أتأمَّل النجمة الهاربة ساحبةً وراءها سحابًا من الأنوار والأضواء التي تبعثرت في عرض السماء: ثم ماذا لو صعدت على الروشة ورفعت صوتي عاليًا، كمن يعيش في دغل خالٍ من كلِّ حياة، وصرخت ملء قلبي وأحاسيسي، وجنوني أيضًا: ***يا ذريَّة القبح والضغينة، ما زلتُ هنا!!!!!!!!!!، لن أموت كما تشتهوووون***. لكنَّ شيئًا يكبِّلني، ربَّما تربية الأديرة الخانقة، أو ربَّما، بسبب خوف مبطَّن لم أستطع التخلُّص منه، من أن يُعيدوني إلى أقواس العصفوريَّة لأنِّي صرخت كمجنونة.

ـ ٢ ـ

انتابتني موجةُ حزن موجعة، على الرَّغم من الخبر السعيد الذي جاءني به صباحًا أمين الريحاني بجاهزيَّة بيت الفريكا لأنتقل إلى هناك، المكان أجمل والمحيط أريح. كان الريحاني يشعر بعقدة التخلِّي عنّي. وكنت أفهمه جيِّدًا. لقد قام بالمستحيل ليُسعدني، ولا أعتقد أنَّ هناك شخصًا فعل ما فعله هو معي. كان قلبي معطوبًا تجاهه لكنَّه كلّ يوم كان يستعيده قليلًا، إلى أن حضّر بيت الفريكا، لأكون قريبة منه ومن عائلته الطيِّبة، التي كنت أعرف أنَّها لن تدَّخر أيّ جهد من أجل راحتي بفضله، تغيَّرت أشياء كثيرة. منذ زيارته الثانية لي، وكتابته عنِّي، بدأت الأوساط الأدبيَّة تنتبه لتفاصيل جريمة موصوفة. أسند بذلك النبأ الخطير الذي نشرته *المكشوف*، الذي مفاده *أنّ مي المتَّهَمة بالجنون*،

تتمتَّع بالصَّحة التامَّة، وما الجنون المنسوب إليها سوى زعم باطل ومؤامرة خبيثة.

فقد تقدَّم المحامون، وكلائي، بعريضة توضيحيَّة، إلى وزارة الداخليَّة بلبنان، يقولون فيها: إنَّ مي زيادة صحيحة العقل وإنَّ نسبة الجنون إليها، عملٌ يخفي وراءه أشياء وأشياء. وطلب المحامي تأليف لجنة طبِّيَّة لفحص الكاتبة الأديبة لتأكيد سلامة عقلها، ومنحها الحرِّيَّة التامَّة التي يتمتَّع بها الجميع. ثم هناك تاجر لبناني شهم مارون غانم، اعتبر منذ البداية كلَّ الحكاية، فعلًا مفبركًا، وظلَّ محاميه يزورني من حين لآخر لوضع حدٍّ للمهزلة كما كان يقول. أبى على نفسه ألَّا يعود إلى عمله إلَّا بعد إنقاذي.

كم كان أهلي صغارًا في هذا. كيف سلَّموني لجاكيت الجنون بشكل رخيص؟ بدل أن يستحوا على فعلهم، زادوا في مغالاتهم. نزلوا درجًا آخر نحو الحضيض. عندما رأى أنسبائي أنَّ الحَجْر على حرِّيَّتي لا يستقيم لهم، قانونيًّا، تقدَّموا ضدِّي بدعوى الحَجْر، أمام محكمة بداءة ببيروت التي كان يرأسها يومها بشارة طبَّاع. وكان شابًّا، في مقتبل العمر معروفًا بضيق صدره. واعتداده برأيه وتبحُّره في القانون. عصبيَّته في إدارة كلّ المحاكمات وتسرُّعه، وانفراده في الكثير من القرارات،(أمرٌ) أعطى انطباعًا عامًّا سيِّئًا عنه. يُحيط به قاضيان مساعدان، يشبهانه في كلِّ شيء، الأستاذ إحسان بيضون مدير الاقتصاد الوطني السابق، والشيخ أكرم العازار. لا يرفعان إصبعًا واحدة لمخالفته. هذا ما أخبرني به وكيلي حبيب أبو شهلا وبهيج تقيّ الدين.

هذا الوضع الغريب، لا يسهِّل أمري أمام النيابة العامَّة التي

فكَّرتْ، تحت ضغط الدولة، بتعيين أطبَّاء كشفوا لاحقًا على حالتي لينتهوا إلى قرار بلا طعم: لا يجزم بأيِّ شيء. لم يقطع بصحَّة عقلي، ولا بجنوني.

كان قلبي موجوعًا، لكنَّه كان عليَّ أن أقاوم حتى النهاية، وأن لا أسلِّم في أمري كيفما كانت الحال.

ـ لا أدري الآن ماذا يريدون؟ لا أريدهم أن يتعاملوا معي كأديبة، لكن على الأقلِّ كإنسان.

ـ كلّ شيء مرتبط مع بعض ولا يمكن الفصل أبدًا.

قال الأستاذ فؤاد حبيش، مدير *المكشوف*، وهو يحكّ في رأسه، كأنَّ فكرته التي جاء بها ضاعت منه. فهو من ساندني بقوَّة عندما قرَّر الأطبَّاء بأنِّي لا عاقلة ولا مجنونة. وكان ينتظر بصبر كبير، تحريري نهائيًّا من هذا الضغط النفسي.

ـ اصطدمنا بالقاضي بشارة طبَّاع العديدَ من المرَّات، بسبب عصبيَّته التي لم يُخفِها أبدًا. وبدأت أفكِّر مع زميلي بهيج تقيّ الدين، بتغيير الإستراتيجيَّة للتقليل من سيطرة المحكمة.

أضاف حبيب أبو شهلا:

ـ شعرنا بسرعة بأنَّ جوّ الدعوة كان ملبَّدًا بالغيوم التي تحجب الحقيقة عن بصر القضاء إذ كانت أقرب إلى تقارير القضاء الغامضة في شكوكها، والقريبة من تصريحات الأنسباء الذين فعلوا المستحيل لتدمير مي. حتى اللحظة لم يتوقَّفوا عن زرع الشكوك عند اللبنانيِّين والفرنسيِّين. لهذا، ارتأينا، بعد سلسلة مشاورات عديدة، مع مي

وأصدقائها المقرَّبين، والأستاذ فؤاد حبيش الذي جعل من *المكشوف* وسيلته ووسيلتنا لمحاربة الظلم، أنَّه لا سبيل في النهاية إلَّا السير في طريق أفضل وأذكى، يتناسب مع وضعيَّة مي الصحِّيَّة حتى لا نرهقها. وتفادَينا طلب الادِّعاء بإحضار مي واستجوابها علنًا، في دار القضاء. اعترضنا، وكانت وجهة نظرنا أخرى. ربَّما أفضل. وأُرجئت الدعوة إلى مطالعة النيابة العامَّة.

ـ يمكنني أن أحضر شخصيًّا، وأدافع عن عقلي. وسأدينهم واحدًا واحدًا، أوَّلًا على تواطئهم.

ـ القضاء عدوانيّ، ويمكن أن يُتعبوك أكثر.

في لحظة من اللحظات رأيتني أقف على منبر وأخطب أمام الناس، عن تجربة الظلم التي تعرَّضت لها.

ـ لدينا إستراتيجيَّة أخرى، أعتقد أنَّها أفضل. وهي تتجاوب بشكل واضح مع قناعاتك، وتدخل سياق اهتماماتك الدائمة. ولا تكلِّفك شيئًا ولا تُتعبك ولا تجعلك طُعمًا سائغًا للقَتَلة المتربِّصين.

ـ تفضَّل. أسمع المقترح.

قلتها وأنا أتمنَّى ألَّا يدفعني إلى عقد صلح مع قاتلي. هذا المقترح كان قد مرَّ عليَّ من قبلُ ولم أقبل به. الصلح معهم قبول ضمنيٌّ بجرائمهم، وهذا يعذِّبني. أتمنَّى لكلِّ واحد منهم أن يعيش يومًا واحدًا في العصفوريَّة، محرومًا من كلِّ شيء، حتى من حقِّه في التنفُّس.

اعتدل محاميَّ الأوَّلُ في الأيَّام الصعبة، الأستاذُ فؤاد حبيش،

ونظر طويلًا إلى وجهي. كان على اطِّلاع بكلِّ شيء، ويتابع هذه المظلمة عن قرب. لقد سخَّر نفسه، هو وأقاربه للدفاع عن الحقِّ.

ـ شوفي يا ميْ، أن تذهبي إلى القضاء، هذا أمر مُتعِب لك. ولا أعتقد أنَّ صحَّتك تتحمَّل ذلك. لقد أتعبوك كثيرًا، على الرَّغم من تحسُّنك والحمد لله. عندما تريد أن تدافع عن شيء عليك أن ترى أوَّلًا من هو القاضي، ومن يسنده، ولا أخفيك أنَّ البشر الذين أمامنا، من القاضي الشابّ بشارة الطبَّاع، والقاضيَّين المساعدين معه الشيخ أكرم العازار والأستاذ إحسان بيضون ليسوا في صالح قضيَّتنا. فهم لا يعرفون أيّ شيء عنك. فكَّرنا مع جمعيَّة العروة الوثقى، التي تحترمك وتقدِّر جهودك، وتساند قضيَّتك، بإلقاء محاضرة من معدن جهودك وخطبك العظيمة. خطب الحقّ. وتُدعى لها هيئة المحكمة، الطبَّاعُ ورفيقاه، وممثِّل النيابة، وجمع غفير من كبار مثقَّفي ومسؤولي هذا البلد. وتُلقى في ويست هول، في الجامعة الأميركيَّة، وهي مكان رفيع المستوى، وتعرفينه جيِّدًا.

ـ لا أدري إذا كنت سأستطيع. أشعر كأنَّ هناك مسرحيَّة غبيَّة، وعليَّ أن أمثِّل دور المثقَّفة فيها.

ـ لا. سيكون جهدك العلميّ وعقلك هو دليلك، وستكون محاضرة موجَّهة للناس في موضوع تختارينه أنت بالاتِّفاق مع العروة الوثقى، ولا أحد غيركما. الهدف هو أن يرى الناس قدرتك على التفكير، وهدوءك وإمكاناتك في التحليل. نعم في القضاء شيء من المسرح لأنَّها قضيَّتك. نؤدِّي أدوارًا نحسّ أنَّها مؤثِّرة في الآخرين.

ـ ذهني يا أستاذ فؤاد مفرغٌ من كلِّ شيء، فهل سأستطيع؟

ـ تستطيعين طبعًا. مجالك وقضيَّتك في النهاية. هذه الفكرة ستضعك من جديد في مدار الثقافة.

لأوَّل مرَّة أخاف من مواجهة الناس. لكنِّي في أعماقي لم يكن لديَّ ما أخسره. فكرة المحاضرة وفي قاعة الويست هول الضخمة ستضعني في مواجهة الناس، خميرة المجتمع، ونفسي. لأنِّي إذا خرجت من امتحاني ناجحة سيتغيَّر الأمر.

التفت نحو الجميع.

ـ الأمر ليس بسيطًا في قاعة ضخمة ومربكة. أعرف القاعة جيِّدًا. حاضرت فيها العديد من المرَّات منها المحاضرة الموجَّهة للطلبة في منتدى ويست هول التي كانت تحمل عنوان: هو ذا الرجل، بعد ظهر الثلاثاء ٣١ تشرين الأوَّل/أكتوبر من سنة ١٩٢٢. بل أحفظ حتى فقرتها الثانية: هو *فقير اليد، يُنظر له بالريبة والتحذُّر، لأنَّه غريب في قومه* وعشيرته. هو *شاذّ مجنون*، لا يشبه *الآخرين. ما ذُكِر إلَّا وارتسمت على الشفاه ابتسامةُ التأفُّف والاستخفاف، فرجمه السافلون بأقذر سفالتهم، ولوَّث اسمه الخاملون بأوحال خمولهم*... الأشياء المهمَّة في حياة الإنسان لا تُنسى. يا الله كم يمضي الزمن بسرعة. كنت سعيدة بشبابنا وبنهضة رأيتها ترتسم في الأفق، قبل أن يأتي من يطفئ كلّ شيء في قلبي. القاعة لا تخيفني.

ـ لهذا اختارتها العروة الوثقى. المكان جزء من الانتصار على الخوف. ولكن سبحان الله كأنَّك تحكين عن اللحظة الحاليَّة. بعد خمس وثلاثين سنة. الذين توصِّفينهم، هم من أوْجَعُوك اليوم.

ـ يا أستاذ فؤاد، كلّ ما ينبع من القلب، يستمرّ في الزمان

والمكان. أنا أخاف أن يفسدوا علينا المحاضرة.

- فشر. ما يحقّ لهم. راح نقلبها على رؤوسهم.

أجاب الأستاذ حبيش بعنف لدرجة أن احمرَّ وجهه.

- عندما يأتيك الناس مجنَّدين لكسرك، لن يكون الأمر بسيطًا ولا سهلًا. لن يعدم الذين باعوا ضمائرهم من أهلي، ومن ابتاعهم، في إيجاد من يأتي وينغِّص علينا.

- على كلٍّ نتجنَّد لذلك. لكنِّي صدقًا، لا أتخيَّلهم يفعلون ذلك، ليس محبَّة واحترامًا، ولكن خوفًا من تشويه صورتهم أكثر. من الصعب عليهم الإقدام على ذلك في الجامعة الأميركيَّة. ثم إنَّ المدعوِّين ليسوا عاديِّين. سيكونون من أهمّ نخب المجتمع اللبنانيّ.

- على كلٍّ الفكرة تبدو لي جيِّدة. على الأقلّ الواحد يقول إلِّلي في قلبه، في عالم يعجّ بالأدخنة، والظلم، والخوف، والموت. سأفكِّر في الموضوع. امنحوني يومًا أو يومين سأكون حينها قد استقررت على الفكرة جيِّدًا وأتواصل معكم. أكون على الأقلِّ اختبرت مواهبي التمثيليَّة على منصَّة الويست هول.

ضحك جميع الحاضرين. ربَّما كنَّا في حاجة ماسَّة إلى ذلك بعد ضغوطات الأسابيع الماضية.

رأيت ارتسام علامات الرضى على وجوه كلّ من كان عندي بالبيت. فقد رأوا في ذلك موافقة مبدئيَّة. كنت بحاجة لأن أشعر بذلك، وأنِّي محميَّة من أوفى الأصدقاء، الذين تعرَّضوا للتهديدات بسببي، وناصروني حتى النهاية.

عليّ أن أُثبت أنّي أهل لذلك، وأنّ حمايتهم لي بكلّ هذا العنفوان، منحتني الأمان الذي كان ينقصني.

رأيتهم يشربون أخيرًا قهوتهم التي بردت بين أيديهم.

ـ ٣ ـ

قمت باكرًا في ذلك اليوم[1] الربيعيّ الجميل. مشيت قليلًا.

تنفّست طويلًا حتى امتلأت رئتاي بالهواء الجبليّ الناعم. الفريكا ضيعة ساحرة، لأنّها قريبة من السماء.

لكن عليّ ألّا أنسى أبدًا أنّه مكتوب عليّ أن أحمل صليبي على ظهري وأمشي إلى أن تخفّ الآلام نهائيًا.

أمضيت الأسبوع كلّه أهيّئ نفسي لهذه اللحظة التي إمّا أن تُعيدني إلى بيتي في القاهرة، أو ترميني نهائيًّا في العصفوريّة من جديد. على الرّغم من إرادتي، لم أعد قادرة على تحمُّل نكسة جديدة. تقرير الأطبّاء الذين وضعوني في الخانة الوسطى، بين العقل والجنون، لم يسهّلوا من مهمّتي أبدًا، بل عقّدوها، لولا الأصدقاء الذين اعتبروا ذلك مرحلة متقدّمة لاسترجاع حقّي في العقل، بالخصوص عندما عقدوا المقارنة بين العصفوريّة والحكم الصادر عليّ، الذي بدا لهم خطوة إيجابيّة. ربّما ثقتي الزائدة في نفسي هي السبب.

المحاضرة كانت جاهزة، وقد استجبت بسرعة لما طلبته منّي العروة الوثقى، للحديث عن رسالة الأديب في الحياة العربيّة. وافقت بسهولة لأنّي كنت مقتنعة أنّه من الأفضل لي ألّا أتحدّث عن أيّ شيء

(١) ٢٢ آذار/ مارس ١٩٣٨.

يخصّني وليس عن محنتي، حتى لا يُنظر لها على أساس أنَّها مجرَّد تبرير لوضع خاصّ وعامّ.

عن هذا المثقَّف الحداثيّ الغريب الأطوار، الذي دخل في حسابات البقَّالين ونسي دوره العظيم.

كان عليَّ ألَّا أُخطئ في أيِّ تفصيل وأن أجمع كلّ طاقتي الإيجابيَّة لتخطِّي هذا الألم وهذا النزف، وأنزع كلَّ المسامير التي صلبت جسدي على خشبة الموت. على كلِّ الحاضرين أن يُدركوا أنِّي لست مجنونة بل وعاقلة، وتفكِّر في مآل أمَّتها.

كان اليوم الذي ينتظرني لا يشبه بقيَّة الأيَّام التي مضت بآلامها وحرائقها.

لبستُ معطفي الرماديِّ. لم أغيِّر شيئًا في هندامي. بقيت تقريبًا كما أنا.

لم أقضِ الليلة في صبغ شعري الذي ابيضَّ بسرعة. بياض شعري كان وحده شتيمة لمن كان السبب في هذا الموت البطيء الذي سلَّط عليَّ، إذا كان ما يزال يملك نتفة ضمير.

اتَّخذت موقفًا شبيهًا بما نصحني به كلّ من كان قريبًا منِّي، حتى بلوهارت، أن لا أتحدَّث عن الكراهية، والضغينة، أو ما آلمني طوال فترة العصفوريَّة وما تلاها، ولكن عن الحبّ الذي نبت فيه كالشجرة في برّ مصر، وفي ماء الشام وسماحة كنائس ومساجد مدينة سيِّدنا المسيح الناصرة، وهو يجرّ وراءه، جرحَه القاسيَ ودمعَه الذي ارتسم كالخيط رابطًا بين كلِّ مدن الوجع والآلام في العالم. أعبر شوارعها وأقسم أنَّ أبانا الذي في السماوات، كان يتحدَّث معي بقوَّة عن صمته

وآلامه التي لا تنتهي. ويأمرني بعينيه المتعبتين أن أقتفي كلّ خطواته وأسير في إثر دمه، في درب الآلام. حدَّثني الليلة الماضية وطلب منِّي أن أفجِّر الحبّ الذي فيّ، وألّا أترك مساحة، ولو صغيرة للضغينة. وهو يدلُّني على المسلك، مشيت وراءه. رأيته يسلِّم على حائط الجامع الأبيض، ثم يمضي نحو كنيسة البشارة، محاولًا أن ينسى كلّ الذين أدموه. أن يمسحهم من نظره ويجعل من البياض رؤاه الأخيرة.

أشعر وأنا أتهيَّأ للخروج من بيتي، في أعالي الفريكا، كأنِّي كنت في عالم آخر. كأنِّي قادمة من عالم الأموات نحو حياة كانت تبدو لي جميلة، على الرَّغم من غموضها الكبير.

لم أكن خائفة من المحاضرة التي هيَّأت لها نفسي جيِّدًا، وساعدني أصدقاء من العروة الوثقى. كلّ كلمة كان لها مكانها المناسب، وسلَّمتها لأمين الريحاني، والميتر فؤاد حبيش، لكي يقرآها، فقط لأطمئنّ أكثر. كانا سعيدين بما فعلته. لم أكن خائفة من عقلي، فهو لا يخدعني حتى في حالات كآبتي المزمنة، كنت مذعورة من لساني الذي يحدث أن ينعقد، ولا ينطق بكلمة، في درجات الألم القصوى.

طلب منِّي طبيبي النفسانيّ الذي يفحصني مرَّة في الأسبوع، أن أشرب ماء كثيرًا، وألّا أُعطي أيَّة قيمة للآخرين، وكأنَّهم غير موجودين، أو أتعامل معهم كطلبة، كما عادتي في الويست هول، في الجامعة الأميركيَّة. أعرف أنَّ الكثير من الناس سيأتون حبًّا، والكثيرين سيأتون فضولًا. وسيأتي بعضهم لتدميري نهائيًّا وبهدلتي أمام الآخرين.

أخاف من الأشياء التي لا أستعدّ لها.

ارتحت عندما وصلتني دعوة اللقاء. وتأكَّدت من أنَّ الأمر وصل إلى نقطة اللّارجوع.

تدعوكم الجامعة الأميركيَّة والعروة الوثقى إلى الاستماع إلى محاضرة تحت عنوان: رسالة الكاتب في الوطن العربي، تُلقيها الآنسة مي زيادة، في نادي «العروة الوثقى» في «ويست هول» من على منبر الجامعة الأميركيَّة. وذلك يوم ٢٢ مارس/آذار ١٩٣٨ على الساعة الثامنة مساء.

كلٌّ من سيقرأ الدعوة سيتساءل: هل ستقوى مي على إلقاء محاضرة؟ هل هي من سيكتب كلمتها، أم سيعاونها آخرون أكثر تعقُّلًا؟ هي إذن تقرأ، وتكتب، فكيف قال عنها بعض الأطبَّاء في تقاريرهم إنَّها لا تكتب ولا تقرأ؟ قيل إنَّها فقدت صوتها من شدَّة صراخها في العصفوريَّة، فكيف ستقرأ نصّ محاضرتها. هي إذن شبيهة بطائر الفينيق الذي يقوم من رماده.

كلّ هذا افترضتُه في الآخرين من ثقل ما سمعوه عنِّي.

في النهاية، لا خِيار أمامي إلَّا النجاح، في مهمَّة انتحاريَّة، لإثبات عقلي أمام عالم من المجانين. جماعة العروى الوثقى لم يدَّخروا أيّ جهد لإنجاح هٰذه اللحظة الفاصلة بين العقل والجنون. أبلغوني أنَّ اللقاء ليس عامًا، ولكن بدعوات بأسماء أصحابها. وهم يفترضون أنَّ جزءًا كبيرًا سيأتون بالسماع، من فم لفم. ربَّما حتى من باب الفضول. لكن هذا سيتمّ حلّه بحسب الكراسيّ المتوفِّرة. وستُعطى الأولويَّة لرجال القضاء والصحافة.

لم أنتظر كثيرًا حتى جاء أمين الريحاني وزوجته الطيِّبة وابنته،

ورافقوني إلى الجامعة الأميركيَّة.

كانت السيَّارة وهي تنحدر من أعالي الجبل، كأنَّها كانت تغرق في بحر أخضر، وأشعَّة منعكسة على الأعشاب في ألوان مستحيل تخيُّلها، كأنَّها ألوان الجنَّة.

لم نتحدَّث كثيرًا. نبَّهني فقط إلى عدم الردِّ على الاستفزازات. الباقي قضيناه نتحدَّث عن دهشة الطبيعة وجمالها، قبل أن نصمت جميعًا وننصت إلى دواخلنا ودهشة المشهد الذي كان يكبر أمامنا.

ـ ٤ ـ

الناس الذين رأيتهم في الخارج ونحن ندخل إلى مدرج الويست هول، كانوا بلا عدّ ولا حصر.

حظّك الكبير يا مي.

فضل العروة الوثقى و*المكشوف* كان كبيرًا. بفضل الجامعة الأميركيَّة، تمَّ هذا كلّه.

عندما دخلت إلى القاعة الكبيرة، وقفت للحظات. كانت ممتلئة وجزء من الجمهور كان واقفًا. لم أتفرَّس في الوجوه، لكن تداخل الوجوه والأجسام بدا لي كأنَّها ظلال، لا شكل محدَّدًا لها، إذ تحوَّلت إلى كتلة سوداء واحدة.

سمعت رنين التصفيق الذي علا في عمق القاعة. تذكَّرت لها تاريخًا مضى، عندما وجدتني وجهًا لوجه مع الذين حضروا لتكريم الشاعر الكبير خليل مطران وكان عليَّ قراءة رسالة جبران التي بعثها بالمناسبة.

فجأة تحوَّل التصفيق إلى شكل يشبه مقطوعة مسيرة راداتسكي لشتراوس الأب، التي ألَّفها على شرف الماريشال النمساوي جوزيف راداتسكي، في سنة ١٨٤٨. استقرّ التصفيق الكبير في عمق رأسي. أغمضت عيني عندما زادت حدَّته، وارتفع عاليًا ولم يتوقَّف إلَّا بعد زمن طال كثيرًا.

أغمضت عيني. تقدَّمت نحو منصَّة الخطابة. كنت خائفة من شيء واحد. أن يجمد لساني.

وقفت للحظات حتى توقَّف التصفيق نهائيًّا وبدأ كأنَّ الصمت سيسكت هذه اللحظة نهائيًّا.

كنت أعرف أنَّ كلّ أصدقائي كانوا يشدُّون على قلوبهم خوفًا من أيِّ طارئ.

انتميت للحظة بكلِّي. حقيقة لم يكن لديَّ ما أخسره. لحظات فرح صغير، كانت كافية لتعطيني الإحساس بأنِّي في مكان آمن. تنفَّست بعمق. استرجعت الأفراح الصغيرة التي سُرقت منِّي.

وضعت أوراقي على منصَّة الخطابة. فتحت عيني شيئًا فشيئًا، فجأة امَّحى كلّ شيء من أمامي، ولم تبقَ إلَّا الأوراقُ والإنارة المسلَّطة عليها، وأنا بكلِّ راحتي الداخليَّة.

كنت في مكان آخر، في دوار جميل.

رتَّبت نظَّارتي. اخترقتني ابتسامته. رأيت جبران وهو يلحّ عليّ بالحفاظ على عيني.

أغمضتهما ثانية ثم فتحتهما من جديد. وبدأت في قراءة ما كتبته.

كنت متأكِّدة من أنَّ الكثير من الصحفيِّين سيُصابون بخيبة أمل، لأنِّي لم أتحدَّث عن مأساتي، وهم أتوا يقودهم فضولهم فقط، وليس الحقيقة.

كنت منبهرة بالويست هول، وبجماله، وبأناقته في ذلك اليوم. بالخصوص بناسه الذين قطعوا المسافات الطويلة فقط ليشتركوا معنا في الأمسية.

لا أدري كيف سبقتني الكلمات الأولى:

سلامًا يا ويست هول، يا موطن الفكر والحياة المنظَّمة في كرامة وحرِّيَّة. كم من مرَّة جلست بالخيال، بين جدرانك، أتبادل والجمع الحاشد قوَّة الحيويَّة. وآخذ قسطي ممَّا يعجّ من فضائلك، من فائدة علميَّة واجتماعيَّة. كم من مرَّة عدت بالذكرى إليك، أصغي بخشوع إلى رسالات الفضل والعلم والتهذيب، يتلوها هنا العلماء والمفكِّرون والمصلحون. سلامًا أيَّتها العروة الوثقى، الساهرة على وظيفتك في تنوير الأفهام، الحريصة على غايتك في إحكام الرابطة العلميَّة والأدبيَّة بين أقطار الشرق العربي. كم من صيحة أرسلها أقطابك وأتباعك وأنصارك من على هذا المنبر المضياف، فمضت كالطير تسبح في القريب البعيد من الأجواء... ولئن أنا شكرت لك تشريفي بدعوتك واقتراح الموضوع، فإنِّي كذلك شاكرة لأنَّك أفسحت لي مكانًا كريمًا بين كرام ضيوفك، عاملةً بيدك القويَّة الوفيَّة إلى إحكام الرابطة بيني، وبين بني قومي. وأشكر لكم، أيُّها السادة والسيِّدات تفضُّلكم بالحضور. إنَّ اسم العروة الوثقى يُلهم الفرد، أنَّه ينقلب أمَّة عندما يخاطب الأمَّة. ما أجمله موعدًا...

كنت قد بدأت أطير. خارج المكان، في عمق دُواري الخاصّ،

ولم ينغِّص عليَّ أحد. فقد ظلّ الحضور مشدوهين في ما كنت أقوله. وكان يقيني بالانتصار على الأوغاد، يولد ويكبر في كلِّ ثانية، مثل الخلايا الحيَّة.

عندما استعدت ثقتي في نفسي، فتحت عيني قليلًا.

كانت القاعة ممتلئة بالحاضرين. لم أصدِّق ما كنت أراه. رأيت وجوهًا أعرفها. مجموعة المحامين، ومدراء الجرائد ممَّن نسوني ثم تذكَّروني. الأطبَّاء. الكثير من الوزراء والمسؤولين. كبار العائلات الشاميَّة واللبنانيَّة. رأيت حبيبة قلبي بلوهارت التي كانت تتخفَّى في زاوية صغيرة برفقة إستر يواكيم. في الصفوف الأولى رأيت أيضًا النائب العام، راجي الراعي. والدكتور مارتن بغليونه، رأيت الميتر فؤاد حبيش الذي كان على رأس الحاضرين السعيدين، والمصفِّقين مثل طفل لم يكن يصدِّق أنَّ الشخص الذي أمامه انتصر على مَن هم أقوى منه. واووووو رأيت أيضًا حبيبتي إيزميرالدا التي بعثت لي قبلة من عمق الصالة وأنا أتحدَّث، هي وأمير الحدائق، كازيمودو. على الرَّغم من شعرها المقصوص، فقد عرفتها. كانت علامات الفرح تملأ وجهها الطفولي.

قلبي ينتفض هنا وهناك كلَّما رأيت وجهًا أعرفه.

أقرأ وأسبح عميقًا في الملامح والوجوه.

فجأة اهتزَّ شيء عميق فيّ.

أخذت المنديل وفتحت عيني من جديد. لا ليس هو. تمتمت. لا يعقل؟ هو؟ ماذا يفعل هنا. لماذا قال إنَّه لن يأتي. يا إلٰهي ما الذي جاء به إلى هنا؟

ربَّما جاء ليسمعني للمرَّة الأخيرة؟ أو ربَّما ليقتلني ويسجِّل في مكتب الشرطة جريمةَ شرف لأنِّي بهدلت العائلة؟ وله أن يفعل ذلك، وسيكون القانون رحيمًا معه؟ *شو اللي خسره المجتمع؟ لا شيء، سوى امرأة مُخّها مش راكب على بعضه؟*

في أقلِّ من سنة تغيَّر كثيرًا، هو أيضًا. وجهه نحف. كان برفقة صديقين له. لا أدري من دعاه، ومن سلَّمه الدعوة؟ كيف وصل إلى هذا المكان وهو المنشغل يوميًّا بأعماله الخاصَّة؟

على العكس ممَّا تصوَّرته في غفوتي وعزلتي. بدا لي ذابلًا كنبتة موحشة، في مكان جافّ، حتى كاد أن يضمر على كرسيّه.

لأوَّل مرَّة أنساه دفعة واحدة.

كدت أصرِّح: من هذا الرجل الذي يعطيني الانطباع كأنِّي أعرفه؟ أين رأيته يا ترى؟ متى التقيت به، وفي أيَّة مدينة؟ أين؟ لا بدَّ من أنِّي صادفته في مكان ما.

كأنَّ ذاكرتي حدث فيها فجأة ثقبٌ عميق، فسالت كلُّها في الفراغ كالحمم.

واصلت حديثي وأنا مرتاحة داخليًّا، على الرَّغم من أسئلة الحيرة التي كانت تنتابني من حين لآخر. رسالة الأديب مؤمنة بها. لا أرى شخصًا خارج هذه النيران التي تحيط بنا.

رسالة الأديب تعلِّمنا كيف نخلق حضارة أدبيَّة، إذ بها لا بغيرها، تُقاس مواهبنا، ويُسبَر غور طبيعتنا، وهي التي تُثبت وجودنا وتنطق بلساننا مترجمة عن مبلغ الإنسانيَّة فينا.. رسالة الأديب العربي تعلِّمنا

حبّ العزلة والسكوت وترجعنا عن الفخفخة وهَوَسِ الظهور، فنعتكف على أنفسنا نعالج مكنوناتها بالظفر بجمود النتائج، فالسنبلة المتمايلة على صفحة المروج، حاملة بشائر الحياة، لا تولد حبّتُها ولا تنضج إلّا في أحشاء الأرض، في جوِّ الوحدة والهدوء والكتمان.

رأيته، لكنِّي لم أركِّز بصري عليه جيِّدًا، ربَّما لأنِّي لم أكن أريد فعل ذلك. كان جوزيف، غير الذي أعرفه وتعوَّدت على وجهه، وهو يحاول أن يرفع رأسه لكي يراني، يزداد ضمورًا واضمحلالًا. كان ييبس في قلبي، ويتحوَّل إلى حطبة محروقة أمامي. لا أدري ما إذا كان عليّ أن أعفو عن قبحه القاتل، أم أعطف على حالة بؤسه؟

بدل الحقد عليه، حزنت للوضع الذي كان فيه.

وعلى الرَّغم من أنَّه حاول أن يُخفي حيرته بحديثه مع الشخصين اللذين كان يتوسَّطهما، قرأت غموضًا يشبه الخوف، في عينيه المتعبتين. ظهرُه كان مقوَّسًا قليلًا. مثقَّف مثل جوزيف كان يُفترض أن يكون أكثر إنسانيَّة. من أين يأتون بكلِّ هذه الازدواجيَّة القاتلة لهم ولغيرهم؟ لقد تربَّى المثقَّف في شرقنا الجريح، على كلِّ وسائل النفاق التي تضمن استمراره. استطاع أن يوائم بين تقاليد الرعب الآتية من جوف الزمن الأسود، وقشور الدين الثقيلة بشكليَّات مرهقة، وحداثة وُلدت معطوبة من الأساس.

رسالة الأديب تعلِّمنا ألَّا نخشى كارثة، ولا نتهيَّب مغامرة، كلّ زمن خطير في التاريخ كان زمن اضطراب وكوارث، وأعظم فوائد الإنسانيَّة نجمت عن عصور العذاب والخطر، ولا يعرف شأن ذي الشأن إلَّا يوم الكريهة، والعاصفة لا تقتلع إلَّا ضعيف الأغراس، أمَّا

الأشجار ذات الحيويّة العصيّة، فالأعاصير تهزّها هزًّا عنيفًا، فلا تزيدها إلَّا قوّةً ومناعة.

أواصل ولا أسمع إلَّا صوتي، والصمت الذي اختلط بالبياض الذي كان يملأ المدرج لدرجة أنَّه أخفى الكثيرين من أمام وجهي. كنت في أعماقي منتشية بما كان يحصل لي. أعتقد أنَّ هذه الشهور علَّمتني ما لم أكن أعلمه طوال حياتي الماضية. لقد صرخت، وحاولت أن أنقل غربًا حيويًّا ومفيدًا وعقلانيًّا، نحو بيوتنا ونسائنا، لكنِّي أدركت أنَّ المسافات الضوئيَّة لا تُسدّ بقرار أو برغبة. المرأة التي فتحت عينيها على الاستعباد، ستبدو لها الحرِّيَّة جريمة في حقِّها. والرجل الذي رضع القوَّة والجبروت وسلطان الذكورة، في ثديي أمِّه، لا يمكنه أن يكون حرًّا إلَّا بكسر قيد قرون الظلام التي يجرّها وراءه، من دون أن يراها.

الشرقيّ يريد كلّ شيء جميل، بلا ثمن ولا تعب.

رسالة الأديب تعلِّمنا كيف نفهم كلّ شيء، ونستفيد من كلّ شيء باحثين عن الصواب والكمال خلال كلّ نقص وكلّ زلل، نازعين إلى الجمال الحسِّيّ والأدبيّ حيال كلّ دمامة خُلُقيَّة وخَلْقيَّة، مساجلين النفوس والعناصر، مناجين المنظورَ وغيرَ المنظور لنجعل من حياة متناثرة متداعية، حياة متناسقة متماسكة. أيّ شيء لا تعلّمنا رسالة الأديب؟ إنَّها قوَّة تستفزّ قوّتنا وموهبة تحفِّز مواهبنا، وصرامة تردّنا عن الحقارة، وبسالة تدفعنا إلى البسالة، وعذوبة تواسي أحزاننا، وأغرودة تُطرب أشجاننا، وهي كلّ ما يسوقنا إلى تكوين عالمنا المتآلف المستقلّ.

أرفع رأسي قليلًا، وأعود إلى الورقة. تتراكب الحروف قليلًا فوق بعضها. كنت مسحورة باهتمام الناس ومتابعتهم. مضت الساعة كالبرق. لم أحسبها مطلقًا على الرَّغم من أنِّي كنت متنبهة لكلِّ شيء، وكان عليَّ ألَّا أتخطَّاها حتى لا يملّ الحاضرون. الحاضرون، كنت أقرأ فرحهم في عيونهم المنفتحة عن آخرها.

أخيرًا وليس آخرًا.

نحتاج إلى الأديب يأخذ منّا ويعطينا، فيرسل صوته أريبًا، رصينًا، مسيطرًا أخّاذًا، حضّانًا. ونحتاج إلى رسالة الأديب قويمة، غنيَّة، عنيدة، ملهمة لتوقف قوميَّتنا في مكانها المشروع، في معرض القوميّات بميدان العمران العظيم.

والسلام عليكم جميعًا.

فجأة انسحب البياض بعد التصفيق الحادّ الذي اهتزَّت له الجدران من شدَّة قوَّته واستمراره، واتَّضحت الوجوه أمامي من جديد. عندما فتحت عيني، رأيت وجوهًا أخرى كنت أعرف بعضها، على وجوهها ابتسامات عريضة.

رأيت باقات الورد مع العشرات من شباب الجامعة، كلّها كانت تتزاحم نحوي. والأيادي تتدافع لتحيَّتي، بينما كانت الزغاريد تشق فضاء الويست هول الواسع.

سمعت أحدهم يقول، ولم يكن بعيدًا عنِّي، موجِّهًا كلامه نحو الإعلاميِّين الذين تراكضوا نحوي.

إنَّ الحَجْر على هذه النابغة هو حَجْر على الأدب العربي وعلى

الأمَّة العربيَّة، وعلى العبقريَّة العربيَّة، فلا تُعدموها بسطرين من قلمكم. . وهي عاقلة فلا تجعلوها بحكمكم مجنونةً. إنَّ في عنقها قيدًا، وهي السيِّدة الفريدة المبجَّلة، فاخلعوه عنها، ودعوها تتنشَّق الهواء الطلق، فوراءها الملايينُ من الخَلْق ينتظرونها.

كلامه أعطاني المزيد من الأمان.

لأوَّل مرَّة أخرج من الويست هول الذي أعرفه جيِّدًا، وسبق أن ألقيت فيه محاضرات عديدة، وحيدة، بلا يوسف (جوزيف)، وبلا الكثير من الأصدقاء القريبين الذين لم يكلِّفوا أنفسهم زيارتي، في خضمِّ معركة خطيرة حاذيت فيها الموت.

بعضهم راهنت عليهم، والبعض الآخر زكُّوا جنوني بالدخول في اللعبة الظالمة.

كدت أجهش بالبكاء، لكنِّي كابرت، وتماسكت. كم تمنَّيت، لكن كان عليّ أن أظلّ كصنم، بلا حراك ولا كلام: أحسست نفسي خرجت من اختبار قاسٍ أمام المئات بأقلِّ الخسارات. تمنَّيت في أعماقي أن أرمي بكلِّ الأوراق، أطوِّح بها في الفضاءات الواسعة، وأركض في حديقة الجامعة الأميركيَّة، وأنزل من هناك ركضًا، إلى أسفل المرتفع حتى أصل إلى ملعب التنس ومخرج البحر، ثم أصعد بالدرجة نفسها من الفرح، ولْيَقُلِ الناس إنَّها مي قد جُنّت، لكنِّي لم أكن قادرة على فعل ذلك. الذين ينتظرونني في مختلف المنعرجات كثر، وعزّ جدًّا عليّ أن أمنح فرصة إضافيَّة لتأكيد جنون.

أجمل ما يقوم به المظلوم هو أن يعذِّب قاتله بنجاحاته فقط.

فجأة شعرت بنفسي فارغة من الكثير من الصداقات. أغمضت

عينيّ وكانت سعادة ضامرة تعبر كامل جسدي ودمي. وما تزال أصداء التصفيقات تملأ دماغي. كنت كمن يسير على الماء والغيم. قلبي كان مجروحًا بعمق، لكنّي كنت سعيدة في أعماقي.

تراءت لي من وراء ظلال ساحة الجامعة الأميركيَّة، كامي كلوديل وهي تصرخ بأعلى صوتها، وتفكّ قيدها بقوَّة. تضرب برجليها على الأرض في صراع مرير مع رودان الذي مات قبلها بسنوات، وأمّها، لتكسر قيدها الذي أدمى معصميها. لأوَّل مرَّة أرى قسمات وجهها الجميلة والرقيقة، قبل أن تغطّيها الشيخوخة بغطاء الموت.

كلّ شيء انتهى.

أعتقد، اليوم، وفي اللحظة التي خرج منّي جوزيف نهائيًا، غادرت العصفوريَّة إلى الأبد.

ـ ٥ ـ

كنت وراء الزجاج المندَّى المُطلّ على جزء كبير من المدينة وبعض شوارعها. يتصاعد دخان سيجارتي مثل اللولب الوهميّ. أحاول القبض عليه برؤوس أصابعي لكنَّه سرعان ما ينفرط. أتأمَّل الحياة. أكتشف فجأة جمالها وحبّها ونورها. لم تكن بيروت في هذا الصباح مدينة عاديَّة. الربيع غيَّر ملامح الناس، كلامهم وحكاياتهم، وحتى ألبستهم. أجسادهم أصبحت جدّ خفيفة. وجوههم مالت بسرعة من الاكفهرار إلى البشاشة. من القلق إلى الراحة. المقاهي تعجّ بالوجوه. شيء ما في هذه المدينة لا يموت أبدًا.

هل أنا من يرى، أم الذي يرى ليس أنا؟

وأنا جالسة أقصُّ ما جرحني بالتفصيل، في جريدة *المكشوف*، نبَّهني الأستاذ المحامي فؤاد حبيش مدير الجريدة، إلى ما وصله من جمهور القرَّاء الذين حضروا الأمسية، أو الذين سمعوا عنها، أو قرؤوا عنها في الصحف اليوميَّة التي غطَّت الحدث: لقد قلت كلّ شيء ولم يعد لديَّ ما أقوله، فأنا مستنزَفة.

ـ أنت اليوم امرأة حرَّة مثل النور.

ـ سعيدة كثيرًا. الفضل كلّه لكم. لن أتوقَّف عن قول هذا. أنتم لم تسترجعوا لي حقِّي. أعدتم لي الحياةَ المسروقة. لا شيء يساوي لحظة خروجك منتصرًا في معركة فُرضت عليك، لستَ وحدك المعنيّ بها، لكن أيضًا مَن ناصرك، ومَن أحبَّك، ومَن وثق في عقلك. شكرًا لجريدة المكشوف، التي كشفت الحقّ بلا خوف ولا تهاون ولا ظلم للناس.

أشعر الآن براحة كبيرة، لدرجة أنِّي لا أعرف ماذا أفعل بحياتي؟ بدأت أكتب كتابًا آخر، *بيتي اللبناني* الذي جمع كياني الضائع وأشلائي. عنكم. فأنتم بيتي. وعن إقامتي في بيروت، لكنِّي رأيت أنَّ جهدي سيستنزفني على مرَّتين. فدمجته في صلب يوميَّاتي ولياليي في العصفوريَّة. ما تزال مأساة الظلم في مخِّي ومن الصعب إزالتها بسهولة. سعيدة جدًّا، لكنِّي أحتاج إلى عمر آخر يمنحني فرصة أن أكون بغير الصورة التي أنا عليها.

ـ لو التفتّ وراءك قليلًا، نحو تلك الهوَّة العميقة، التي اسمها العصفوريَّة، ماذا تفعلين؟

ـ لا شيء. سأقاوم ولن أستسلم لمن أرادوا قتلي وأنا في عزّ حبِّي للحياة والناس.

ـ هل سامحت أهلك؟ يعني . . .

ـ هل سامحت جوزيف؟ أم هههههه.

ـ نسيت أنَّك صحفيَّة أيضًا.

ـ عفوت عن كلِّ شيء في اللحظة التي ظهرت فيها الحقيقة. شيء واحد أحتاج فيه إلى زمن أطول، لكي أغفر لآل زيادة وما فعلوه فيّ. أفكِّر في شيء واحد لم يعد بعيدًا اليوم، بل أصبحت على حوافِّه، أن أُدفن في القاهرة، بجانب قبر أمِّي.

ـ لبنان أرضك، وأرض أجدادك.

ـ هذه الأرض قطعة منِّي، وجرحها جرحي. ليعذرني كلّ من أحببتهم وأحبُّوني، فأنا لا أريد أن أتنفَّس الهواء الذي يتنفَّسون، ولا أنام على التربة التي ينامون عليها. ولا أرى الشمس نفسها التي يرونها. ربَّما احتجت إلى لحظة صفاء غير هذه. فرحة كثيرًا، لكن هذا لا يطمس جرحي. تخيَّل قليلًا نفسك تُرمى في مستشفى للأمراض العقليَّة وأنت في كامل قواك الذهنيَّة، وما زلتَ قادرًا على الاستمرار في الحياة بحبّ.

ـ أتفهَّم حزنك الكبير، والرماد الذي في داخلك، لكنَّ الحياة أقوى من كلِّ شيء؟ ألم تقولي هذا في الكثير من مقالاتك وكتبك الكبيرة؟

ـ بالضبط. لقد تسارعت الأحداث بشكل لم يمنحني فرصة التفكير والاستمتاع بما حدث.

ثم التفت صوب محفظته وأخرج سلسلة من القصاصات الصحفيَّة وبسطها على الطاولة

ـ سمعت هذا الكلام.

قرأت قليلًا ممَّا منحه لي. *القرار النهائيّ كان مهمًّا بالنسبة لي. الآنسة مي لا تشكو إلَّا من قلَّة مدخولها الناتج عن دعوى الحَجْر، لأنَّها لا تستطيع سحب مالها من المصارف، وتحسّ بألم مبرح، عندما تسمع كلمة تذكّرها بالحَجْر عليها، الذي لا ترى له مبرِّرًا وهذه انعكاسات طبيعيَّة بعد الشفاء. وقد أحدثت قضيَّة الحَجْر على مي ضجَّة كبيرة في الأوساط الأدبيَّة والسياسيَّة يومئذ، وانتهت في صالح الأديبة الكبيرة، إذ صدر قرار ٥٨ محكمة بيروت بردّ دعوى إلغاء الحجر نهائيًّا. في أوَّل شهر حزيران عام ١٩٣٨. حول شخصها. صحَّة الآنسة مي الجسديَّة ممتازة، والنشاط طبيعيّ، والأعمال تتمّ بصورة حسنة. إنِّي أرى أنَّ الآنسة مي قادرة على حياة اجتماعيَّة مستقرَّة وأرى أنَّها* جديرة.

ـ انظري ما قالته صحيفتا ***الحديث وصوت الأحرار***. قبل مدَّة قصيرة. أعرف أنَّك لا تتابعين كثيرًا وتريدين أن تنسي هذه التراجيديَّة من بدايتها إلى نهايتها.

ـ معك حقّ. المشكلة أنَّه في كلِّ التفاِتة يأتي شيء ما لينغِّص عليَّ. لا عليك. تعوَّدت على كلِّ شيء. وعليَّ الآن فقط أن أُقنع نفسي أنِّي أصبحت كما الهواء والطير والماء والغيم، حرَّة. وهذا أيضًا جهادٌ آخر. عندما تكون مكبَّلًا من الداخل، فلا شيء يهمّك أكثر من كسر القيد الذي فيك. الذي نبت في داخلك. أكثر من خمسين سنة وما زلت طفلة تركض وراء العصافير، وتخاف من كلِّ ما يركض وراءها من ظلال لا تغادرها.

خطوط الجريدة رقيقة جدًّا. وضعت العوينات وبدأت أقرأ.

لقد زالت حيرتي وزال تردُّدي بعد تلك المحاضرة الساحقة، وباقتناعي أنَّ الآنسة مي بعد تلك المحاضرة لا يُحْجَر عليها، وبهذا الاقتناع القاطع الحاسم الذي كوَّنته في عيني التي رأت وأذني التي سمعت. . أتقدَّم منكم الآن أيُّها القضاة، وأطلب أن تقاسموني هذا الشعور الحيّ الصادق الذي انتابني ليلة البارحة، فالفتاة التي ألقت تلك المحاضرة لا يُحجَر عليها، ولا تُحجَر حرِّيَّتها وعبقريَّتها، فهي أسمى من أن تطالها يد القصر، من أن تمسَّها يد الحجر. ليتركها أنسباؤها وشأنها. إنَّ أنسباءها الحقيقيِّين هم أولئك الذين تربطهم بها الرابطة الروحيَّة. أولئك الذين سمعوا محاضرتها فصفَّقوا لها، وخرجوا منها مُعجبين، مذهولين.

لقد كان على الصحافيِّين في لبنان، إن لم يكن إكرامًا لي، إكرامًا لوالدي، أن يُبدوا شيئًا من الاهتمام، أو شيئًا نحو زميلهم وابنة زميلهم، أن يسألوا عنها، أو يقوموا بزيارتها عندما سمعوا بخبر عنها لمعرفة مبلغ ما في هذا الخبر من الصحَّة. . .

ـ نعم، قلتُ هذا الكلام وأكثر في حقِّ الصحفيِّين، ولا أندم عليه. حقيقي. لم أكن أتحدَّث، لكن كلّ جوارحي كانت تقول مرارتي. أفهم أن يتَّهمني جوزيف، فقد كنت مجنونة عليه حبًّا في وقت من الأوقات. لم يترك فيّ مساحة واحدة لي. احتلّني كلِّيًّا. رفضي للكثير من العروض ومنها جبران، وحتى العقَّاد، منبعُه حبِّي له. حتى الدين ووصايا الأديرة، تختفي كلّها أمام عاصفة الحبّ. العقَّاد حاول كسر يقينيَّاتي السابقة، لكنَّه لم يفلح معي. تعب معي كثيرًا. لست امرأة

سهلة ولا حتى طبيعيَّة، أحتاج إلى أن يقتنع عقلي قبل جسدي. ماذا كان عليّ أن أفعل؟ رجل باعني بأخرى وأنا في عزِّ التصاقي به وبدأت أراني أمًّا، متمنِّية أن يرزقني الربّ ذكرًا أستعيد به أخي الذي توفِّي في وقت مبكر. آمنتُ به. كنَّا نتراسل بالفرنسيَّة، لدرجة أنَّ ذلك أثَّر على توازن أسرته، وزوجته تحديدًا. كأنِّي أصبحت ثقلًا عليها. غرق جوزي في امرأة كانت على أبواب الموت، وكنت أشدّ فيه بكلِّ قواي، كي لا أغرق أنا أيضًا.

ـ هل وجوده معها كان يعذّبك. هو في النهاية اختارها، وهي زوجته.

ـ لا أدري إذا كان الأمر يخضع لمنطق ما، لكنِّي كنت أتمنَّى موتها. يوم ماتت أحسست بنفسي كأنِّي أنا من قتلتها. لو كانت أمِّي حيَّة للعنتني بعقليَّتها الأرثوذوكسيَّة المغلقة. هي من نصحني بنسيان جوزيف نهائيًّا، والتفكير في ابن عمّ آخر، أو ابن خالة، أو أيّ شخص آخر، بعيدًا عن جبران أو العقاد. الزواج هو في النهاية ليس بكلِّ هذه المشقَّة، مجرَّد حلم صغير لتكوين عائلة، لا أكثر.

كانت الخطوط واضحة. عرفت صاحب الكلام حتى قبل أن أقرأ اسمه. *صحَّة الآنسة مي الجسديَّة ممتازة، والنشاط طبيعيّ، والأعمال تتمّ بصورة حسنة. إنِّي أرى أنَّ الآنسة مي قادرة على حياة اجتماعيَّة مستقرَّة.* الجنرال الدكتور مارتن، كبير أطبَّاء لبنان.

وهذه قصاصة أخرى سجَّلَتْ رأي راجي الراعي، النائب العام الذي حضر محاضرتك.

ـ رأيته وسعدت جدًّا أنَّه كان موجودًا، شهادته ثقيلة جدًّا. وهي

التي غيَّرت مجرى الأحداث. كنت ألاحظه وهو يسجِّل ويراقب ويدقِّق جدِّيًا في ما كنت أقوله، ويتأمَّلني. في النهاية عانقني بحبٍّ، وقال: لا أعلم مَن صاحب فكرة المحاضرة ودعوة الناس، لكنَّها أجمل جواب على المشكِّكين. سعيد من أجلك. لقد انتصرت في قضيَّتك المعروضة أمام محكمة البداية.

ـ بالضبط، هذا ما قاله في المحكمة.

ـ على الرَّغم من أنَّه شخصيَّة قويَّة، ومرعبة في نظراتها، لكنَّه لم يُخفني، لأنِّي كنت أعرف مسبقًا أنَّه إنسان مثلي، يبحث عن الحقيقة الغائبة التي سُرقت منِّي، وكان يريدها، ليُنجز تقريره بموضوعيَّة. حقيقي فكرة المحاضرة في الويست هول، على الرَّغم من خطورتها الكبيرة، إلَّا أنَّها ظلَّت أملًا كبيرًا وأخيرًا بالنسبة لي. لا خِيار. إمَّا النجاح نهائيًا، أو قبول الموت في العصفوريَّة. وإنهاء قضيَّة اسمها مي زيادة.

كنت أتكلَّم براحة. لا أدري كم استمرَّ زمن حوارنا، لكن سعادتي كانت كبيرة جدًّا.

ـ في مصر يحتفلون بانتصارك على الظلم.

ـ كما في كلِّ مكان. الذين أعرفهم صامتون، ميِّتون.

ـ طاهر الطناحي، الرجل الجميل والطيِّب، كتب فيك قصيدة، يدعوك فيها إلى مصر.

عودي إلى مصرَ مثلَ الشمس ساطعةً تزجين ضيَّك آياتٍ وعرفانا

كم قد حزنّا لبُعد طالَ موعدُه وكم حَسَدْنا على الأيَّامِ لبنانا

القاهرة أصبحت على بُعد مرمى حجر.

كان قلبي مقهورًا من جيش الأصدقاء هناك، إذ لا أحد حرَّك إصبعه الصغيرة، لكن يجب قبول منطق الدنيا أيضًا كما هو، لا كما نريده. ما قرأته من تصريحات العقَّاد، طٰه حسين، سلامة موسى وغيرهم، جرح قلبي وقسمه إلى نصفين. وجعلني أفكِّر في كلِّ ما مضى، وأتساءل أيَّة حداثة، وأيّ مثقَّف ملتزم، عندما ترى صديقك الذي يشترك معك في هموم الدنيا، ينساك، بل يوغل فيك سكِّينةً صدئة؟

أفهم جيِّدًا اليوم لماذا حداثتُنا معطوبة. حداثة الخطاب والمناسبة.

القاهرة على مرمى حجر، سعيدة بذلك، لكن لن أكون مي التي عرفها الجميع، ولن تكون قاهرتي حبيبتي التي منحتني كلّ شيء. حبّها، وبعض أسرارها، وقلبها العطوف.

امرأة أخرى، لا أعرفها الآن، سأُصرّ على عشقها، مهما فعل الذين باعوني في أوَّل منعرج خطير.

قاومت كثيرًا من أجل هذه اللحظة، الآن لم تعد لي الرغبةُ ولا القوَّةُ للمواصلة.

أشعر بإنهاك كبير يجتاحني بأمواجه التي تشبه لدغات الموت.

ـ ٦ ـ

لم يبق أمامي الشيء الكثير لأقوله.

بقدر ما أشعر بالحزن، فأنا ممتلئة بشيء عميق يشبه الإحساس

بالخروج من معركة خطيرة، منتصرة فيها، لكن منهكة، ومنتهية. بالكاد أجد الرغبة في السير أكثر إلى الأمام.

هناك، جناحاي المحروقان: أبي وأمّي.

قسوة الشتاء البيروتيّ لم تتغيَّر. كلّ يوم يصبح الثلج متراكمًا كما حبَّاتُ الفضَّة التي تلمع بفرح تحت شمس مغرية بالمشي، على الرَّغم من حدَّة البرد الذي يدخل إلى العظام كالمسامير.

سأتذكَّر هذا المشهد حتى الموت، وأنا أدخل إذاعة الشرق[1] قبل المغادرة التي قد تكون نهائيَّة، والناس يُحيطون بي بفرح. الكثير منهم بكى بصدق، بالخصوص الشابَّات العاملات في القناة. انتفى فجأة كلّ الإحساس بالغربة والبرد. آخذ الميكرو، فأشعر بأنَّ العالم كلُّه ملكي.

عندما يغادر الغريب بلدًا قضى فيه لو مدّة وجيزة، يلتفت إليه متمليًّا من مناظره وخصائصه. مستجمعًا خلاصة تأثُّراته في ذكرياته، مستعيدًا صور الذين أثاروا عنده حالات نفسيَّة خاصَّة، من فرح وترح، وشجن وطرب، ملخِّصًا في خاطره الحوادث التي مرَّت به وتقلَّبت حواليه، فرديَّة كانت أم جماعيَّة، اقتصاديَّة كانت أم فكريَّة وعاطفيَّة.

أمَّا وأنا لست بالغريبة عن لبنان ولا لبنان بالغريب عنِّي، أمَّا وأنا أرتبط بلبنان عن طريق والدي بصلة مقدَّسة هي علَّة وجودي، أمَّا وأنا قد وصلتني بلبنان في الآونة الأخيرة، روابطُ جديدة وثيقة، فإنِّي وقد دنت ساعة الرحيل، التفتُّ الآن إلى لبنان والقلبُ المليء بالتأثُّرات والمشاعر، شبيه بهذا البحر الفيّاح، يلتفّ بلبنان ويدور حواليه شواطئَ

(١) ألقت مي كلمة الوداع من إذاعة الشرق في أوائل كانون الثاني/يناير في سنة ١٩٣٩، وهي على أهبَّة السفر إلى مصر.

وآكامًا وأودية، وقممًا، ويحتضنه في عناق طويل حنون، مخاطبًا إيَّاه في مغمغة هي أقرب إلى حفيف الأمواج منها إلى الألفاظ البشريَّة ليبثّه بعض ما يختلج بين ثناياه...

وهل لي أن أُرسل كلمة عن علاقة لبنان بفرنسا؟ إنَّ اللبنانيين أحبُّوا فرنسا منذ زمن بعيد، لا لأنَّها دولة استعماريَّة، بل لأنَّهم تشرّبوا مُثُلها العليا في الحقِّ والإنصاف والإنسانيَّة، في التعاون على الكرامة وعلى تحقيق النظام، وتحقيق مُثُل الحرِّيَّة، ولنا في قدوم المفوَّض السامي الفرنسي الجديد مسيو بيو(١)، بشيرُ خير للبلدين. إنَّنا نقدِّر الخدمات التي استطاع أسلافه أن يؤدُّوها. على أنَّ في وسع فخامته تلافي ولو بعض السيِّئات. فالبلاد اليوم على غير ما كانت عليه بالأمس. تاريخ العالم بأسره يتحوَّل عن مجراه. والحالة هنا تتطلَّب براعةً، وكياسةً، ووفاءً، وصدقَ نظر، من تلك الصفات الفرنسيَّة العالية التي لا نشكّ في أنَّ العميد الجديد يتحلَّى بها...

وأنت يا مصر التي تحنو تربتُها على دفينَيَّ الغاليين، سلامًا. إنَّ لي في ربوعك ملكًا مساحته ثلاثة أمتار طولًا، ومتران عرضًا. على تلك البقعة ترفرف أفكاري، وعواطفي تطوف هناك بضريح لم تضع عليه يد زهرة منذ ثلاثة أعوام. يا واحة الأغاريد والأزهار أعدِّي لي طاقة أضعها على ذلك الضريح، وكوني لي يا مصر وفيَّة.

كوني لي يا مصر وفيَّة، فأنا قادمة نحوك.

---

(١) Juin Gabriel Puaux (1883 - 1970).

اغْسِلينِي يَا أمِّي مِنْ دَمِي، ودَثِّرينِي بِصَدْرِك

ليلة ٢ شباط/فبراير ١٩٣٩ وما تلاها

ـ ١ ـ

لأوَّل مرَّة أصل إلى القاهرة منهكة وكأنِّي عدت فقط لأموت بجانب والدي ووالدتي. لا أنكر أبدًا أنَّه في نيَّتي الموت في سكينة، ولا أستجيب لأيٍّ شخص يتلفن لي. المرارة التي كانت تملأ قلبي كانت أكبر من أن أتحمَّلها منهم. لقد صمتوا كلُّهم. بل الكثير منهم قال عنِّي كلامًا غريبًا، قبل وبعد العصفوريَّة. ويظنُّون أنَّ العالم صغير ولن يسمعهم أحدهم، وأنَّ المهبولة المصريَّة انتهت، وتحرَّروا من ثقلها نهائيًّا.

نسوا أنَّ ما في الصحافة لا يموت أبدًا.

لهذا، ضربت على نفسي سياجًا لأنِّي كنت فقط أريد أن أرتاح. لم أستطع تفادي بعضهم. العقَّاد، سلامة موسى، ولطفي السيِّد أُصيبوا بخيبة كبيرة لأنَّهم لم يجدوا المرأة التي تنافسوا عليها في السرِّ والعلن. نسوا أنَّ هذه المرأة لم تعد إلى القاهرة إلَّا لتموت، وتُدفن بالقرب من والديها، ربَّما حصلت على تلك السكينة التي بحثت عنها عبثًا.

أقفلت الباب في وجه أنطوان الجميِّل الذي شعرت يومًا بأنَّه سيموت من دوني. لا لشيء سوى لأنَّه تخلَّى عنِّي. ربَّما غاضبة منه أكثر من غيره، لأنَّه رجل حسَّسني دائمًا بأنِّي جزء منه، وأنِّي ساكنة في عينيه. وفجأة، مجرَّد حفنة رماد، لم يكلِّف نفسه حتى بجمعها ودفنها وسترها من البرد العاصف وظلم الناس، أو رميها في عميق البحر.

أعذر نفسي كثيرًا، ربَّما كنت أنا أيضًا مثقلة بشيء غامض، استيقظ فيّ دفعة واحدة في القاهرة.

ربَّما غاليت في شكِّي، في الجميع. في هذه تحديدًا، لن أكون إلَّا أنا. امرأة مبتورة من أجمل سنوات عمرها وتعرف جيِّدًا قاتلها.

هذه القصاصات لم تعد لها أيَّة قيمة تُذكر. كثيرة، وأصبحت تضايقني.

أستغرب كيف ينقلب الحبّ إلى كراهية، ثم يتحوَّل عندي إلى بياض شبيه بالعدم. هل كان العقَّاد مجبرًا أن يفبرك كذبة ضدِّي ليخفي بؤسه معي. أين كان يوم أُخذت في سيَّارة مغلقة، ودُفنت في مكان، لا أعرف كيف خرجت منه؟ الصديقة تُزار، عندما تكون مريضة، ويؤخذ بخاطرها قليلًا. ليس هيِّنًا، أن توضع فجأة في صفّ الأموات والمجانين؟ أتساءل في خلوتي إذا كنت ما أزال ببعض عقلي. لا يمكن لهذه القصاصة أن تكون كاذبة: زرت الآنسة مي، *ورأيتها ترتجف، وهي تفتح الباب وتُشير إلى المسكن الذي أمامها، وتضع إصبعها على فمها، تحذِّرني من الظلام، قالت: ششت... ألا ترى هذه الحجرات، وما فيها من النور؟ إنَّها خالية وخاوية، فلمَ ينيرونها في هذه الساعة؟ اتَّجهت إلى تلك الحجرات، وسألت عاملًا وجدته*

عند بابها، فعلمت منه، أنَّهم يُعدّونها للتسليم في اليوم التالي، أوَّل الشهر. وأوَّل تاريخ الإيجار. فلمَّا أنبأتها بما علمتُ، بدا عليها الخوفُ، وخطر لها أنَّني أُخفي عنها المؤامرة، أو أشترك مع المتآمرين.

أضحك بمرارة. كيف لامرأة ربحت معركة بيروت، تخسر موعدها مع القاهرة؟ وهي تظنّ أنَّها مأمنها؟ ماذا لو زارني محمود العقَّاد في بيروت أو سأل عنّي؟ لم نتَّفق في أشياء كثيرة، لكنَّه لم يكن عدوًّا لي.

محنتي ليست خاصَّة. ليست ترفًا بائسًا. هي محنة المثقَّف العربي في أوهامه المرضيَّة، الذي استقرّ على ازدواجيَّة مقيتة، سترافقه إلى قبره بعد أن قبل بها واستكان لها. يصرخ كما المؤذِّن على ساحل مهجور، أو أجراس كنيسة ثقيلة، في الحبِّ، في السياسة، في الاجتماع، وكلَّما تعلَّق الأمر بموقف حقيقي وبسيط لا يكلِّف إلَّا صدقه حينما يقف أمام المرايا القلقة، انسحب وأصبح غير معنيٍّ بكلٍّ ما قاله وحكاه، ويمسح كلّ آلامه في الآخرين. إلى اللحظة لم أسمع أنَّ العقَّاد أعاد النظر في نفسه حينما اتَّهمني بالجنون ولم يكن مطلوبًا منه ذلك ليحوِّلني إلى امرأة نقلت العصفوريَّة في أثرها. من القليلين من الذين استقبلتهم في بيتي الجديد الفقير، لكنَّه لم يحسب لذلك أيّ حساب. شرب قهوة عندي في وقت لم أفتح للآخرين لا باب بيتي، ولا باب قلبي. أعتقد أنَّه حقد عليَّ عندما أرادني في فراشه وتمنَّعت، ليس كرهًا فيه، فقد كان أنيقًا ومعطَّرًا كتفَّاحة، لكنَّني كنت أفكِّر في جوزيف ولا أقبل غيرته من جبران، ثم هي تربيتي الكنسيَّة الثقيلة والمتناقضة أيضًا. وجد تعبيراته كلّها في السهولة. أحيانًا أتساءل إذا لم

يظلّ الإنسان العربيّ مثبّتًا في عقد المراهقة حتى الموت: *لقد كانت مي متديِّنة، تؤمن بالبعث، وأنَّها ستقف بين يَدَيِ الله يومًا، ويحاسبها على آثامها، فكانت بالرَّغم من شعورها بالحياة، وإحساسها العميق الصادق، وذكائها الوضَّاء، وروحها الشفَّافة، وأنوثتها، تحرص على أن تمارسها بعفَّة واتِّزان.* لم يضع في حسبانه أنَّه كان يريد شيئًا، أعطيته لجوزيف، وكنت عاجزة أن أمنحه إيَّاه، لا أدري السبب، ربَّما لأنَّه كان يقينيًّا في كلِّ شيء. لم أجد في العقَّاد هشاشة العاشق، ولكنْ ملمسًا من حجر وصوَّان. لم يتخطَّ الأفكار التي نبت عليها. الكتابة هشاشة دائمة، لكنَّها أيضًا صنعةٌ الإحساسُ فيها قد يكون محدودًا.

لا أشعر أبدًا أنِّي أخطأته يوم تركته. فهو في النهاية رجل شرقيّ لن يتغيَّر، وإذا تغيَّر فسيكون ذلك بصعوبة كبيرة ولكنَّه في أوَّل هزَّة، بدل أن يراجع نفسه، يعود إلى اللحظة الأولى التي تظنّ أنَّه تخطَّاها.

وقصاصات سلامة موسى لم تكن أكثر رحمة.

لماذا يكذبون عليك أيُّها الربّ في سموِّك العالي؟ هل يظنُّون أنَّك لا تعرف شيئًا؟

كانت صورة مي في ذهني عندما ذهبنا لزيارتها، لا تزال صورة الفتاة الجميلة الحلوة التي تضحك في تدلُّل، وتتحدَّث في تأنٍّ عن النزعات والمذاهب الأدبيَّة أو الفلسفيَّة. ودققنا الجرس، فخرجت لنا امرأة مهدَّمة كأنَّها في السبعين، قد اكتسى رأسها بشعر أبيض، مشعَّث، وكان وجهها مغضَّنًا، قد تقاطعت فيه الخطوط، وكان هندامها يبدو مهملًا.. وظننت لأوَّل رؤيتها أنَّها الخادمة. وانتظرت كي تنتحي وندخل، ولكنَّها لم تنتحِ، وغمزني صديقي، وهو يهمس بصوت أعتقد

أنَّها سمعته: الآنسة! وسلَّمت وأنا مثلَّج من الخجل. ودخلت أجرّ قدمي وقعدت إزاءها وأنا أفكِّر في هذه المأساة. أين شبابها؟ أين حلاوتها؟ . . . لم أعرف أنَّ مي الجميلة، الرشيقة، خالدة الشباب، قد استحالت إلى عجوز، ولم يبقَ لها من جمالها إلَّا الذكرى. وقعدنا نتحدَّث، وجعلت تلومني لأنِّي لم أسأل عنها، وتدفَّقت دموعها كما لو كانت ميازيب. . وجرى بكاؤها في تشنُّج كأنَّها تلتذّه، ثم هدأت وأشعلت سيجارة، وجعلت تدخِّن وتنفخ دخانها على مداعبة، لأنِّي أكره الدخان، وهنا استولى عليها الطرب، فشرعت تضحك في إسراف يزيد على إسرافها في البكاء. وكانت تتشنَّج بالضحك كما تتشنَّج بالبكاء. وتكرَّر هذا منها، ضحك فبكاء. . مع إسراف في الاثنين.

يبدو أنَّ فصل العصفوريَّة سيستمرّ حتى الموت.

مع أنِّي أحببته كثيرًا وكنت وراء توظيفه في جريدة الوالد، بدون أن أنتظر منه شيئًا، لكنَّ ذلك كلّه لم ينفع في شيء. كان كما البقيَّة، يجد ضالَّته في الكلام الثقيل والإصرار على الجنون، بدل الاعتراف بخطأ النسيان. نعم لُمته من قلبي كما نلوم صديقًا، لكن كان يجب أن يصمت، أفضل له ولنا جميعًا.

شيء في هذه الحياة مش على بعضه. هل أنا المذنبة لأنَّ رؤاي مضبَّبة، أم الآخرون الذين كلَّما التفتوا، لا يرون إلَّا أنفسهم في المرايا المعشَّقة بالألوان التي يشتهون.

أستقبل مَنْ، وأترك مَنْ؟ أحبّ مَنْ؟ وأُعادي مَنْ؟ عندما كنت أنزف وحيدة في محرقة العصفوريَّة، الأطيب منهم التفت صوب الفراغ، الآخرون وجدوا فرصة كبيرة لطحني بقوَّة وبلا رحمة. طٰه

حسين يقسم برأس كلّ أساتذته العظام وعلماء النفس أنَّه رآني غير طبيعيَّة، وأنِّي أسير حثيثًا نحو الجنون. ومصدر ذلك، ليس عبقريَّةً قد تُصيب العباقرة من المثقَّفين، ولكن أزمة نفسيَّة كبيرة جرَّتها إلى العصفوريَّة. ونسوا أنَّ الجرائد لا ترحم مطلقًا.

القليلون مَن صمتوا، وتمنُّوا الخير والحقّ في المطلق.

ـ ٢ ـ

هبَّت نسمة باردة، فتعالت لها ستائر البيت عاليًا.

أشعر بإنهاك غير محدود كأنِّي أحمل على ظهري ثقلًا مضنيًا. لا رغبة لي في الأكل إلَّا للعيش لا أكثر. حتى جسدي الذي استعاد نشاطه بدأ ينحف شيئًا فشيئًا.

أشعر برغبة كبيرة للنوم ونسيان كلّ شيء، حتى نفسي.

لا أحد منهم مدَّ يده نحوي لإخراجي من القهر.

عندما أعبر تفاصيل حياتي لا أرى الشيء الكثير سوى أنِّي بقيت أنا.. تلك الصغيرة الضعيفة الحائرة وسط المعضلات والرزايا. ولم يفتأ ذلك الوحي المعذَّب يهمس فيَّ سُورتَه، وذلك الاحتياج المتوهِّج يُضرم فيَّ نارَه، ففهمت أمرًا آخر وهو أنَّه حيث تكون العاطفة متيقِّظةً، مرهفة، فهناك النزاعُ الأليم، والاستشهادُ العظيم، وإذا رافقتها الأنفة وشرف السكوت على الحروق، والكروب، فهناك مأساة الصلب تتجدَّد مع الأيَّام. وقفت عند كوَّة الحياة لا أدري لماذا أقف، ومن ذا أوقفني هناك؟ وإذا بالناس في السبيل يمرُّون، فأخذت أتفحَّص الوجوه منهم والحركات، لعلِّي أعثر على ما يجعلني مختلفةً عنهم، ويجعلهم هم

مختلفين عنِّي، ولعلِّي أُدرك ما هذا الذي يُطلب منِّي على الرَّغم من حداثتي، وحيرتي، وجهلي، وقلَّة اختباري. فصرت أُعجب بالناس، وأغبطهم على ما لديهم، وليس لي أن أفوز بمثله، وأتعزَّى بمظاهر الكآبة عندهم، لتكون تلك المظاهر صلة ولو واهية بيني وبينهم، على أنِّي لم أزدد إلَّا شعورًا بحيرتي وعجزي، لم أزدد إلَّا شعورًا بأنِّي خيال لا ضرورة له، إزاء تلك الأقوام الفرحة الضاحكة، مع أنَّ هذا الخيال يطلب منه شيء كثير لا يدري ما هو.

فظننت لحظة أنِّي وصلت إلى قرارة اليأس، وأنِّي شربت كأس المرارة حتى الثمالة.

ثم أوحى إليَّ بأنَّ هناك وجودًا غير ملموس يُدعى السعادة ينتظرني في أفق غير معلوم.

شعرت باحتياج محرق إلى التعرُّف إليها والتمتُّع بها، ففهمت أنَّه ليس أقسى على النفوس في انفرادها وسكونها وعجزها، من تلقِّي ذلك الوحي العنيف والشعور بذلك الاحتياج العميق. وها أنا ذي أسير في أطراف مرقص الحياة، معانيةً ما يُعانيه مساجين الوجود جميعًا. يبرح بي وإيَّاهم الشوقُ إلى السعادة، وأتلقَّى مثلهم ذلك الوحيَ المتجدِّد بوجودها، وعند كلّ خطوة خيبةٌ وكمد، وعند كلّ خطوة أملٌ وجذل، وعند كلّ خطوة روعةٌ حيال هذا السيل الحيويّ الذي يتدفَّق مرغيًّا مزبدًا إلى حيث لا يدري. وعند كلّ خطوة استفهامٌ لا جواب له عن معنى الحياة وغايتها، عن معنى الألم وغايته، عن معنى الطرب وغايته. وعند كلِّ خطوة سؤالٌ للكون، لماذا وُجدت النفس الإنسانيَّة كالنحاس المجوَّف، تُرجِّع لكلِّ صوت يقرعها صدًى رنَّانًا عميقًا وجيعًا.

يااااه، كم من الحنين راح هباءً، وكم من شوق أخطأ طريقه، وكم من سعادة أُجِّلَتْ حتى شاخت.

ـ ٣ ـ

عودي إلى مصرَ مثلَ الشمس ساطعةً تـزجـيـن ضـيَّـك آيـاتٍ وعـرفـانـا
قـد حـزنّـا لـبُـعـدٍ طـالَ مـوعـدُه وكـم حَـسَدْنـا عـلى الأيَّامِ لـبـنـانـا

لو كنتَ تدري يا أستاذ طاهر الطناحي مقامَ حبِّي لمصر؟

كلماتك تدفِّئ القلب لكنَّها لا تكفي. هنا أيضًا خانني أصدقائي الكبار. لا أحاسب أحدًا، ولا أظلم أحدًا. فأنا جدّ منهَكة.

محاضرتي في الجامعة الأميركيَّة[1] كانت باردة، ربَّما لأنَّ محاضرة بيروت كانت في الأذهان، لأنَّها أنجتني من نهاية مأساويَّة. أعادت لي ثقتي الضائعة في نفسي أوَّلًا، وفي المحيط ثانيًا.

وصلت إلى القاهرة منهَكة إلى حدٍّ كبير. كنت خارج كلّ الدوائر، في دائرتي فقط. سعالي الذي زاد كان يقلقني. نوباته كثرت وتتعبني. استعملت كلّ الأدوية التي توفَّرت لي، لكنَّه لم يخفّ إلَّا قليلًا. ربَّما كان السبب الأيَّام القاسية التي مضت ثقيلة عليّ وصعب عليّ تحمُّلها. أضف لها رطوبة العصفوريَّة التي لم أتعوَّد عليها. أمكنة يدخلها الإنسان سالمًا، ويغادرها مريضًا، إذا كُتِب له أن يخرج منها. كامي كلوديل قضت عمرًا بكامله، ولا أحد يضمن خروجها يومًا. عندما رأيت بعض صورها في مجلَّة الفنون الفرنسيَّة التي جاءتني بها

(١) محاضرة ألقتها في الجامعة الأميركية بالقاهرة في ١٩٣٩، بعد وصولها إلى مصر بفترة قليلة.

بلوهارت، لم أعرفها. أدركت كم أنَّ قسوة المكان امتصَّت فرحها.

توقَّف السعال في أعالي الجبل في الفريكا. ثم عاد ثانية في شكل نوبات متتالية تستمرُّ طويلًا. خفت حقيقة أن يكون مرض السلّ الذي انتشر بشكل مخيف في لبنان وبلاد الشام، لكنَّ الأطبَّاء بما في ذلك أطبَّاء العصفوريَّة طمأنوني. قالوا مجرَّد زكام عابر ولا يوجد ما يُقلق، ثم إنَّه لم يعد مرضًا مستحيل العلاج في حالة وجوده.

عندما غادرت المحاضرة في الجامعة الأميركيَّة المحاذية لبيتي في القاهرة، طلبت أن يُخرجوني من الباب الخلفيّ، لم تكن لديَّ أيَّة رغبة لرؤية أيٍّ ممَّن كنت أعرفهم. رأيت بعضهم في القاعة.

رطوبة البيت كانت صعبة التحمُّل. ثقيلة. لا يمكنني أن أمنح لنفسي بيتًا أفضل من هذا. بحسب إمكانيَّاتي. فقد خسرت كلّ شيء، وسرقوا منِّي عرقي وعرق والدي. كان عليّ أن أُعيد ترتيب كلّ شيء.

قضيت أسبوعًا وأنا أنظِّفها وأغسل أرضيَّتها المثقلة بالغبار. أوَّل ما دخلتها، شعرت بالاختناق، كأنَّها لم تُفتح منذ زمن طويل. كنت سعيدة أنَّ الفصل القاتل انتهى، وأنِّي في حياة أخرى لا أعرف شكلها ونظامها، لكنَّها كانت شيئًا آخر.

عندما سألت طبيبي، الدكتور محمود، عن ضيق تنفُّسي وإحساسي من حين لآخر بالاختناق، ونوبات السعال المرفَقة أحيانًا بخيط من الدم، قال:

ـ يا آنسة مي، مَن مرَّ بما مررت به، تبدُ له هذه الأمور ثانويَّة، ويكون متقبِّلًا لكلِّ الأقدار. كويِّس أنَّك رجعت إلنا بخير. من يدخل إلى العصفوريَّة، لا يخرجْ منها كما دخلها. إذا خرج، فمباشرة إلى المقبرة.

ـ لكنّي أشعر حقيقة بضيق في تنفُّسي يا دكتور، وبالسعال يزيد حدَّة لدرجة الاختناق. أتقيَّأ الدم أحيانًا.

ـ هذا ربو في أولى مراحل تكوُّنه، خفيف، مصحوب بالتهاب رئويّ عابر، مع شويَّة أدوية يروح. لكن أرجوك يا آنسة مي، قلِّلي من التدخين، فهو عامل مساعد على المرض.

ـ وماذا أفعل بلا تدخين؟ كنت خايفة من مرض السلّ، فقد قتل الكثيرين. مجرَّد ربو، هذا يريحني دكتور محمود.

كلامه منحني شهيَّة لسيجارة أخرى. اعتذرت منه للحظات.

الأمر الغريب، الكلام الذي قاله لي الدكتور محمود، هو نفسه الكلام الذي قاله لي الأستاذ خليل الخوري، عندما انتابتني موجة سعال طويلة في بيته وأنا برفقة بلوهارت.

جاءني وجه الأستاذ خليل الخوري وأنا غارقة في أوجاعي، بطيبته الكبيرة، واقترح عليّ أسبوعَ راحة عنده، في بيت مليء بالنور، يدخله الهواء من كلِّ الجهات. لم يطلب منِّي شيئًا سوى أن أرتاح. يضحك مثل طفل، ناسيًا كلّ من يحيط به.

ـ ما بدنا عصفوريَّة ثانية يا مي، الله يرضى عليك. أنت هَوْني في بيتك يا قلبي، مش ضيفة. إذا ما بتشعري براحة وأمان، مو ملزمة بالبقاء. نحنا منحبّك، بس.

ـ وَلَوْ أستاذي الكريم. أنا ممتنَّة كثيرًا. وجدّ سعيدة. وبعدين لا يمكن لعاقل أن يرفض هذا المكان المدهش؟ سأكون مجنونة حقيقي لو رفضته. وأنا صرت عاقلة، ما شفت؟ كلّ الرهان كان على العقل، وها أنا ذي قد استرجعته.

ـ عوافي عليك. عاقلة ونصّ ورُبعين هههه، وأمامك عمر جميل لمواصلة جهودك الكتابيّة.

ـ إن شاء الله ولو أنّي أصبحت أشعر بنفسي مفرغة كلّيًا من الداخل.

ـ طبيعي. طبيعي جدًّا بعد هذا الفصل الظالم.

ـ ظالم بحقّ. في بلد آخر كان سيُحاكَم المتسبّبون في أذاي. لكن. . . نحتاج إلى زمن آخر لكي يصبح القضاء عادلًا في بلداننا الممزّقة التي سُرق منها حتى الحقّ في الحلم.

ـ كان بدّي أسألك عن شي يا مي. أنا ما انتبهت، لكنّ الصحافة كتبت أنّ الدكتور جوزيف زيادة كان حاضرًا، على الرّغم من أنّه رفض الدعوة وقال إنّه لن يحضر. يُقال إنّه عندما رأى تصفيقات الإعجاب في الويست هول، غادر المكان بسرعة، برفقة شخصين كانا معه. لماذا جاء؟ هل كان يريد أن يعتذر؟ بعدين المفروض يستحي على حاله.

ـ لا علم لي حقيقة. نعم رأيته يتخفّى كالسارق بين شخصين. لكنّ الذي حدث معي كان غريبًا. لأوّل مرّة أخرج من القاعة وأنا بلا جوزيف في داخلي. لأوّل مرّة لم أكن حزينة على فقدانه الأبديّ. لأوّل مرّة أيضًا رأيت بياضًا يحتلّ وجوده كلّيًا وكأنّه لم يكن هناك. عندما غادرت الجامعة الأميركيّة وحاولت أن أتذكّر قَسَماته التي بدت مشدودة في القاعة، لم يحضرني شيء منها، سوى ملامح ممسوحة، عوّضها فراغ أبيض.

ـ يحدث هذا لمّا يكون القلب مثقلًا بالخيبة.

ـ الأمر ثقيل جدًّا يا سيِّدي الكريم. تقف ضدَّ مَن عندما يعاديك المجتمع كلّه، حتى الذين ظننتهم أصدقاء أعزّاء؟ أين رجال الأدب في لبنان؟ أين رجال القانون؟ أين الجمعيَّات النسائيَّة؟ أين نصيرات المرأة؟ ألم توجد بينهنَّ واحدةٌ تدافع عنِّي أنا التي قضيت السنين الطوال أدافع عن حق المرأة، ووقفتُ قلمي على خدمة بنات جنسي، ورفع مستواهنّ، وردِّ الظلم عنهنّ؟ أجل، أين هؤلاء وأولئك؟

ـ كلّ الذين قرؤوك يا مي يعرفون هذا جيِّدًا.

ـ أستاذ خليل، هل يُعقل أن ينسى الإنسان بهذه السهولة؟ أين لبنان، لبنان الذي طويت ضلوعي على حبِّه؟ لبنان الذي تغنَّيت في الجرائد والكتب والمجلَّات ومن فوق المنابر، بجماله، بجباله، ببنيه. لبنان الذي ما حلَّت به محنةٌ، إلَّا انهمر الدمع من عينيّ. أيّ لبنان هذا، الذي لم يوجد فيه واحد يبكي على محنتي التي انطوت على محن كثيرة؟ تلك هي مكافأة لبنان لابنته مي: إهمال مفجع، وتَغاضٍ مخجل عن أحطّ مؤامرة جاءت بي من مصر، وألقتني مدَّة سبعة شهور في العصفوريَّة، أتفرَّج في النهار على مواكب النساء العاريات، وأسمع ألفاظًا ما كنت أعلم أنَّها موجودة، وأنَّ في البشر مَن يتلفَّظ بها، وأسمع في الليل عواءَ الذئاب.. أسمع وأرى كلّ هذا، وليس هناك من يسمع صوتي، يرى محنتي فيبادر إلى إنقاذي. سبعة أشهر قضيتها في العصفوريَّة، على هذه الحال، وفي تلك الغمرة من الألم واليأس والعذاب، من دون أن يهتزّ عرق بالشفقة، أو لسان بالسؤال. ولهذا اسمحوا لي سيِّدي الكبير، خليل خوري، بأن أكون صادقة، وأقول بكلِّ ألم، وبكلِّ أسف، وخجل أيضًا، أن أردِّد، وأنا على تلك الحال في كلِّ يوم وفي كلِّ ساعة: *لعنة الله على لبنان*.

ـ لا يا مي. لا حبيبتي، هذا لا يشبه قلبك السموح. لبنان أكبر من هيك بشر.

ـ قلت إلّلي حرق قلبي. أعرف عزيزي أنَّ كلّ جوّاتك على هذا البلد. وقلبي أيضًا. وأنت تعرف ما يعنيه لي لبنان ولوالدَيَّ المرحومين. حياتنا كلّها كانت له، ولخيره ولحبِّه. تعذَّبت لدرجة فقدت عقلي من صمت البشر على الظلم.

لم أستطع يومها، كتم دموعي التي ساحت بغزارة. أخرجت منديلًا صغيرة، هو في الأصل لأمّي، لم يفارقني طوال حياتي، وما تبقّى منها. غريب، شعرت لحظتها بيتم كبير، احتلّ جسدي كلّه، ومخّي ومفاصلي. وبدت لي جراحاتي الكثيرة وكأنَّها انفتحت دفعة واحدة. كان الدم يسيل وكأنّي المسيح بعد أن أُنزل من على خشبة الصلب.

ـ لا تبكي يا مي. أنت أكبر، والحقُّ في النهاية عرفَ أهلَه. انتصر على الكلّ. لم يعد لك دَيْن على أحد.

ـ نعم يا سيِّدي، لقد كنت ألعن وطني، وعندما يلعن المرء مَن يحبّ، يكون الألم واليأس قد وصلا إلى الأقاصي. كنت أتساءل وسط حرائقي المعزولة، هل يُعيد الدمع المدرار، إلى ضلوعي، أقدسَ مكنوناتي العاطفيَّة لأرضي وناسي ووطني، ولبناني؟

شعرت بارتجاف يدي وأصابعي وأنا أضع السيجارة السابعة والأخيرة في فمي، ثم غرقت في موجة من السعال تشبه الغصَّة، لم أكن قادرة على توقيفها لدرجة أنَّ حَضَنَ الأستاذ خليل وبلوهارت يدي. وناولتني بلوهارت كأسًا من الماء حتى خفَّ عليَّ السعال. ثم

أعطتني ملعقة السيرو الذي منحه لي الطبيب.

سمعت تمتمة الأستاذ خليل التي أصبحت واضحة:

ـ أبناء الكلب. لا بدَّ من أنَّ رطوبة المكان أثَّرت على صدرك.

في الثانية التي أغمضت فيها عيني، رأيت كلبًا ينهشني. كان له وجه جوزيف.

ناولتني بلوهارت بقيَّة دوائي وطلبت منِّي أن أستريح قليلًا قبل السفر.

وأنا أقوم للذهاب إلى غرفة النوم، والاستعداد لرحلة القاهرة بعد أيَّام قليلة، قال الأستاذ خليل وهو يحضن كفِّي.

ـ لازم نشوف لك طبيب متخصِّص في آلام الصدر قبل سفرك. سعالك ما مريِّحني، ثقيل وبه مخاط كثير. في انتظار ذلك، قلِّلي من التدخين، فهو هالِكٌ سرِّيٌّ للصحَّة.

عندما فتحت عينيّ كان الدكتور محمود ما يزال متسمِّرًا في مكانه يتأمَّلني.

ـ صحَّتك تحتِّم عليك ذلك.

ـ هههه سأكذب عليك دكتور أنت أيضًا، كما كذبت على أحبَّتي في بيروت، بالخصوص الأستاذ خليل الذي رعاني في بيته قبل سفري إلى بيروت، وأقول إنَّها آخر السيجارات؟

ـ لست مضطرَّة للكذب يا آنسة مي. أعرف شيئًا ممَّا تعانينه.

وقع كلمة الدكتور محمود أيقظني نهائيًّا من غفوتي.

فقد نسيت الطبيب كلِّيًا. نبَّهني بلغة فرنسيَّة أنيقة، فهو خرِّيج جامعات ومستشفيات باريس.

ـ آنسة مي نحن هنا، لا تروحي بعيد؟

ـ كنت في بيروت مع صديق عزيز. وكنت أفكِّر في حالة التسمّم. لماذا لا يكون أقاربي قد دخلوا إلى بيتي ووضعوا السمّ في أكلي؟

ـ لا أعتقد. ليست علامات التسمُّم. التقيُّؤ قد يكون سببُه أيضًا خواءَ بطنك؟ أنت لا تأكلين شيئًا. عليك أن تنسي ذلك الفصل القاسي. ليس وراءك أحد. أنت في مأمن الآن.

ـ كنت مع رجل جميل القلب. أكرمني بحبّه.

ـ تحتاجين إلى بعض السَّكِينة.

ـ رايحة لإيطاليا. بحبّها كثيرْ.

ـ نِعْمَ الفكرة. لازم تخرجين من الدوائر التي تقلقك. أعطيك أدوية مسكِّنة للسعال. ومضادًّا حيويًّا، للالتهابات الصدريَّة، وإن شاء الله كلّ شيء يكون بألف خير.

ـ شكرًا دكتور.

عند الباب وقف يودِّعني.

ـ سافري. لا تتردَّدي. أنت بحاجة إلى ذلك. الحياة جميلة وتستحقّ أن تُعاش.

رأيتني في اللحظة نفسها أهيِّئ حقائبي وأستعدّ للسفر من جديد. أستعيد كلماته الأخيرة: الحياة جميلة وتستحقّ أن تُعاش.

ـ ٤ ـ

كانت سفرة إيطاليا جدّ شاقَّة، وغير مفيدة.

وضعت الحقائب في الزاوية الخلفيَّة للبيت. لأوَّل مرَّة لا أفتحها وكأنَّها السفرة الأخيرة.

رحلة إيطاليا لم تكن بالجمال الذي أردته. ولم تكن سيِّئة أيضًا بالسوء الذي تصوَّرته.

كنت فيها كمحكوم عليه بالموت الحتميّ، جاء ليودِّع الأمكنة التي أحبَّها، أو تلك التي تحمل ذكرًى بطعم الفرح مع شخص لم يغادر ذاكرته.

السعال لم يتوقَّف، بل زاد قوَّة وتمزيقًا لصدري.

بدأت أرى من حين لآخر خطوطًا حمراء تخترق كتلة المخاط الصفراء.

كان يجب أن أنسى كلّ شيء. كلّ شيء بلا استثناء. العودة إلى بيتي في القاهرة كانت حلمًا. ها أنا ذي قد حقَّقته، لكن قلبي ما يزال مثقلًا بالرياح الساخنة والدم الفاسد الذي تجمَّد وتكتَّل حتى أصبح جزءًا من الجسد.

أعدت غلق أبوابي في وجه الكلّ. لم أعد بحاجة إلى أيِّ شخص. مال قلبي تجاه كلّ ما نصحتني به أمِّي، أبونا والعذراء. بدأت أجد فيهما بعض الراحة.

أغلقت الأبواب والنوافذ ولم أعد أستقبل أحدًا.

رنَّ التليفون فجأة. عرفته من صوته الذي يفخِّمه أكثر رغم ثقله ليدهش به مستمعه.

ـ أستاذنا الكبير، طٰه حسين.

ـ الحمد لله على سلامتك. سُعدنا بعودتك ظافرة منتصرة، الحقُّ يظلّ حقًّا ولا يتغيَّر مهما كان انعكاسه على البشر. والشرّ شرّ أيضًا، لا يتغيَّر.

ـ أيّ ظفر وأيّ انتصار؟ هذه فلسفة تتجاوزني يا دكتور. كلّ ما أعرفه هو أنَّهم يوم حاكموك بسبب كتابك *في الشعر الجاهلي*، لم أتفلسف كثيرًا. عقدنا ندوات في الصالون، وحشدنا الناس، واخترت صفّك مع نخبة قليلة من الأصدقاء. يوم طردوك من الجامعة لم أفكِّر عندما أتاني لطفي السيِّد بالعريضة. لم أسأل، قلت هذا أستاذنا، وله حقٌّ علينا. يستحقّ كلّ التقدير والوقوفُ بجانبه واجبٌ، كيفما كانت النتائج والخسارات. وقبلت في النهاية أن أخضع للحجز يومين، وتحمَّلت الاستجوابات الأمنيَّة.

ـ حكاية قديمة يا مي.

ـ لأنَّها قديمة، أذكِّرك بها.

ـ نحن هنا، في أرض الكنانة، فرحنا لك، يوم سمعنا أنَّك غادرت العصفوريَّة بسلام. رأينا في حجزك ظلمًا كبيرًا ضدَّ كاتبة منحت قلبها وحياتها لبلدها لبنان.

ـ لا سيِّد طٰه حسين. أعطيت كلّ شيء لبلدي مصر. أنا شاميَّة صحّ، لكن هذه البلاد أعطتني كلّ شيء وأنا عدت لأموت فيها وأصطفّ بجانب والدي وأمِّي.

ـ قصَّة طويلة دي حكاية الشوام في مصر. المهمّ. ممكن

نخصَّص لهذا أمسية في صالونك.

ـ الصالون توقَّف من زمان يا سيِّدي الفاضل.

ـ طيِّب. خلِّينا نعرف نحكي شوي. هل يمكن تحديد موعد لرؤيتك. حابب أسمعك عن قرب.

ـ كيف تخسر وقتك الثمين على امرأة فقدت عقلها بسبب عصاب مزمن لاحظه فيها الجميع، لكن لا أحد نصحها. كانت تتنرفز بسرعة. ألم تصرِّح بهذا، في بعض الصحف المصريَّة واللبنانيَّة يا دكتور؟

ـ الكلام ضُخِّم قليلًا. لم أقل هذا. قلت كانت متعبة شوي وتحتاج إلى قسط من الراحة، ووضعها يمكن يكون تعقّد لا أكثر. ثم إنَّ العصفوريَّة يدخلها الإنسان مجنونًا، يخرج منها عاقلًا.

ـ ويدخل إليها الإنسان عاقلًا، يغادرها مجنونًا. أتمنَّى لكلِّ أصدقائي الذين نسوني، ليلةً تدريبيَّة واحدة في العصفوريَّة فقط. وبعدها نحكي.

ـ تعرفين يا آنسة أنَّ بعض الجرائد تغالي. اللقاء المباشر يصفِّي الأشياء. هل تذكرين كيف تذكَّرت حماسك وأنت تقفين ضدِّي في ندوة المرأة والحضارة؟ كنت متطرِّفةً في موقفك. مع أنِّي لم أقل إلَّا ما تؤمنين به. نحتاج إلى جهود الغرب للخروج من تخلُّفنا وبؤسنا. وصفَّينا الأمر بنقاش جميل في صالون الثلاثاء.

ـ يا سيِّدي العميد، أنا منقطعة عن كلّ شيء، بالخصوص أصدقائي. الصالون توقَّف من زمان. يبدو أنَّك غير متابع.

ـ أسفار كثيرة. حابب أشوفك، ماذا أعمل؟

ـ لا شيء. إذا أحببت أن تشوفني بسيطة. أنا هذه الأيّام لا أرى إلّا القساوسة. كن قسّيسًا وتعالَ. ولا بأس أن أراك بعدها. أنا أُقدِّر جهودك العلميَّة ومسارك العظيم الذي تخطَّيت من خلاله كلَّ المصاعب.

ـ ههه. عزيزتي مي، يؤسفني أن لا أكون قسّيسًا.

ـ ولماذا لا تكون قسّيسًا؟

ـ إنَّك تطلبين المستحيل.

ـ لماذا يا دكتور؟ بجلالك تستطيع أن تفعل ذلك.

ـ لا أصلح لذلك. ثم مش ضروري.

أقفل التليفون، ولم يتَّصل بعدها أبدًا.

ـ ٥ ـ

أكتب.

أكتب، إذًا أنا ما زلت قادرة على الكتابة لأعلن إرادتي التي لن يتغيَّر فيها، لو حدث لي ما يحرمني من الكلام.

أكتب بلا هوادة.

عيناي تدمعان. أشعر بتعب كبير، وأجد صعوبة كبيرة في الجلوس على الكرسيّ.

شيء فيَّ بدأ ينطفئ ويصبح ثقيلًا ككتل الرصاص. لكنِّي أُصرّ على الكتابة حتى النهاية لأنسى ليالي العصفوريَّة الطويلة. أنسى كلّ ما كان يشلّني. فقط لأستمرَّ في الحياة. لم تعد القاهرة تلك المدينة التي

كنت أتنفَّسها. المدن ليست كتلًا حجريَّة، لكنَّها بشر يعيشون معنا، ويتنفَّسون هواءنا. يتألَّمون ويفرحون لنا.

ما شاهدته في الحمَّام عندما سعلت كثيرًا وبصقت كتلًا من الدم المتجمِّد، أخافني. فأنا هشَّة مثل ريشة في مهبّ الخوف الدائم من شيء غامض، أحسّه ولا أراه. لا أريد أن أفكِّر في الأسوأ. ربَّما التهاب حلقي هو السبب. الدواء الذي شربته، أراحني كثيرًا، ولكن ليس لمدَّة طويلة، ثم إنَّ الطبيب ذكر أنَّه يمكنه أن يتسبَّب في نزيف صغير. كان عليَّ أن أؤمن أنَّه لا خوف.

لست مستعدَّة لأعيش دوَّامة جديدة.

عزلتي لم تعد تطيقني أو لم أعد أطيقها، وأصبح من الصعب عليَّ تحمُّل الناس الذين يتلوَّنون مثل الحرباء.

سعلت كثيرًا اليوم السبت لأنِّي مشيت في المدينة مدَّة طويلة، باتِّجاه الكنيسة. رأيت حركة الناس وهم يركضون نحو مختلف المعابد. لم أستطع السير براحة كما تعوَّدت. فقد انقطع نَفَسي.

أسرعت الخطى إلى أن وصلت إلى الكنيسة. وجدتني أقرأ كلّ ما سكن في قلبي. في الأعماق السخيَّة والهادئة.

سجدت على ركبتيَّ وتمتمت: *ربِّي وإلٰهي إنَّها إرادتي الثابتة في أن أكرِّمك وأمدحك وأعبدك لأجل آلامك الخمسة عشر السرِّيَّة، ودمك المسكوب، على قدر ما في الشواطئ من رمال، وتراب الحقول وأعشاب الأرض كلّها وأوراق الأغصان. على قدر ما في الحقول من أزهار وما في الأفلاك من كواكب وما في السماء من ملائكة وما على الأرض من خلائق. على قدرها ألوف المرَّات، فلتُعبَد، ولتُمدَح،*

ولتُمجَّد، يا ربّي يسوع المسيح. اجعلني مع جميع البشر نمدح ونحبّ ونمجِّد قلبَك القدُّوس، ودمك الثمين والذبيحة الإلٰهيَّة المقدَّسة، والقربان الأقدس، والفائقة القداسة مريم العذراء. والمراتب الملائكيَّة التسع، وجمهور القدّيسين من الآن وإلى الأبد. آمين.

أرغب كثيرًا يا يسوعي الحبيب أن أشكرك وأخدمك وأرضيك وأعوِّض عن جميع الإهانات الملحقة بك. وأن أصير خاصَّتك جسدًا ونفسًا. أريد كثيرًا أن أتوب عن خطاياي وأطلب منك يا إلٰهي الغفران والرحمة كما أنّي أيضًا أتوق إلى أن أقدِّم استحقاقاتك اللامتناهية إلى الأب الأزليّ كفَّارة عن خطاياي وقصاصاتي المستحقَّة. أقصد بثبات أن أغيِّر حياتي وأسألك أن تجعل ساعتي الأخيرة سعيدة وبسلام. أصلّي أيضاً طالبة خلاص النفوس المتألِّمة في المطهر. أشتهي أن أجدِّد مديح الحبّ هذا والتعويض كلّ ساعة من النهار والليل بأمانة إلى آخر نسمة من حياتي. أسألك يا يسوع الصالح والمحبوب للغاية أن تُثبِّت في السماء رجائي المخْلِص، لا تسمح بأن يبدِّده الروح الشرِّير. آمين.

شعرت براحة كبيرة، وبنور قد غمرني كلِّيًّا. فارتحل بي نحو السماوات العالية، ولم يسألني. أخذني من الجمع، وانسحب. هكذا حدث الأمر معي.

تفرَّست (في) كلّ أيقونات الكنيسة المدهشة، وسكونها. لا أحد سوى السكينة التي تلفّ هؤلاء البشر بعد قرون من الزمن الذي مضى بكلِّ حنينه وأفراحه وقسوته. أتفرَّس في أوجه القدِّيسين طويلًا. أرى شيئًا غريبًا في ملامحهم الهاربة كأنَّها تشبهني أو أشبهها، تلك أنا. أنا

المرأة التي دخلت الكنيسة وهي ملفوفة ومتنكِّرة في الساري الهندي الذي أهداه لي السفير الهندي يوم زيارته للصالون الأدبيّ. كان برفقة ابنته دنيا، دمية من النور وألوان الجنَّة. سمعت لاحقًا أنَّها تركت كلّ شيء، واعتذرت من والدها برسالة تركتها عند رأسه، وهربت مع عسكريّ إنجليزي إلى لندن. هربت نحو قدرها الصعب، وهي لا تعرف ماذا ينتظرها، لكنَّها سارت في المسلك السرِّي الذي كان في طريقها وينتظر وصولها.

العالم كلّه كان رجراجًا تحت قدمَيّ، كأنِّي كنت أمشي على حصير من إسفنج.

أسمع دقّ النواقيس التي كانت تعلن عن شيء ما، ربَّما توقُّف حرب عالميَّة طال أمدها، كما الأولى.

فقد غيَّرت كلّ شيء، في الخرائط، والإنسان.

أرى كاتدرائيَّة مدينتي في الحيّ القديم في الناصرة تدعوني نحوها. وأسمع آذان الجامع الأبيض الذي يهزّني كما يهزّ طفل صغير في عزِّ نومه وهدأته.

أفكِّر في العودة، لكنِّي متعبة.

أركب سيَّارة أجرة. أعود إلى بيتي الذي لم يعد يشبهني.

أشعر بالوهن، لكنِّي لا أتوقَّف عن الكتابة مطلقًا.

مضى الوقت بسرعة غير محسوبة.

أرى الساعة. منتصف الليل. السبت ١٨ أكتوبر، من سنة ١٩٤١. كلّها تفاصيل صغيرة، ترسم علاماتِ يومٍ مرتبكٍ. كان نهار آخر يفتح جفنيه بصعوبة، وثقل.

تتثاقل الأشياء في يدي، ويبهت نظري شيئًا فشيئًا. أصغي قليلًا إلى قلبي الذي فقد اتِّزانه. يرتجف القلم بين أصابعي. أحاول أن أكتب. يزداد الخفقان. أرى أمِّي مرَّة أخرى. يخرج من صدري صوت مشروخ ومرتعش. يزداد الخفقان مصحوبًا بسعال جافّ، أجد مشقَّة كبيرة في التنفُّس. أقوم من مكاني بصعوبة. أضع قلمي على الورقة حيث وصلت، وأشعر للمرَّة الأولي بأنَّ جسدي يخدعني. يخذلني بشكل فجائيّ.

الخفقان لم يتوقَّف. السعال يزداد حدَّة.

تلتبس الرؤى. تأتيني الأشياء في شكل صور متقطِّعة. أسمع الأناشيد الكنسيَّة الكبيرة، تأتي من مكان بعيد. ربَّما من الكنيسة التي أزورها في كلِّ وقت، كنيسة الظاهر. ربَّما كانت تأتي من داخلي. خلفها ترتسم عواصف كأنَّها القيامة. الصور ترتجف. أسمع ذئبًا صوته يشبه صوت جوزيف، يعوي ويتضوَّر، من بعيد، جوعًا أو ألمًا، أو خوفًا.

أغمض عينيّ لكي لا أرى أحدًا.

كي لا أره هو تحديدًا.

أرفع رأسي للمرَّة الأخيرة، قبل الذهاب نحو السرير للاستسلام لراحة جسد شعرت به فجأة ممزَّقًا ومقطَّعًا وجروحه تنزف في كلِّ اتِّجاه، وتزداد اتِّساعًا كلَّما تأمَّلتها.

تجاوزت الساعة منتصف الليل بربع ساعة بالضبط. أذهب لأنام قليلًا، وأسترجع وجه أمِّي.

أقوم بصعوبة. كلّ شيء أصبح فيها ثقيلًا.

ـ *لقد حان الوقت يا أمّي.*

ـ *أيّ وقت يا ابنتي؟*

ـ *وقتي لكي أراك؟*

ـ *أنا هنا منذ الساعات الأخيرة من الليل.*

يرتعش القلم في يدي. أحاول أن أتركه ينام في حبره الأسود، ويعبر نحو الأبديَّة. أرى أمّي مرَّة أخرى بوجهها الطفوليّ، في يديها ستائرُ بيضاء من حرير، تفتحها عن آخرها منتظرة طلبي الأخير. لا تُتعِبي نفسك يا أمّي. أنا قادمة نحوك من عالم مجروح، مقيّح، مؤلم، بارد كالموت. *اغسليني فقط يا أمّي من دمي. دثّريني يا بتول القلب والروح. ضمّيني للمرَّة الأخيرة، إلى صدرك. لا أريد أن أموت في هذا البرد، في وحدة تقودني نحو العدم. أكره العدم يا أمّي.*

كأنَّها المرَّة الأخيرة التي أرى فيها كتبي المحيطة بي، كأنَّها تسافر معي في كلِّ أحلامي: *غرازييلا، دليل حلمي التائه، وصورة دوريان غراي، وباحثة البادية، الكتاب الذي أصدرته عن صديقتي الأديبة ملك حفني ناصف.*

كأنَّها اختزلت حياتي الأدبيَّة كلّها.

أغمض عينيّ. يسقط القلم من يدي. تنفتح أصابعي عن آخرها، ثم تتجمَّد. أحمل القلم ثانية بصعوبة.

أنا التي تكره الأسرّة الحديديَّة، أجدني الآن مستسلمة لسرير فولاذيٍّ ثقيل يشبه قبرًا من رصاص. ألتفت نحو الساعة الحائطيَّة

العتيقة، للمرَّة الأخيرة. يرتسم الوقت واضحًا. **الأحد ١٩/ ١٠/ ١٩٤١. الساعة ١٠ س ٥ د.**

عيناي ملتصقتان بالسقف الذي لم يكن ثابتًا. كان كأنَّه ينزل مليمترًا بعد مليمتر، كما في صالة مسرح قديم، أو أوپرا كبيرة. فجأة، ينتاب نظري نوعٌ من البياض الذي بدأ يغيّم بصري. تنزل في اللحظة نفسها ملاءاتُ الحرير البيضاء التي كانت في يدي أمي. تلفُّني ثم تلفّني، حتى تغطّيني كلِّيًا.

أسمع همهماتها الطويلة، فلا أميِّز كلمات أمِّي من وشوشة الأطبَّاء.

ياااااه، كم هي متعِبة هذه الحياة؟ شيء فيها رُكِّب بشكل غلط، يكبر فينا حتى يشلّنا، أو يقتلنا.

أغمض عينيَّ لكي لا أرى شيئًا غيره، وجه أمِّي السخيّ الذي لم يجفّ فيه حليب طفولتها. أبتسم لها بصعوبة. يتملَّكني إحساس بالتعب ورغبة لا تقاوَم في النوم. تخرج كلماتي الأخيرة التي لا أحد كان يسمعها غيري:

ـ أنا بخير يا أمِّي... ببعض الخير. اغسليني يا أمِّي من دمي، ودثِّريني بصدرك.

انتهت يوميَّات ليالي العصفوريَّة

تمَّت صباح يوم الأحد في ١٩ تشرين الأوَّل/ أكتوبر ١٩٤١

. . . أخيرًا دوَّنتك يا وجعي وهمَّ قلبي.

أين أهرب بهذا الخوف الذي سيضيف لي رعبًا جديدًا؟ لأوَّل مرَّة أجد الجرأة وأتحدَّث عن علاقاتي السويَّة، وحتى غير السويَّة بمقاييس الآخرين، عن محيطي الخادع، عن الناس الذين عرفتهم وعرفوني. تحدَّثت عن الذين أحببتهم وأحبُّوني، عن الذين ركضوا ورائي حتى تدلّت ألسنتهم. حكيتُ، عن الذين زجُّوا بي في دهاليز الجنون، وجعلوا من العصفوريَّة سجنًا كبيرًا أموت فيه بصمت، ولا أحد يسمعني. حتى النَّفَس الأخير، وبلا قفَّازات، قلت بعض ما أحرقني، وحوّلني رمادًا في ثانية واحدة. لم أنتقم من أيِّ شخص، كيفما كانت درجة أذاه لي. أعرف نفسي جيِّدًا. لا يمكنني أن أكون في رتبة مَن أخفق في أن يكون هو بحبّه وسخائه، فانتحل صورة عدوِّه، وسكن في الضغينة والأحقاد.

يحقّ لي اليوم أن أتلاشى كما الغيمةُ، داخل حبّي الذي شكّلني،

وفي عمق وهمي الذي صنعتُه، وصنعني أيضًا.

دعوني الآن أحلم فقط ولو في عمق الغياب. يحقّ لي ذلك، ولو لثانية واحدة، قبل أن أسير بخُطى هادئة نحو أبديَّة الخلاص[١].

---

(١) وُجدت هذه الكلمات مكتوبةً على ظهر مخطوطة *ليالي العصفوريّة*. يُرجَّح أنَّها لمي زيادة، كتبتْها مباشرة بعد انتهائها من إنجاز مخطوطتها، أو جزء منها، قبل أن تفقد وعيها، بين ليلتي السبت والأحد ١٨ و١٩ تشرين الأوَّل/أكتوبر ١٩٤١، الأمر الذي قادها إلى المستشفى، ثم إلى الوفاة بعد ساعات قليلة. اخترنا، أنا وروز، وضعَ هذا النصّ في آخر المخطوطة، لأنَّنا نتصوَّر أنَّه آخر كلماتها بعد الانتهاء من تدوين *ليالي العصفوريّة*. هو مجرَّد اجتهاد بعد نقاش طويل، فإذا أصبنا فلنا الأجر المُعتاد، وإذا أخطأنا فلنا بعضه.

هِيَ لَمْ تَمُتْ، لَكِنّها شُبِّهتْ لَهُم

ليلة أيلول/سبتمبر ٢٠١٧ وما تلاها

ـ ١ ـ

كانت رائحة المخطوطة حزينةً، وأنا أُغلقها.

شيء يسدّ الحلق والشمَّ، بعطر غريب هو خليطٌ أقرب إلى اللّوز المُرّ، لكنَّه ليس هو.

الذي عرفناه أنا وروز خليل، من خلال هذه الرحلة الشاقَّة، واعتمادًا على الكثير من الوثائق التي عثرنا عليها، مبعثرةً في كلِّ الأمكنة، بما فيها وثائقُ أمّ الصبايا: كان جسدُ مي منهَكًا بعد أن عادت إليها كآبتها بشكل حادٍّ. انقطعت عن كلِّ معارفها، إلَّا أسماء قليلة تعاطفت معها منذ اللحظة الأولى من الزجّ بها في دهاليز *العصفوريَّة*. عاشت عزلة قاسية. حافظت قليلًا على علاقتها بآل الجزائري، وبعض العائلات الشاميَّة العريقة، والقليل من وجهاء لبنان.

ما عرفناه، ممَّا كان مدوَّنًا في الوثيقة[1] المفصولةِ عن مخطوطة

(١) وثيقة كانت مع مجموع المقتنيات التي اشتريناها من صحراء الجيزة من أمّ =

ليالي العصفوريَّة، في شكل تقرير، هو: أنَّ مي عندما سحبت نَفْسَها بتثاقل نحو الفراش، كان دُوار ما قد أخذها ومنعها من الوقوف.

تلفنت لي ويدها ترتجف على غير العادة، وارتخى جسدها وأصبح من الصعب عليها التحكُّم فيه.

قالت وهي في حالة دوخة:

ـ لا أعرف حقيقة. أشعر بألم كبير على مستوى الصدر، بدُوار في رأسي. أرى أشياء غير مريحة، وضبابًا يلفّني ويكسو ناظرَيّ. أكاد لا أرى إلَّا سلسلة من الأشكال التي لا جسد لها، وكأنَّها هُلام في طور التكوين.

ـ ربَّما من شدَّة التعب. التعب يولِّد هذه الرؤى المتماوجة.

ـ ليس هذا ما يشغلني يا دكتور، لكنْ رأسي والدمُ الثقيلُ الذي في فمي، وضيقُ التنفُّس والخفقانُ الذي يكاد يفجِّر القلب. منذ لحظات طويلة والخفقانُ على حاله، كأنَّ قلبي يريد الخروج من قفصي الصدريّ.

ـ ارتاحي. أنا جاي. أطلب لك سيَّارة إسعاف من مستشفى المعادي. مسافة السِّكَّة فقط.

الصبايا، كانت مع رسالتين من كامي كلوديل، ووصولاتِ كهرباء، وتهديدات من أصحاب البيت بسبب التأخُّر في الدفع، وَوُضِعَت في كيس بلاستيكيّ صغير. قال مُلّاك المخطوطة وأمّ الصبايا، خذوه، ربَّما احتجتم إليه، واعطوني إلِّلي طلع بإيديكم. الوثيقة هي عبارة عن تقرير طلبه مستشفى المَعادي من الدكتور محمود، لوضعه تحت تصرُّف رجال الأمن الذين طلبوه في إطار تحرِّياتهم عن سبب الوفاة، لأنَّ بعض الصحف قالت إنَّها ماتت مسمَّمة من طرف بعض أفراد عائلتها انتقامًا من الإهانة التي ألحقتها بهم.

ـ أترك لكَ الباب مفتوحًا. لا أعتقد أنِّي سأكون قادرة على فتحه بعد لحظات.

عندما وصلتُ وفحصتها، يقول الحكيم محمود في وثيقته، كانت قد دخلت في شبه غيبوبة. لاحظت أنَّها كانت تنزف من فمها، تأكَّد لي أنَّ الأمر شديدُ الخطورة. رافقتها في سيَّارة الإسعاف إلى مستشفى المَعادي من دون تأخّر.

كانت متعَبة.

استسلمت لفراش كان *شبيهًا بالتابوت*. جملتها الأثيرة التي كلَّما انتابها ظلامُ الروح، استدعَتْها.

رفعت رأسها. لم تَرَ شيئًا. تعوَّدت أن ترى الوقت مرتسمًا على الحائط من خلال زحف الظلال وتحوُّلاتها.

سألتِ الممرِّضة بكلام متقطِّع:

ـ كم الساعة يا ابنتي.

ـ التاسعة صباحًا يا ستّ مي.

ـ ستّ مي؟ تعرفينني؟ سعيدة بذلك.

ـ مين ما بيعرف حضرتك.

قالها الطبيب والممرِّضة في اللحظة نفسها وكأنَّهما اتَّفقا على الكلام نفسه.

ارتسمت في عينيها المتعبَتَيْن حالةٌ من الفرح الطفوليّ المتعب. ثم التفتت نحوي:

ـ لولا الحكيم محمود، كنت الآن في السماء. مؤكَّد.

ـ هذا واجبه. واجبنا جميعًا.

تأمَّلتِ السقفَ بعينيها في شبه غيبوبة. يواصل الحكيم محمود في وثيقته. كانت اللحظة الوحيدة التي هدأ فيها سعالُها. ونظرت إلى جانبها، فرأت سوادًا كثيفًا. فهمت منها ومن أحاديثها، أنَّها تذكَّرت الرسالةَ الأخيرة التي كتبتها لجوزيف. ضحكتْ بسخرية. تمتمت. لم يسمع الطبيب والممرِّضة إلَّا كلماتٍ ناعمةً ومرهقة لم يفهما معناها: *جوزي... حبيبي... يااااه، كنت أحبّه. كم كنت غبيَّة.*

ثم أخفت رأسها تحت الفراش كما تعوَّدت أن تفعل في كلِّ مراحل عمرها.

بقيتُ هناك، لم أغادر المكان على الرَّغم من أنَّها كانت بين أيدٍ آمنة. كنت أعرف أنَّ علامات وجهها الذي مال نحو البياض، كانت تقول شيئًا رفضتُ أن اقرأه.

العاشرة وخمس دقائق. يوم الأحد ١٩ تشرين الأوَّل/أكتوبر، سنة ١٩٤١. فتحت عينيها للمرَّة الأخيرة. ملأتهما بالنور الذي تسرَّب من النوافذ الزجاجيَّة الكبيرة، تمتمت قليلًا بشكل يكاد يكون واضحًا كلِّيًا: *أمّي. حبيبتي. اغسليني من دمي وضمّيني إليك. أشعر بالبرد وبقوَّة غامضة تنتزع قلبي بعنف.* وعندما أطبقتهما، بدأ الدمع يسيل بلا توقُّف، صعب عليها فتحُهما، قبل أن يرتسم خيطٌ أحمرُ، رقيقٌ على طرفَيْ شفتيها. تلمَّس طبيب المستشفى صدرها. كان باردًا كقطعة ثلج.

أعقبته بالحركة نفسها. شعرت بالبرودة نفسها. برودة أعرف منتهاها كلَّما فحصت مريضًا في نهاياته، في عيادتي.

غطَّيتها ببطّانيَّة ثقيلة كانت عند قدميها.

عندما سألتني الممرِّضة، التي لاحظت حركتي:

ـ لماذا غطَّيتَها يا دكتور؟

ـ بردُ الخريف يَدخلُ العظمَ كالمسامير.

ثم التفتُّ نحو الفراغ أمسح عينَيّ من ظلٍّ كان قد غطَّاها إلى درجة أن أغرقها في الظلمة.

سمعت رنين أجراس الكنائس يأتي من بعيد.

ثم من قريب، فأقرب.

ـ ٢ ـ

لا أدري بالضبط لماذا شعرت في لحظة من اللحظات برغبة لا تُقاوَم في البكاء؟ في البداية، لم تكن مي تعنيني إلَّا كحالة بحث جامدة وباردة، لكنَّني منذ أن سافرتُ في داخلها، تغيَّر كلّ شيء. أصبحت تعنيني كأنَّها جزء منِّي.

ولا أدري أيضًا لمَ رأيتُ في آلام مي، آلامَ سيِّدنا المسيح وأحزانَه وعزلتَه القاسيةَ، وهو ينزف أمامَ كلّ الناس ولا أحد تدخَّلَ من العابرين أو الواقفين، لإنقاذه، أو تغطيةِ جسده، على رأسه تاجٌ من المسامير الصدئة والشوك، وعلى ظهره صليبُه الثقيلُ. لا أعرف ولا أجد أيَّ جدوى للمعرفة، لأنَّها متأخِّرة، يكفي أنَّها حاضرةٌ في دمي، في كلِّ خلاياي الدقيقة، الأكثر صغرًا.

ليس ما حدث لي هو فقط قصَّة كتاب، ولكن أكثر. امرأة القلب

من هذا الزمن المختلّ الذي قلَّت نساؤه وقلَّ رجالُه. تتخفَّى في التجاويف بين النبضة والنبضة، بين الخوف والخوف، والرعشةِ والرعشة، والغفوة والغفوة. تتوغَّل كلَّ يوم أكثر وكأنِّي أنا من أبدعها. كلَّما عاودتني صُوَرُها، تساءلتُ: أين رأيت هذه المرأة؟ أين صادفت ظلَّها؟ أيُّ قدر فتح عيني عليها؟ كيف توجَّهت نحوها وأنا أقدِّم لها نفسي: أنا ياسين الأبيض الذي حقَّق كتابك السرِّي، *ليالي العصفوريَّة*، برفقة صديقتي التي أحبَّتك أيضًا؟ أسمع صوتها يأتيني من بعيد، لا يُجيب عن سؤالي، ولكنَّه يهرب من هذه الأرض، راكضًا بخطًى حثيثة نحو سماء كانت تشبه الحجارة الباردة والجامدة: *اغسليني يا أمِّي من دمي، وضمِّيني للمرَّة الأخيرة إلى صدرك. لا أريد أن أموت في هذا البرد في وحدة قاسية*. ألمسها بأنفاسي وهي تتقطَّع كما خيطٌ ينسلُّ من لباس حريريٍّ حتى ينفرطَ كلِّيًا، ويصبحَ لا شيء. *اغسليني يا أمِّي من دمي، لقد نزف جرحي، ولم أعد قادرة على إيقافه*.

وأنا أقرأ من جديد محاضرتها التي ألقتها في الويست هول، في AUB، شعرت في ثوانٍ غيرِ معدودات، بأنَّني كنت هناك حقيقة. متخفِّيًا بين الجموع مثلَ الثعلب الصغير المتخفِّي بين الكراسي، أنظر إلى عينيها. كلّ التفاصيل الدقيقة التي كانت في داخلها، كنت معنيًّا بها بعمق، حتى رمشات عينيها الهاربة. هدوؤها الموارب، وحتى كلامها وتفاديها الحديث عن نفسها. كنت أعرفه كلمة كلمة. سمعتها تقوله. رأيته في عينيها، وفي حيرتها. وهل قالت ذلك الكلامَ الذي هزَّني بعنف. لا أدري كيف رأيت هذا كلّه، أو تخيَّلت أنِّي رأيتُه، في عينيها الوَجِلتين، كنت الوحيدَ من بين الجموع المتراصَّة، عند مدخل الويست هول، وفي داخله، الذي سمع بوضوح ما قالته خفيةً كي لا يسمعها

أحدٌ. *أقسى ما في الحبِّ هو أن تحوّل من كنت تحبّ، إلى حفنة بياض. وحيدةً أخرج الآن بلا جوزيف... أغمض عينَيَّ، وأسير على الماء والغيم بلا وجهة. قلبي كان مجروحًا وموجوعًا، لكنّي كنت أعيش حالة صفاء لم أحسّ بها من قبل. رأيت كامي كلوديل تضرب بيديها ورجليها لكي يحرّروها من قيدها. لأوّل مرّة أرى وجهها الجميل وهي تحاول أن تركض نحوي، لكنَّ القيد الفولاذيّ الذي كان بمعصمها ورجليها، منعها من أيّة حركة. عندما قاومت أكثر متحمّلة الألم الكبير، سال الدم غزيرًا عند ملتقى القيد، نازعًا نهائيًّا الجلدةَ الخارجيّة للرّجلين والمعصم.*

أتساءل: هل عشت زمن مي الذي قادها نحو العذاب الكبير؟ زمن شهد حربين قاتلتين وجدَتْ نفسها بينهما. الأولى انتهت وهي تحلم بالزهور والفرح، والرغبة المندفعة للخروج من شرنقة الذلّ والسجن الذكوريّ. والثانيةُ غادرَتْها وهي في قمّة اشتعالها. كلّما غفوت، رأيتها تجري كمن هرب من موت يركض وراءها. كلّ الحرائق التي كانت فيها انتقلت نحوي. التصقت بي وختمت على جلدي. لا يمكنني اليوم أن أسافر إلى القاهرة من دون الركض نحو قبرها قبل أن تقلع طائرات أسفاري بساعات، لا أدري لماذا؟ ربّما لأنّي اشتهيت أن أظلّ أركض وراء امرأة لا أدري إذا وُجدت، أو أنا من صنع جزءها الحميميَّ؟ والتوقُّف عند مدخل المقبرة لحظات قبل أن أتسلّل بخوف داخلها، ويأتيني الحارس ليقول لي كلامًا لقّنته إيّاه يوم زرتُ المكان لأوّل مرّة: *هذا قبر كاتبة لم يظلمها أفرادُ عائلتها فقط، ولكنَّ عصرًا ذكوريًّا جامدًا بكامله، يظنّ أنّه ولا يزال، مالك الحقيقة والجدوى. اخترقته بكلِّ ما أوتيت من قوّة. اختزلَتْ حياة سيّدنا المسيح وحملت*

صليبها على ظهرها بكلّه وسحبَتْه وراءها بثقل، والناس، حتى أقرب أصدقائها، ظلُّوا يتفرَّجون عليها. ويوم فتحَتْ قلبها من المرتفع العالي، وفتحت عينيها عن آخرهما، صمتت فجأة، وتركت دمعها يهدر. رأت في الحشد أقرب أصدقائها ينسحبون معلنين أنَّهم لا يعرفونها، ولا تعنيهم إلَّا قليلًا، وأنَّها كانت مجنونة وقد تحمَّلوها زمنًا طويلًا على مضَض.

أذكر أوَّل مرَّة، يوم زرت المقبرة المسيحيَّة وسألت الحارس عنها:

ـ مساء الخير. هل يمكن أن تدلّني على قبر الآنسة مي؟

أجاب بتعجُّب:

ـ مَيْ مين؟ فيه هنا مِيَّات المَيَّات يا عزيزي.

ـ مي زيادة. هل تعرفها. هي من ضيوف المقبرة التي تحرسها.

ـ طبعًا أعرفها. فيه إلِّلي بيقولوا عنها إنَّها كانت حبيبة الباشا. أحبَّها لعبقريَّتها، ولجمالها. وقتلها ابن عمّها من شدَّة الغيرة عليها، وأبوها وأمّها ماتا غبنًا وكمدت عليهما؟ ربَّما هذه القصَّة لا تروق لك.

ـ ليس فقط أنَّها لا تروق لي، ولكنَّها غير صحيحة.

يزورها ناس كثيرون؟

ـ لا، قليل جدًّا. أكاد أقول لك صراحة، لا أحد منذ سنوات.

ضحكت بمرارة وأنا على يقين بأنَّه مخطئ في الشخص التي كنت أريد زيارته. ثم مشيت وراءه حتى وصلت إلى اسمها المعلَّق في الهواء كروح إنسان، لا هو ميِّت ولا هو حيّ.

ثم جلسنا محاطين بالقبور، لا أحد يسمعنا سوى الأموات، حكيت له قصَّة مي كاملة. من يومها حفظها إلى درجة أنَّه نسي أنِّي أنا مَن لقَّنه تلك الجُمَلَ التي يكرِّرها أمام الزائرين. وأصبح يُعيدها حتى على مسمعي.

ـ ٣ ـ

من بين كلِّ الرسائل التي استطعت الحصول عليها، رسالتان من كامي كلوديل، ورسالتُها إليها، لم تُرسَل أبدًا. ألحقتها لنا الستّ زينب، أمّ الصبايا، ضمن الكيس في مقابل سعر رمزيّ، في المقهى، في مقهى الفيشاوي. في الرسالة شيء من خوفها: *السيِّدة كامي كلوديل. عذرًا على الجرأة، فأنا لا أعرفك إلَّا من منحوتاتك ومأساتك. لست أدري إذا ما كان سيُكتب لك قراءةُ هذه الرسالة، لكنَّها تشبهنا. أشعر أنَّ رودان وأخاك صورة مختصرة لجوزيف. كلُّهم قتلة، فوق سلطان القانون. ما الفرق بينهم في النهاية، لا يتحمَّلون امرأة ناجحة لا تشبه الأخريات... أعتقد أنَّ الموت هنا، بكلِّ جبروته وبشاعته. أراه في كلِّ زوايا البيت. يتنقَّل بكلِّ حرِّيَّة، يقترب لكنَّه لا يجرُؤ على لمسي. ربَّما هي اللحظات الأخيرة، التي يتحوَّل فيها الموت إلى غراب بعينين كبيرتين وأنا أهشّه لكي يُخلي المكان. يهرب، ثم يأتيني من جهة ثانية قبل أن يُحدث حفرة في قلبي بمنقاره الطويل معلنًا عن نهايتي. هو هنا. بدأت أهشّه. وهو يقترب. يهرب بعيدًا. يتأمَّل خوفي بعينيه الباردتين.*

هو هنا إذن ولا شيء يُبعده إلَّا حفرة القلب التي يتركها وراءه بعد أن يمتصّ الروح.

أسمع قلبك الذي تشبه خفقاتُه دقَّاتِ أجراس الكنائس القديمة. أسمع بوضوح أجراس كاتدرائيَّة البشارة. أسمع أذان الجامع الأبيض الذي يواجه بيتي في الناصرة. أتلمَّس خفقات منتصف الليل وأفكِّر في محنتك التي لم تنتهِ.

شيء ما ينسحب نهائيًّا من هذه المدينة التي بدت مستسلمة للصمت.

أُخِذت إلى مستشفى المَعادي. ثم نامت مثلَ ميِّت. يقولون إنَّها، في صباح الأحد، تأمَّلت السقف بعينيها ونظرت إلى جانبها فرأت سوادًا كثيفًا. كانت تقول كلامًا غير مفهوم سوى كلمتَين: الرسالة وجوزيف. ابتسمتْ قليلًا. تمتمت من جديد بسلسلة من الكلمات غير المترابطة: غبيَّة. كنت أحبّه. هرب. سيِّدة باريس. ثم بذلَتْ جهدًا أخيرًا، فأخفت رأسها تحت الفراش كما كانت تفعل وهي صغيرة. اهتزَّت في مكانها. نزعت الغطاء من على وجهها. ثم فتحت عينيها عن آخرهما، فاتَّسع البؤبؤان إلى درجة أن استوعبا كلّ ما كان يحيط بها من أثاث وبشر وآلات طبِّيَّة. سكنت قليلًا، ثم وجَّهت بصرها بشكل جانبيّ، تجاه الممرِّضة التي كانت تقف عند رأسها. بدأت تتكلَّم كأنَّها تحدِّث شخصًا معيَّنًا. أمّها: *هنا يا أمّي. هنا في أنفاسك العطرة. لا أعرف من سيزورني ويتحمَّل رائحة الأدوية والتوابيت، وهذا الألمَ الثقيل؟ لا أحد يا أمِّي. لا أحد أبدًا. ربَّما أمين الريحاني؟ لطفي السيِّد؟ العقَّاد؟ وربَّما لا أحد لتكتمل صورة الجنازة الباردة، حيث الأطفال يلعبون على حوافِّ المقبرة، غير مكترثين لما يحدث من حولهم ولا للتابوت المتَّجه نحو المقبرة المسيحيَّة.*

في العاشرة وخمس دقائق، يوم الأحد ١٩ تشرين الأوَّل/أكتوبر الثقيل، من سنة ١٩٤١، وقبل أن تنطفئ، التفتتْ إلى النافذة التي تسرَّب منها نورٌ مسح كلَّ الظلال الخفيَّة، فغرقت غرفة العمليَّات في شمس خريفيَّة بشلَّالات أشعَّتها.

فتحت مي، أو الأصحّ إيزيس كوبيا، بصعوبة عينيها، للمرَّة الأخيرة. ملأتهما بالنور الذي غمرَها فجأة، وعندما أغمضتهما للمرَّة الأخيرة، صعب عليها فتحُهما.

ـ ٤ ـ

القصاصة الصحافيَّة التي بين يدَيَّ، أحرقتني.

الرياح كنست الأرض، ورفعت حزمة من الأوراق والأتربة عاليًا. فجأة بدأت القطرات الأولى من مطر الخريف تسقط سميكةً وباردةً مثل نُدف الثلج الصلبة. نعش يسير بخطًى عسكريَّة، ووراءه ثلاثة أشخاص: خليل مطران، أنطوان الجميِّل، ولطفي السيِّد، بألبسة يغلب عليها اللون الأسود. في الزاوية اليمنى من المقبرة أطفالٌ يلعبون بكرة من القماش وأوراق الصحف، غير مكترثين لما كان يحدث إلى جانبهم. لا أحد ممَّن عرفتهم مي كان هناك. حتى الذين أحبُّوها، غابوا. اندثروا فجأة، وكأنَّهم لم يعرفوها مع أنَّهم سكنوا في بيتها، وعملوا في صحيفة والدها، واستراحوا في صالونها.

عندما كان لطفي السيِّد رئيسًا للمجمع اللغوي وطلب منه العقَّاد وطٰه حسين نشر الرسائل المتبادلة بين مي زيادة ورجال صالونها، ردّ بحكمة الرجل الذي خبر الدنيا: *لو تعارضت الفضيلةُ مع رذائلنا التي فعلناها في صالون مي، أننشر رذائلنا ونناقض الفضيلة؟ لم نكن ملائكة*

معها مطلقًا. لكلِّ واحد منّا أحقاده على الغير بسببها، بأنانيّة غير مسبوقة.

آخر ورقة ضممتها إلى المخطوطة بشكل موجع:

إنّي أموت، لكنّي أتمنّى أن يأتي بَعدي من يُنصفني.

وأنا أتأمّل الوثائق المتناثرة والمخطوطة، تذكّرت روز وهي تصوِّر المخطوطة والقصاصات المتناثرة حولها، ثم وهي تحزم حقيبتها للسفر فجرًا إلى إسطنبول، ومنها إلى مونتريال. كانت مثل طفلة تكبر في عينيها كلُّ الأعراس.

ـ ياسين حبيبي. أعرف أنّك في أقاصي انتشائك. قلِّل من اندفاعك نحو الأشياء، فهذا يؤذيك كثيرًا. أنت باحث، كاتب، عاشق كلَّ ما يدهشك، لكنّك ككلِّ الذين سبقوك في هوى مي زيادة: لغتك تفضح تعلُّقَك وحبَّك. لا يمكنك أن تخفي ما يشتعل في داخلك، وكلّما حاولت، اشتعل أكثر بألسنة عالية، وتخطّى حواجزك البائسة.

ـ قد يكون كلامك صحيحًا يا روز، لكن شعوري غريب. كأنّي أعرف هذه المرأة أكثر من أيِّ زمن مضى، ونافست رجالًا آخرين في حبِّها. بعد المخطوطة، جاءت نحوي عارية لأوّل مرّة، حاملة على ظهرها المعقوف قليلًا صليبَها الثقيل. كنّا نتأمّل جراحاتها وهي تعبر درب الآلام أمامنا.

كانت في صورة موحّدة. المجدليّة وسيِّدنا المسيح معًا، مضرَّجة في دمهما السخيّ.

أغلقتُ المخطوطة بلطف مخافة أن تتبعثر في الفضاءات

والسماوات، بعد أن شممتها للمرَّة الأخيرة كأنِّي أستنشق عطرًا نادرًا. وضعتها في علبة الحفظ، هي والوثائق، وأرجعتها إلى مكانها لتنام هناك بهدوء وسكينة إلى أن يأتي من يوقظها من سباتها وصمتها.

فجأة، وأنا أُهمُّ بالخروج ومغادرة صالة المخطوطات، تسرَّب صوت ناعم إلى أعماقي زارعًا سكينة غير معهودة فيّ. عرفته بدون جهد كبير. كان صوت ميّ المتخفِّي بين الأوراق التي مرّ عليها قرابة القرن. صوت إيزيس كوبيا. أقسم بأنِّي سمعت نشيجها وتنهُّداتها الحارقة. أغمضت عينيّ واستكنت قليلًا عند الباب الموارب. رأيتها فجأة تجلس قبالتي على كرسيٍّ قديم. كان شعرها أبيض مشدودًا بمسّاك خفيف، من العاج الرماديّ. كانت ملامحها متعبة، كأنَّها لم تنم إلَّا قليلًا. يختلط صوتها الناعم الذي يُخفي بصعوبة حشرجةً حزينةً، بفرقعات الفحم الحجريّ الذي كان يحترق في أعماق المدخنة القديمة: **أبقاني عنده شهرين ونصفَ شهر على مضض منِّي، وأنا أُطالبه بالعودة. حتى استكمل برنامجه في أمري، فأرسلني إلى *العصفوريَّة*، بحجَّة التغذية. وباسم الحياة، ألقاني أولئك الأقاربُ في دار المجانين أحتضرُ على مهل...**

الجزائر/القاهرة/الناصرة/باريس/بيروت، خريف ٢٠١٧

شكر

إلى كلِّ من ساهم، من قريب أو من بعيد، في إنجاز هذا العمل الصعب. ومن قال إنَّ الرواية فعل سهل؟

صديقتي ورفيقة دربي في الحياة والكتابة، زينب لعوج، الشاعرة والجامعيَّة. لها الفضل الكبير في متابعة هذه الرواية عن قرب. وكلَّما تعبت من الحصول على الكثير من الوثائق، كانت حاضرة، وخصَّصت وقتًا غير يسير للبحث في المكتبات الافتراضيَّة، والورقيَّة، عن المادَّة التاريخيَّة المبعثرة داخل أدغال الإنترنت، التي توفِّر مادَّة شديدة الأهمِّيَّة، على الرَّغم من فوضى هذه المادَّة، وعدم دقَّتها، في بعض الأحيان، الأمر الذي اقتضى مقارناتٍ كثيرةً للحصول على المادَّة الأقرب إلى الحقيقة. الكثير ممَّا قيل عن مي، كان محكومًا إمَّا بمسبقات الضغينة، وإمَّا بالحبِّ المطلق.

يذهب شكري أيضًا إلى الأستاذة الدكتورة رزان إبراهيم: أستاذة النقد في جامعة البترا، الأردن. فقد قامت بجهد جبَّار في المتابعة

الدقيقة لهذا العمل عن قرب، منذ أن كان مجرَّد فكرة، إلى أن تبلور وأصبح حقيقة. تخصُّصها العلميّ سمح لها بالاقتراب من تفاصيل حياة مي ومأساتها التي أشركتني في تفاصيلها. وأمدَّتني بالكثير من الأبحاث والدراسات المتخصِّصة، لبلورة مشروع رواية: *ليالي إيزيس كوبيا*. الجدل الذي دار بيننا بشأن مي زيادة وحياتها الخفيَّة والمعلنة، يستحقّ أن يكون كتابًا عن شخصيَّة ميْ التي لن تتكرَّر بسهولة، على الرَّغم من النهاية التراجيديَّة التي انتهت بها إلى مستشفى المجانين.

شكر خاصّ للجامعة الأميركيَّة، بكلِّ مؤسَّساتها العلميَّة، ومدير قسمها للدراسات العربيَّة ولغات الشرق الأدنى، الدكتور بلال الأرفه لي، ومدير مركز البحث في الفنون والإنسانيَّات، الدكتور عبد الرحيم أبو حسين، والسيِّدة ريتا باسل التي نظَّمت برنامجي بشكل ناجح ودقيق، طوال مدَّة استضافتي في الجامعة الأميركيَّة في بيروت AUB.

الشكر الكبير موصول لمديرة المكتبة في الجامعة الأميركيَّة، في بيروت، ولمسؤولة مركز التوثيق، التي أمدَّتني بالكثير من الوثائق النادرة وبالمحاضرات التي ألقتها مي، في الويست هول.

الشكر موصول للدكتورة سهيلة ميمون، من جامعة الشلف، والتي نشطت معي بحماسة ومحبَّة، في سلسلة المحاضرات التي ألقيتها في الجامعة الأميركيَّة، على مدار الأيَّام التي أمضيتها في الاستضافة.

لا أنسى الطلبة الذين داوموا طوال إقامتي على الجلسات العلميَّة في مركز البحث في الفنون والإنسانيَّات، وزاروني في مكتبي في الجامعة الأميركيَّة، للإجابة عن بعض أسئلة الكتابة، وعن الشخصيَّة التاريخيَّة، والمزالق المحيطة بها.

ولا أنسى عائلة مي زيادة الواسعة، التي استقبلتني في ضيعة شحتول، وجونية، وبيروت. شكر خاصّ لمؤرِّخ العائلة الباحث جريوس زيادة، الذي استقبلني في جونية، وأمدَّني بكتابه التوثيقيّ المهمّ عن ميْ.

حبّي وامتناني للصديق، الباحث الكبير، كريم مروَّة، الذي أفادني جدًّا بأسماء كبيرة اهتمَّت بمي في لبنان وخارجه، فكان نِعْمَ الحبيب والصديق.

شكري الذي لا حدَّ له يذهب نحو العزيز عسَّاف، من مؤسَّسة بوكلافا للكتاب الصوتيّ، والذي كان مرافقي الجميل في رحلة بيروتيَّة أَدِين له فيها بالكثير. فقد وضع نفسه تحت تصرُّفي، هو وسيَّارته وقلبه، وعلاقاته القريبة من آل زيادة، بالمصاهرة.

شكري الكبير يذهب إلى وزارة الثقافة الفلسطينيَّة التي استضافتني مع كوكبة من الأدباء العرب في ندوة الرواية العربيَّة، الأمر الذي سمح لي بالانتقال، على مسؤوليَّتي الشخصيَّة، إلى فلسطين العميقة، لمعاينة بيت مي الذي وُلدت فيه، في الناصرة.

الشكر الكبير للعزيزين، الباحثة الفلسطينيَّة المقدسيَّة نادية حرشاش، والروائيّ، مدير متحف درويش، سامح خضر، على المساعدة الكبيرة التي قدَّماها إليَّ، ومرافقتي حتى الناصرة وحيفا، وقاداني إلى كلِّ الأمكنة التي طلبتُ زيارتها. استقبلنا في الناصرة رئيس بلديَّتها السابق، الرجل المثقَّف والشهم، الأستاذ رامز جرايسي. والفضل الكبير يعود إليه أوَّلًا، وإلى الأستاذ أمين محمَّد علي، الأخ الشقيق للشاعر الكبير طٰه محمَّد علي، الذي يعرف عائلة زيادة جيِّدًا،

في زيارة المدينة القديمة حيث يوجد البيت الذي وُلدت فيه ميْ. حزنتُ لأنَّ العائلة الطيِّبة الساكنة في البيت، لم تكن تعرف طبيعة المكان، الذي كانت تُقيم به. لا يمكن أن تُعاقَب مي حتى في مسقط رأسها، إلى درجة أنَّ روائح طفولة الكاتبة، انتفت كلِّيًا، إلى درجة أنِّي شكَّكت في أنَّ البيت هو السكن العائليّ الأوَّل لمي؟ فتأكَّدت من صديقي الكاتب الفلسطيني توفيق فيَّاض الذي كان يزور بيتها، فبعث إليّ صورًا، تأكَّدت من خلالها من أنَّه المكان نفسه الذي زرته.

كلّ الشكر للصديق الدكتور جوني منصور من حيفا، ورفيقة عمره ڤيڤيان، ومن خلالهما لفلسطينيي حيفا ومثقَّفيها، الذين لم يقصِّروا معي في توضيح صورة فلسطين والمنطقة، من خلال جهودهم الفكريَّة والإعلاميَّة في رسم وجه آخر لفلسطين المحتلَّة، التي تكبر في الظلِّ، وخارج الاتِّفاقيَّات والأحكام المسبقة.

أخيرًا، الشكر لكلِّ الذين ساعدوني على تخطِّي عقبة البحث في التفاصيل المتناقضة من حياة مي، والذين لم يَرِد ذكرهم بالأسماء، فهم كُثُر. بعضهم استفدت من كتبهم، وآخرون من مقالاتهم المتخصِّصة، أو من أفلامهم الوثائقيَّة عن مي زيادة، على مدار السنتين الماضيتين، في محاولة لاستعادة امرأة بدأ النسيان الظالم يطويها، ويسرق منها وجودًا إبداعيًّا واجتماعيًّا وإنسانيًّا استحقَّته بامتياز.

ما زلت أؤمن وأنا أُنهي «*ليالي إيزيس كوبيا*»، بأنَّ الرواية أصبحت اليوم أهمَّ سلاح في وجه طغيان النسيان وهزيمة الذاكرة، لتحرير التمثال العالق منذ قرون، بأعماق الصخرة الصمَّاء.

مؤلَّفات واسيني الأعرج لدى دار الآداب:

شرفات بحر الشمال [٢٠٠٢، جائزة الرواية الجزائريَّة]

كتاب الأمير [٢٠٠٦، جائزة الشيخ زايد والمكتبيين]

أشباح القدس [٢٠٠٨، جائزة القلم الذهبيّ]

أُنثى السراب [٢٠١٠]

أصابع لوليتا [٢٠١٢، جائزة الإبداع العربيّ]

مملكة الفراشة [٢٠١٥، جائزة كتارا]

سيِّدة المقام [٢٠١٥ طبعة جديدة]

سيرة المنتهى [٢٠١٥]

طوق الياسمين [٢٠١٥، طبعة جديدة]

2084 حكاية العربي الأخير [٢٠١٥]

نساء كازانوڤا [٢٠١٦]

عند قراءة رواية مي: ليالي إيزيس كوبيا، تصبح مي زيادة الإنسانُ على مسافة نَفَس منّا، فنسمع نشيجها وهي في قمّة عزلتها في مستشفى المجانين، العصفوريّة، الذي زُجّتْ فيه ظلمًا، بهدف الاستيلاء على ميراثها العقاريّ والماليّ... ونُصغي إلى أنفاسها وهي تخبو بهدوء، قبل رحيلها الأخير عن دنيا حوّلها الأهل والأصدقاء إلى جحيم.

بل تذهب الرواية إلى أبعدَ من ذلك، في تحليلها الفنيّ لمشكلات العصر الخطيرة، إذ اختار جيل مي الحداثة، لكنّه رفض دفع ثمنها. لطفي السيّد، طه حسين، الرافعي، العقّاد، جبران، شوقي، مطران، الريحاني وغيرهم، هيكلوا فكريًّا مجتمعَ العشرينيّات حتى الخمسينيّات، لكنّهم تركوه معلّقًا داخل حداثة مستحيلة، شكّلتها المنظومة الدينيّة والفكرُ المحافظ.

واسيني الأعرج، جزائريّ من مواليد سنة ١٩٥٤. أحد أهمّ الروائيّين العرب، وأغزرهم إنتاجًا. أكاديميّ في جامعتَي السوربون - باريس، والجزائر ٢. حصل على العديد من الجوائز الأدبيّة المرموقة. تُرجمت رواياته إلى أكثر من ١٥ لغةً عالميّة.

ISBN: 978-9953-89-568-0
9 789953 895680

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف: 795135- 9611861633+